

شـــرح لاميـــة العجـــم

الشيخ مصطفى مخدوم.



الفهرس

المحاضرة الأولى: ٨
المقدمة: ٨
نبذة عن لاميَّة العجم: ٩
تسميتها: ٩
مُؤلفها: ١٠
شرح لاميَّة الطُّغرائي: ١٢
البيت الأول: أصالةُ الرأي صانتْنِي عن الخَطَلِ ... وحِليةُ الفضلِ زانتني لدَى العَطَلِ ١٢
الشرح: ١٢
البيت الثاني: مجدي أخيراً ومجدِي أوّلاً شَرَعٌ ... والشمسُ رأْدَ الضُحَى كالشمسِ في الطَفَلِ ١٥
الشرح: ١٥
البيت الثالث: فيمَ الإقامُة بالزوراءِ لا سَكَني ... بها ولا ناقتي فيها ولا جَملي ١٨
الشرح: ١٨
البيت الرابع: نَاءٍ عن الأهلِ صِفْرُ الكفِّ منفردٌ ... كالسيفِ عُرِّيَ متناهُ من الخَلَلِ ٢٠
الشرح: ٢٠
البيت الخامس: فلا صديقَ إليه مشتكَى حزَنِي ... ولا أنيسَ إليه منتَهى جذلي ٢٢
الشرح: ٢٢
المحاضرة الثانية: ٢٤
المقدمة: ٢٤
البيت السادس: طالَ اغترابِيَ حتى حنَّ راحلتِي ... ورحُلها وقرَى العَسَّالةِ الذُّبلِ ٢٤
الشرح: ٢٤
البيت السابع: وضَجَّ من لَغَبٍ نضوي وعجَّ لما ... يلقَى رِكابي ولجَّ الركبُ في عَذَلي ٢٧
الشرح: ٢٧
البيت الثامن: أُريدُ بسطةَ كَفٍ أستعينُ بها ... على قضاءِ حُقوقٍ للعُلَى قِبَلي ٢٩
الشرح: ٣٠

البيت التاسع: والدهرُ يعكِسُ آمالِي ويُقْنعُني ... من الغنيمةِ بعد الكَدِّ بالقَفَلِ........................ ٣٢
الشرح:.. ٣٢
البيت العاشر: وذِي شِطاطٍ كصدرِ الرُّمْحِ معتقلٍ ... لمثلهِ غيرَ هيَّابٍ ولا وَكِلِ...................... ٣٤
الشرح:.. ٣٤
البيت الحادي عشر: حُلْوِ الفُكاهِةِ مُرُّ الجِدِّ قد مُزِجتْ ... بقسوةِ البأسِ فيه رِقَّةُ الغزَلِ ٣٥
الشرح:.. ٣٥
المحاضرة الثالثة: ٣٧
المقدمة: ٣٧
البيت الثاني عشر: طردتُ سرحَ الكرى عن وِرْدِ مُقْلتِه ... والليلُ أغرَى سِوامَ النومِ بالمُقَلِ ٣٧
الشرح:.. ٣٧
البيت الثالث عشر: والركبُ مِيلٌ على الأكوارِ من طَرِبٍ.. صاحٍ وآخرَ من خمر الهوى... .... ٤٠
الشرح:.. ٤٠
البيت الرابع عشر: فقلتُ أدعوكَ للجُلَّى لتنصُرَنِي ... وأنت تخذِلُني في الحادثِ الجَلَلِ.............. ٤٢
الشرح:.. ٤٢
البيت الخامس عشر: تنام عيني وعينُ النجمِ ساهرةٌ ... وتستحيلُ وصِبغُ الليلِ لم يَحُلِ ٤٤
الشرح:.. ٤٤
البيت السادس عشر: فهل تُعِيُن على غَيٍّ هممتُ بِهِ ... والغيُّ يزجُرُ أحياناً عن الفَشَلِ ٤٧
الشرح:.. ٤٧
البيت السابع عشر: إني أريدُ طروقَ الحي من إضمٍ ... وقد حماهُ رماةٌ من بني ثُعلِ................. ٤٩
الشرح:.. ٤٩
المحاضرة الرابعة: ٥١
المقدِّمة: ٥١
البيت الثامن عشر: يَحْمُونَ بِالبِيضِ وَالسُّمْرِ اللّدَانِ به ... سُودَ الغَدَائِرِ حُمْرَ الحَلْيِ وَالحُلَلِ.......... ٥١
الشرح:.. ٥١
البيت التاسع عشر: فسرْ بِنا فِي ذِمَامِ اللَّيْلِ مُعْتَسِفًا...فنَفْحَةُ الطيبِ تَهْدِينَا إِلَى الحِلَلِ.......... ٥٤

الشرح: ٥٤
البيت العشرون: فَالحِبُّ حَيثُ العِدَى والأُسْدُ رَابِضَةٌ...حَـوْلَ الكِنَاسِ لَهَا غَابٌ مِنَ الأَسَلِ.......... ٥٦
الشرح: ٥٦
البيت الحادي والعشرون: نَؤُمُّ ناشـئةً بالجزِعِ قد سُقيت...نِصَـالُهَا بِمِيَـاهِ الغُنْـجِ والكَحَلِ ٥٨
الشرح: ٥٨
البيت الثاني والعشرون: قدْ زادَ طِيبَ أَحَادِيثِ الكِرَامِ بِهَا...مَا بِالـكَرَائِمِ مِنْ جُـبْنٍ ٦٠
الشرح: ٦٠
البيت الثالث والعشرون: تَبِيتُ نَـارُ الهَـوَى مِنْهُنَّ فِي كَبِدٍ...حَرَّى وَنَارُ القِرى مِنْهم... .... ٦١
الشرح: ٦١
البيت الرابع والعشرون: يَقْتُلْنَ أَنْضَاءَ حُبٍّ لا حِراك بهِ...وَيَنْـحَرُونَ كِـرَامَ الخَيْلِ والإِبِلِ........... ٦٢
الشرح: ٦٢
البيت الخامس والعشرون: يُشْفَـى لَـدِيغُ الـعَوَالِي فِي بِيُوتِهِمُ...بِنَـهْلَةٍ مِنْ غَدِيرِ الخَمْرِ... .... ٦٣
الشرح: ٦٣
البيت السادس والعشرون: لـعلَّ إِلْـمَامَةً بِالجَزْعِ ثَانِيَةً يَدِبُّ...مِنْـها نَسِيمُ البُـرْءِ... .... ٦٤
الشرح: ٦٤
المحاضرة الخامسة: ٦٥
المقدمة: ٦٥
البيت السادس والعشرون: لعلَّ إلمامةً بالـجزِعِ ثانيةً .. يدِبُّ منها نـسيمُ البُرْءِ في عِلَلِ............ ٦٦
الشرح: ٦٦
البيت السابع والعشرون: لا أكرهُ الطعنةَ النجلاءَ قد شُفِعَتْ ..برشقةٍ من نِبالِ ٧٠
الشرح: ٧٠
البيت الثامن والعشرون: ولا أهابُ الصِّفاح البِيض تُسعِدُني.. باللمحِ من خَلل الأستار... .... ٧٣
الشرح: ٧٣
البيت التاسع والعشرون: ولا أخِـلُّ بغِـزلان أغـازِلُـهـا.. ولو دهـتـني أسُودُ... .... ٧٥
الشرح: ٧٥

البيت الثلاثون: حبُّ السلامةِ يَثْني همَّ صاحِبه...عن المعالي ويُغرِي المرءَ بالكَسلِ ٧٧
الشرح: ٧٧
البيت الحادي والثلاثون: فإن جنحتَ إليه فاتَّخِذْ نَفقًا.. في الأرضِ أو سُلَّمًا في الجوِّ... .... ٨٠
الشرح: ٨٠
البيت الثاني والثلاثون: ودَعْ غمارَ العُلى للمُقدِمين على.. ركوبِها واقتنعْ منهن بالبَلَلِ ٨٢
الشرح: ٨٢
المحاضرة السادسة: ٨٣
المقدِّمة: ٨٣
البيت الثالث والثلاثون: رِضَى الذَّلِيلِ بِخَفْضِ العَيشِ مَسْكَنَةٌ ..وَالعِزُّ عِنْدَ رَسِيمِ ٨٤
الشرح: ٨٤
البيت الرابع والثلاثون: فَادْرَأْ بِـــهَا فِي نُحُورِ البِيدِ جَافِلَةً ..مُعَارِضَـاتٍ مَثَـانِي اللُّجْمِ... .... ٨٦
الشرح: ٨٦
البيت الخامس والثلاثون: إنَّ العُـــلَا حَدَّثَتْنِي وَهْيَ صَادِقَةٌ ..فِـي مَـا تُحَدِّثُ أَنَّ العِزَّ... .... ٨٩
الشرح: ٨٩
البيت السادس والثلاثون: لَو أنَّ فِي شَرَفِ المَأْوَى بُلُوغَ مُنَىً ..لَمْ تَبْرَحِ الشَمْسُ يَوْمًا... .... ٩٠
الشرح: ٩٠
البيت السابع والثلاثون: أَهَبْـتُ بِالحَظِّ لُو نَادَيتُ مُسْتَمِعًا ..وَالحَـظُّ عَـنِّي بِالجُـهَّالِ... .... ٩٢
الشرح: ٩٢
البيت الثامن والثلاثون: لَـعَلَّهُ إِنْ بَـدَا فَـضْلِي وَنَقْصُهُمْ ..لِعَـيْنِهِ نَـامَ عَـنْهُمْ... .... ٩٣
الشرح: ٩٣
البيت التاسع والثلاثون: أُعَـلِّلُ النَــفْسَ بِالآمَـالِ أَرْقُبُهَا ..مَا أَضْيَقَ الْعَيشَ لَوْلَا... .... ٩٤
الشرح: ٩٤
البيت الأربعون: لَـمْ أَرْضَ بِالـعَيشِ وَالأَيَّامُ مُقبِلَةٌ ..فَكَيفَ أَرْضَى وَقَدْ وَلَّتْ عَلى عَجَـلِ ٩٦
الشرح: ٩٦
البيت الحادي والأربعون: غَـالَى بِـنَفْسِي عِـرْفَانِي بِقِيمَتِهَا ..فَصُنْتُهَا عَنْ رَخِيصِ... .... ٩٨

الشرح:.. ٩٨
البيت الثاني والأربعون: وَعَـادَةُ النَـصْلِ أَنْ يَزْهُو بِجَوْهَرِهِ ..وَلَـيسَ يَـعْمَلُ إِلَّا فِي... .... ١٠٠
الشرح:.. ١٠٠
المحاضرة السابعة:.. ١٠٢
المقدمة: ١٠٢
البيت الثالث والأربعون: ما كنتُ أُوثِـرُ أن يمتدَّ بي زمني.. حتى أرى دولةَ الأوغادِ... .... ١٠٢
الشرح:.. ١٠٣
البيت الرابع والأربعون: تقدَّمتني أنـاسٌ كـان شَـوطُهُمُ ...وراءَ خطويَ لو أمشي... .... ١٠٥
الشرح:.. ١٠٥
البيت الخامس والأربعون: هـذا جَزاءُ امرئٍ أقرانُه درَجُوا ... من قَبْلِهِ فتمنَّى فُسحةَ... .... ١٠٦
الشرح:.. ١٠٦
البيت السادس والأربعون: وإنْ عَلانِيَ مَنْ دُوني فلا عَجَبٌ.. لي أُسوةٌ بانحطاطِ... .... ١٠٧
الشرح:.. ١٠٧
البيت السابع والأربعون: فاصبرْ لها غيرَ محتالٍ ولا ضَجِرٍ.. في حـادثِ الدهرِ ما يُغني... .... ١٠٨
الشرح:.. ١٠٨
البيت الثامن والأربعون: أعدى عـدوِّكَ أدنى من وَثِقْتَ به... فحاذرِ الناسَ واصحبهمْ... .... ١٠٩
الشرح:.. ١٠٩
البيت التاسع والأربعون: فـإنّما رجُلُ الدُّنـيا وواحِدُها.. مـن لا يعوّلُ في الدُّنيا على... .... ١١٢
الشرح:.. ١١٢
البيت الخمسون: وحسنُ ظَـنِّكَ بالأيام مَعْجَزَةٌ.. فـظُنَّ شَرّاً وكنْ منها على وَجَلِ ١١٣
الشرح:.. ١١٤
المحاضرة الثامنة والأخيرة:... ١١٦
المقدمة: ١١٦
البيت الحادي والخمسون: غاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت.. مسافةُ الخُلْفِ... .... ١١٦
الشرح:.. ١١٧

البيت الثاني والخمسون: وشان صدقك عند الناس كذبهم.. وهل يُطابَق معْوجٌ... .... ١١٩

الشرح:.. ١١٩

البيت الثالث والخمسون: إن كان ينجع شيء في ثباتهم...على العهود فسَبْق... .... ١٢٠

الشرح:.. ١٢٠

البيت الرابع والخمسون: يا واردًا سؤر عيشٍ كله كدر...أنفقت صفوك في...................... ١٢٢

الشرح:.. ١٢٢

البيت الخامس والخمسون: فيم اقتحامك لُجَّ البحرِ تركَبُهُ ..وأنتَ تكفيك منه... .... ١٢٥

الشرح:.. ١٢٥

البيت السادس والخمسون: مُلْك القناعة لا يُخْشى عليه.. ولا يُحتاج فيه إلى... .... ١٢٧

الشرح:.. ١٢٧

البيت السابع والخمسون: اقنع تجِلَّ ولا تطمع تذل ولا.. تعجل تزل ولا تغتر...............١٢٨

الشرح:.. ١٢٨

البيت الثامن والخمسون: ترجو البقاء بدار لا ثبات لها.. فهل سمعت بظل غير... .... ١٢٩

الشرح:.. ١٢٩

البيت التاسع والخمسون: وَيَا خبيرًا على الأسرار مطلعًا.. اصمت ففي الصمت... .... ١٣٢

الشرح:.. ١٣٢

البيت الستون: قد رشحوك لأمرٍ إن فطنت له.. فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل ١٣٢

الشرح... ١٣٢

المحاضرة الأولى:

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهمَّ آتِ نفوسنا تقواها، وزكِّها أنتَ خير مَن زكَّاها، أنتَ وليها ومولاها. اللهمَّ إنا نسألكَ علمًا نافعًا وعملًا صالحًا مُتقبلًا، اللهمَّ أحسِن نياتنا وذرياتنا وأحسِن ختامنا يا أرحم الراحمين.

أمَّا بعد أيها الأخوة؛ الإنسان العاقل يسعى دائمًا إلى طلب الحكمة، والحكمة -كما تعرفون-: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يمنع الإنسان من الوقوع في الخطأ؛ كلُّ ما يمنعكَ من الوقوع في الخطأ فإنَّه يُسمَّى حكمة.

وهذه الحكمة لها مواطن تُستفاد منها ومنابع تُستقى منها، فمنها كتاب الله سبحانه وتعالى فإنَّه منبع الحِكَم الأساس، ثمَّ سنة رسول الله ﷺ، ومنها أيضًا الشعر، فإنَّ الشعر كما قال النبي ﷺ في صحيح البخاري: "وإنَّ من الشعرِ حكمةً"، **فالشعر من مواطن الحِكَم التي يستفيد الإنسان منها معاني جليلةً وشريفةً وصحيحةً، تُفيده في أمور دينه ودُنياه**، بل إنَّ النبي ﷺ كان يستنشد الشعر، كما جاء في صحيح مُسلمٍ أنَّه أردف عمرو بن الشَّريد في بعض الروايات، والرواية الصحيحة أنَّه أردف الشَّريد -يعني أباه- فقال له: "هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْءٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: هِيهِ، فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتًا، فَقَالَ: هِيهِ، ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتًا، فَقَالَ: هِيهِ، حَتَّى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ" [مسلم: ٢٢٥٥]، وقال فيه ﷺ: "كَادَ أُمَيَّةُ بن أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمْ" [البخاري: ٣٨٤١]، بل إنَّه ﷺ ردد بعض هذه الأبيات في بعض المواطن: "هل أنتِ إلا إصبَعٌ دَميتِ ... وفي سبيل الله ما لقيتِ" [صحيح البخاري: ٢٨٠٢]،

بل قال: "أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَاعِرِ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلِ" [البخاري: ٣٨٤١]، وهذا الحُكم لا يصدر إلَّا بعد معرفةٍ واطِّلاعٍ بما قاله الشعراء، وإلَّا لم يكُن مُطابقًا للواقع، وحاشاه ﷺ أن يقول كلامًا لا يُطابق الواقع، فالحُكم بالأصدقية على هذا البيت معناه أنَّه ﷺ سمِع واطَّلع على أشعار الشعراء، ثم حكم أن هذه الكلمة هي أصدق كلمةٍ قالها شاعرٌ.

وهكذا كان في أصحاب رسول الله ﷺ شعراءٌ، كعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وعامر بن الأكوع، وكانوا يُنشدون الشعر بين يدي رسول الله ﷺ دعوةً للإسلام ودفاعًا عن رسول الله ﷺ.

فالشعر أيها الأخوة هو من مواطن الحكمة، وينبغي لطالب العلم أن يحفظ من الشعر ما يستفيد منه المعاني التي تزيده علمًا بالحكمة، وعلمًا بالمعاني، وعلمًا باللغة، ولا سيما أن تفسير كتاب الله وتفسير سنة رسول الله ﷺ يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمعرفة اللغة، فإنها جاءت بلغة العرب، ولا تُفهم إلا على أساليب العرب في بيانها وفي كلامها.

نبذة عن لاميَّة العجم:

ومن أجلِّ هذه القصائد الشعرية في تاريخ الشعر هذه اللاميَّة التي تُسمَّى بِـ«**لاميَّة العجم**»، وتسميتها بـ لاميَّة العجم هو من باب المُناظرة والمُشابهة والمُقابلة بِـ«**لاميَّة العرب**».

لاميَّة العرب هذه القصيدة المشهورة للشنفرة الكهلاني الذي توفي في الجاهلية قبل بعثة النبي ﷺ، فكانت له هذه القصيدة التي سارت بها الرُّكبان، وهي قصيدةٌ مشهورةٌ، وفيها من الحِكَم التي استفادها الشاعر من تجاربه في الحياة:

أَقِيــموا بَنــي أُمّــي صُــدورَ مَطِيِّكــُم فـإِنّــي إِلـــى قَــومٍ سِواكُـــم لَأَمْيَـــلُ

فجاء هذا الشاعر وأنشد هذه القصيدة وهي اللاميَّة، ليقول إن كان للعرب لاميَّةٌ مشهورةٌ وفيها هذه الحِكَم، فالعَجم أيضًا لها هذه اللاميَّة.

تسميتها:

ونسبتها إلى العجم فيما أحسب أنَّها إشارةٌ إلى قائلها؛ لأنَّ القصيدة الأولى -لاميَّة العرب- هي لرجلٍ من عرب قحطان، وأمَّا هذه اللاميَّة فهي لرجلٍ من عجم أصبهان؛ لأنَّ الشاعر يرجع أصله إلى مدينة أصبهان في بلاد فارس، فتسميتها بِ(لاميَّة العجم) هو من باب المُقابلة والمُناظرة بلاميَّة العرب للشَنفرة، مع أنَّ هذه اللاميَّة فيها من المعاني التي جاء بها الإسلام والشرع ما ليس في القصيدة الأولى، القصيدة الأولى جاهليةٌ فلم يكُن الوحي قد نزل، وبالتالي مصدر هذه المعاني كان هو الخبرة الإنسانية، بينما هذه القصيدة استُقيت معانيها من تجاربه في الحياة، وأيضًا من المعاني التي جاء بها الشرع الحكيم.

مُؤلفها:

وهذه القصيدة المشهورة هي: لأبي إسماعيل حسين بن أحمد -وقيل ابن محمد- بن عبد الصمد الأصبهاني الطُّغرائي، هكذا ضبطها ابن خَلِّكَان في (وفيات الأعيان)، وابن خَلِّكَان من أكثر العلماء عنايةً بضبط الألفاظ، فهو يضبط الألفاظ من حيث الحركات، وهو من أوثق الناس في هذه القضية، كما أنَّه يمتاز عن بقية المُؤرخين بأنَّه لا يَكيل المدائح والألقاب الرنانة لمَن يُترجِم لهم، كما هو معهودٌ في كثيرٍ من كتب التاريخ والتراجُم، لكنَّه يُنصف الرجل ويركِّز على المعاني التي يحتاج إليها القارئ لهذا الكتاب.

فمن أهمِّ ما يتميز به كتابه العناية بضبط الأعلام والألقاب والأسماء، فضبطها هكذا الطُّغْرائي، وهذه نسبةٌ إلى كتابه الطُّغرى، والطُّغرى هي: الحاشية أو الطُّرَّة أو الافتتاحية، التي تُكتب في أعلى الصفحة وفي بداية الكتاب والخطاب، وهذا كان من الوظائف التي يشتغل بها الكُتَّاب عند الملوك والسلاطين، فإذا أراد أن يكتب كتابًا أو يصدر فرمانًا -كما يُقال- فإنَّه يأتي بهؤلاء الكُتَّاب ليصوغوا هذا الخطاب، وكانوا يبدؤون أولًا بذِكر ألقاب هذا الملك وأوصافه في بداية الكتاب، فهذه الطُّرة أو هذه الافتتاحية يُقال لها الطُّغرى باللغة الأعجمية، يعني هي ليست كلمةً عربيةً لكنَّها لغةٌ أعجميةٌ، وقيل بأنها مأخوذةٌ من اللغة التترية الطُّرائي، ولكنَّ الطُّغرائي نُسِب إلى هذا قبل أن يدخل التتار إلى بلاد المسلمين، التتار دخلوا في القرن السادس والسابع.

فالخلاصة أنَّ أبا إسماعيل لُقِّب بالطُّغرائي نسبةً إلى هذه الصنعة؛ لأنَّه كان يشتغل بها، وابنه أيضًا إسماعيل اشتغل بهذه الوظيفة لدى الملك مسعود السلجوقي، ولقبه المشهور بـ فخر الكُتَّاب، يُقال له: فخر الكُتَّاب، إذا قيل هذا اللقب فينصرف إلى الطُّغرائي، وكان يُلقَّب بـ الأستاذ أيضًا، وبـ المُنشئ البليغ أيضًا، هذه مجموعة ألقابٍ تدلُّ على مكانته الأدبية والشعرية في ذلك العصر.

والرجل كان وزيرًا في أواخر حياته بعد أن عانى من الفقر وقلة ذات اليد في أول حياته، وهكذا الدنيا قُلَّبٌ، لكنَّه ابتُلي بهذا المنصب، ولما دارت الحرب بين السلاجقة؛ بين مسعود السلجوقي ومحمود السلجوقي فانتهت بنُصرة محمود السلجوقي وقُبِض على الوزير الطُّغرائي لأنَّه وزير الخَصم، وقتلوه بعد ذلك ظلمًا وعدوانًا، وإن حاولوا أن يُلفِّقوا له بعض التهم.

وكان من أشهر العلوم التي عُني بها بالإضافة إلى الأدب والشعر، عُني بعلم الكيمياء، **وعلم الكيمياء عند المُتقدمين أخصُّ من علم الكيمياء عند المُتأخرين، فعلم الكيمياء عند المُتقدمين إنَّما يُطلق على تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسةٍ،** بمعنى أن يُحوِّلوا النحاس إلى ذهبٍ مثلًا، أو يحولوا الحديد إلى فضة، وهذا

أمر قد اختلف المُتقدمون في إمكانه وفي مشروعيته أيضًا؛ فبعض العلماء يرون أنَّه أمرٌ مُمكنٌ ومنهم الفخر الرازي، فكانوا يرون إمكان هذا الأمر باعتبار أنَّ الاختلاف بين المعادن إنَّما هو عندهم في الخواص وفي الصفات العرَضية، وليست في الجوهر وفي الذات، ومن هنا رأوا أنَّه يُمكِن بشيءٍ من تركيب المعادن بنِسَبٍ مُعينةٍ أن نُنتِج معدنًا آخر من خلط هذه المعادن بعضها في بعضٍ، ولكنَّهم قالوا هذا أمرٌ عسيرٌ لأنَّه يتوقف على مسألة المقادير، ومسألة معرفة المعادن التي ينشأ من امتزاجها معدنٌ ثالثٌ.

ولكن ذهب أكثر العلماء إلى أنَّ هذا العلم إن سلَّمنا بإمكانه من حيث العادة، فإنَّه -كما هو مذهب أكثر الفقهاء- ليس مشروعًا، بل أدخلوه في باب الغش، واستدلوا على عدم جوازه بقوله ﷺ: "مَنْ غَشَّنَا فَلَيسَ مِنَّا" [مسلم: ١٤٦].

وقد ألَّف الإمام ابن تيمية -رحمه الله- رسالةً في الاشتغال بهذا العلم، وذهب إلى أنَّه لا يُمكِن من حيث الأصل، يرى أنَّه ليس مُمكِنًا من حيث العادة، وأنَّ الله سبحانه وتعالى جعل لكلِّ معدنٍ خصائص ذاتيةً لا تتغير ولا تنقلب إلى أعيانٍ أخرى، والمُخالفون قالوا: بل من الممكِن أن ينتج من خلط معدنين شيءٌ ثالثٌ له خصائص جديدةٌ، والقرآن يشير إلى هذا في قصة ذي القرنين: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]، فلمَّا أضاف النُّحاس إلى الحديد خرج نوعٌ ثالثٌ أشد صلابةً من الحديد؛ بحيث لا يقبل النقب والخرق والتأثير.

فعلى كلِّ حالٍ، الخلاف الذي جرى بين العلماء في هذا العلم إنَّما هو في مسألة الإمكان، ثمَّ على القول بالإمكان هل هو مشروعٌ أو هو داخلٌ في الغش والتزوير.

فالشاعر كان معروفًا بالاشتغال بهذا العلم، وألَّف في هذا العلم مجموعةً من الكتب تصل إلى أربعة كتبٍ تقريبًا في مسألة الإمكان، وسيُشير إلى هذا المعنى في بعض الأبيات الآتية.

شرح لاميَّة الطُّغرائي:

البيت الأول: أصالةُ الرأي صانتْني عن الخَطَلِ ... وحِليةُ الفضلِ زانتني لدَى العَطَلِ

يقول الشاعر الطُّغرائي -رحمه الله-:

أصـــالةُ الـــرأي صـــانتْني عـــن الخَطَـــلِ   وحِليـــةُ الفضـــلِ زانتـــني لـــدَى العَطَـــلِ

الشرح:

"أصالةُ الرأي" هذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، والمعنى: الرأي الأصيل، والرأي: هو الفِكر والنظر، والأصيل: هو الذي له أصلٌ ثابتٌ. والرأي كما تعرفون منه ما هو أصيلٌ؛ له أصلٌ ثابتٌ مُعتبرٌ مُطابقٌ للحقيقة، وهناك آراءٌ مُنْبَتَّةٌ ليس لها أساسٌ وليس لها أصلٌ ولا تنتمي إلى الحقيقة بشيءٍ.

"صانتْني" من الصيانة وهي الحِفظ والرعاية، ونسبة الصيانة إلى الرأي وكذلك ما بعده هذا -كما يُسمِّيه أكثر العلماء- من باب المجاز العقليّ بعلاقة السببية، يعني أضاف الصيانة إلى الرأي، لأن هذا الرأي هو سببٌ لهذه الصيانة والحِفظ، وإلا فالحافظ حقيقةً هو الله سبحانه وتعالى، ولكن هذا من باب النسبة إلى السبب كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]

الذي يزيد الإيمان هو الله سبحانه وتعالى، ولكن الآيات هي سببٌ لزيادة هذا الإيمان، فهو مجازٌ في الإسناد، ويُسمَّى عند علماء البلاغة بالمجاز العقلي.

"صانتْني عن الخَطَلِ" الخطل: هو الاعوجاج والفساد، يُقال: في كلامه خطَلٌ؛ يعني فسادٌ، ومنه الأخطل؛ وهذا لقبٌ يُطلَق على الرجل إذا كان في أذنه اعوجاجٌ أو كان فيه استرخاءٌ، فيُقال له في لغة العرب: الأخطل، ومنه سُمِّي الشاعر الأخطل المشهور؛ وهذا لقبٌ يُطلَق على أربعةٍ من الشعراء في التاريخ، ولكن أشهرهم: الأخطل غِياثُ بن غَوث النصراني الذي كان على دين النصارى، وكان في زمن بني أمية -وهو أشهرهم- وإلَّا يُطلَق على آخرين أيضًا كالأخطل أخي الفرزدق مثلًا، ولكن أشهرهم هو هذا الأخطل الشاعر الذي كان في زمن أمية، وكان نصرانيًّا وهو صاحب البيت المشهور:

إنَّ الْـــكَلَامَ لَفِـــي الْفُـــؤَادِ وَإِنَّمَـــا   جُعِـــلَ اللسَـــانُ عَـــلَى الْـــفُؤَادِ دَلِـــيلًا

هو صاحب هذا البيت المشهور، ولهذا لمَّا ردَّ العلماء هذا البيت، قالوا هذا شاعرٌ شعره نصرانيٌّ مُثلِّثٌ -أي يقول بالتثليث- فلا يُحتج به في أن الكلام هو المعنى النفسي وليس اللفظ كما يقول الشاعر.

فهذا المقصود بالخَطَل.

"وحِليةُ الفضلِ زانتني" **الحلية**: هي الزينة التي تتزين بها المرأة، مثل القلادة والسوار ونحو ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ [الزخرف: ١٨]، المقصود به هنا النساء أو المرأة، ولهذا كان العلماء كالشيخ الأميري -رحمه الله تعالى- يقول إن هذه الآية تدلُّ على أن المرأة مخلوقٌ فيه نقصٌ طبيعيٌّ، وأن هذه الآية هي كنايةٌ عن هذا النقص الطبيعي، واستشهد على هذا بقول الشاعر:

وَمَا الْحَلْيُ إِلَّا حيلةٌ لِنَقِيصَةٍ ... تُتَمِّم مِنْ حُسْنٍ إِذَا الْحُسْنُ قَصَّرَا

فأَمَّا إِذَا ما الحُسن كان مُكَمَّلًا ... كَحُسْنِكِ لَمْ يَحْتَجْ إِلَى أَنْ يُزَوَّرَا

فالشاعر يقول بأنَّ الحلي والتزيُّن به ما هو تكميلٌ لنقصٍ تُحس به المرأة في نفسها وفي جبلتها، ولهذا مَن ترى نفسها غانيةً وجميلةً لا تحتاج ولا تحرص على مسألة التحلِّي بالزينة، فالحلية هي الزينة -كما جاء في الآية الكريمة-.

"وحِليةُ الفضلِ زانتني لدَى العَطَل" **العطَل**: هو الخُلُوُّ، إذا خلا الشيء مِمَّا يتعلَّق به فإنَّه يُقال له عَطَلَة أو عاطِل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]، وبئرٍ **مُعطلةٍ**: بمعنى أنَّها خاليةٌ عن ورَّادها لا يرِد إليها أحدٌ، فالعطل هو بهذا المعنى، ولهذا يُقال: **رجلٌ عاطلٌ** إذا **كان لا عمل له**، و**امرأةٌ عاطلٌ** إذا **تركت الزينة فلم تتحلَّ بشيءٍ من الحلي والزينة**، فيُقال امرأةٌ عاطلٌ.

لكن إذا قيل: **امرأةٌ عاطلةٌ**؛ فهي **عاطلةٌ عن العمل** وليست عاطلةٌ عن الزينة؛ لأنَّ التحلِّي بهذه الأمور من شأن النساء، والأفعال التي تختص بها المرأة لا تحتاج إلى التاء كما يُقال حاملٌ وحائضٌ، لا نقول حاملة وحائضة، لكن الحاملة هي التي حملتْ شيئًا مثلًا، أو حملت مادةً في الكلية -رسبت- تقول: حاملةٌ ولا يُقال حاملٌ، وإنَّما **تُحذف تاء التأنيث فيما يختص بالمرأة من الأفعال** -كما هنا- فيُقال امرأةٌ عاطلٌ؛ يعني عن الزينة، وهذا يختلف عن امرأةٍ عاطلةٍ؛ بمعنى عن العمل ونحوه.

ومعنى هذا البيت: يقول بأنَّ الرأي الأصيل صانني عن الوقوع في الخطأ في حياتي، كما أنَّ الفضل والخُلق الكريم الذي أكرمني به الله سبحانه وتعالى زانني في وقتٍ خلا فيه كثيرٌ من الناس عن هذه الأخلاق والآداب التي أكرمني الله عزَّ وجلَّ بها.

وبَدْؤه بهذا المعنى في أول القصيدة يحتمل أمرين: فإمَّا أن يكون من باب التحدُّث بنعمة الله عليه، وأنَّ الله سبحانه وتعالى أنعم عليه بالرأي الأصيل والخُلق النبيل، فهو يتحدَّث بنعمة الله عليه، والله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وإمَّا أن يكون من باب إظهار التجَلُّد ودفع شماتة الأعداء؛ لأنَّه مرَّت عليه ظروفٌ صعبةٌ في حياته فهو لا يُريد أن يُظهر ضعفه وانكساره أمام أعدائه، فهو يُظهر تجلُّده أمام هذه المحن، كما قال أبو ذؤيب الهُذَلي:

وَتَجَلُّـــــدي لِلشامِتـــــينَ أُريهِـــــمُ أَنّـــي لِــريَبِ الــدَهرِ لا أَتَضَــعضَعُ

- **فائدة:**

والنبي ﷺ كان يتعوَّذ من أربعٍ، وذكر منها: "وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ" فكان يتعوَّذ بالله سبحانه وتعالى من: "جَهْدِ البَلَاءِ، ودَرَكِ الشَّقَاءِ، وسُوءِ القَضَاءِ وشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ" [البخاري: ٦٣٤٧].

فهو افتتح هذه القصيدة بهذا البيت؛ ليقول بأنَّ هذه المحن التي مرَّت عليَّ لم تُكدِّر أخلاقي وطبيعتي، فأنا مازلتُ ثابتًا ومُلازمًا لهذه الأخلاق وهذه الآداب والقِيَم، وإن جرت عليَّ الأزمات والمِحَن.

وفي هذا البيت مدحٌ للرأي الأصيل، هذا الرأي الأصيل الذي هو مطلب الإنسان العاقل، ومن أجله شرع الله تعالى الشورى، فقال سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، **فالشورى إنَّما يُقصد بها الوصول إلى الرأي الأصيل** الذي تَمَدَّح به الشاعر في هذا البيت، وكما قال العلماء: لو لم يكُن في الشورى إلَّا هذه الآية ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ لكفى بها؛ لأنَّ الله تعالى أمر بها أكمل الخلق عقلًا وعلمًا وإيمانًا ﷺ؛ أمره بهذه الشورى، فغيرُهُ ممن لا يصل إلى مرتبته من باب أَولى أن يأخذ بهذه الشورى، فالشورى هذه العملية التي شرعها الشرع إنَّما يُقصد بها في النهاية الوصول إلى الزبدة، إلى العسل المُصفَّى، إلى هذا الرأي الأصيل الذي تَمَدَّح به الشاعر.

والإنسان أحوج إلى الرأي من القوة البدنية، رُبَّ إنسانٍ ضعيفٍ لكن صاحب رأيٍ ينتصر على الإنسان القوي الطائش الذي لا رأي له، كما قال المُتنبي في أبياته المشهورة:

الـــــرَأيُ قَبـــــلَ شَـــــجاعَةِ الشُـــــجعانِ		هُـــــوَ أَوَّلٌ وَهِـــــيَ المَحَـــــلُّ الثـــــاني
فَـــإِذا هُمـــا اجـــتَمَعا لِنَـفـــسٍ مَـــرَّةً		بَلَـــغَت مِـــنَ الـــعَلياءِ كُـــلَّ مَكـــانِ

وفي بعض روايات البيت: "لنفسٍ حرةٍ"، فهو تَمَدَّح بهذا الرأي الأصيل الذي هو مطلب كلّ إنسانٍ عاقلٍ، وهو مقصود الشورى التي شرعها الله سبحانه وتعالى للمُسلمين.

البيت الثاني: مجدي أخيراً ومجدِي أوّلاً شَرَعٌ ... والشمسُ رأْدَ الضُحَى كالشمسِ في الطَفَلِ

**مجـــــدي أخـــــيراً ومـــــجدِي أوّلاً شَـــــرَعٌ		والشـــــمسُ رأْدَ الضُـــــحَى كالشـــــمسِ في الطَفَـــلِ**

الشرح:

المجد: هو **الشرف والرِّفعة**، الشرف والرِّفعة يُعبَّر عنه في لغة العرب بالمجد، ومنه اسم الله تعالى المجيد، ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥] **على قراءة الرفع يكون اسمًا من أسماء الله تعالى وصفةً لـ(ذو)، وفي بعض القراءات** ﴿المجيدِ﴾ **-بالكسر- ويكون صفةً للعرش، وكلاهما قراءتان صحيحتان**؛ فعلى الرفع هو من أسماء الله تعالى، فمن صفاته المجد بمعنى الشرف والرِّفعة، فالله تعالى هو المجيد أي الرفيع في ذاته وفي صفاته سبحانه وتعالى.

"مجدي أخيرًا ومجدي أوّلاً شَرَعٌ"، **الشرَع**: هو **السَّواء**، تقول: أنتم في هذا الأمر شرَعٌ بمعنى مُتساوون، أو: هم في هذا الأمر شرَعٌ أي سواءٌ، مُتساوون، وقد جاء في بعض الروايات والأحاديث.

فالشرَع هو بمعنى السواء، وبعض أهل اللغة يُجيز السكون في هذه الكلمة؛ شرْعٌ، وهو محلُّ خِلافٍ بين أهل اللغة؛ هل يجوز السكون أو لا يجوز، لكن اللغة الفصحى المُتفق عليها هي بالفتح، شرَعٌ بمعنى سواءٌ.

"والشمسُ رَأْدَ الضّحى" **رأْدَ الضحى**: يعني **أول الضحى**، أول النهار عندما تبدأ الشمس بالظهور والارتفاع، كما قال الشاعر: **"رَأْدَ الضحى وجبينُ الشمس قد ظهرَ"**، فرَأْدَ الضحى: أوله، ويُعبَّر عنه بالإشراق أيضًا -وقت الإشراق- ومنه ما سمَّاه بعض الفقهاء بصلاة الإشراق، يعني الصلاة التي تقع عند هذا الوقت، فأول ارتفاع الشمس يُقال له رَأْدَ الضحى ووجه النهار، ويُقال له الغزالة أيضًا، في لغة العرب يُطلقون الغزالة على أول النهار حين طلوع الشمس.

"**ورأْدَ الضحى كالشمس في الطَفلِ**"، **الطَفَل** هو: **العشي والأصيل**، وغروب الشمس أو ميل الشمس إلى الغروب، هذه الفترة الأخيرة من المساء يُقال لها الطَفَل، وهذا هو الإطلاق الأشهر، وإن كان أهل اللغة يُطلقونه على الليل، على الظلمة نفسها، "**وقد عرانيَ من لون الدجى طَفَلُ**" كما قال الشاعر.

و**الدُّجى** هو **الظلام**، فالطَفَل أحياناً يُطلق على الظلمة، ولكن المعنى المشهور في لغة العرب هو إطلاقه على آخر النهار، على وقت الأصيل، أو على وقت العشي، أو عند مَيل الشمس إلى الغروب.

- **معنى البيت:**

ومعنى هذا البيت: هو يقول بأنَّ المجد والشرف الذي أكرمني الله سبحانه وتعالى به وأنعم عليَّ، يقول: أنا الحمد الله لم يتغير هذا عليَّ، وأنا ثابتٌ على خُلقي وديني وشيمتي في أول عمري وآخر عمري، لم تُكدرني دِلاء المحن، ولم تُغيرني حوادث الزمن، بل أنا في كل هذه الظروف والأحوال ثابتٌ على أخلاقي وعلى شِيَمي التي شرفني الله سبحانه وتعالى بها.

وشبَّه هذا بالشمس، يقول: مِثل الشمس؛ هي في رَأْدَ الضحى مِثلها في الطَفَل، يعني كما أنَّ ضوء الشمس في أول النهار كآخره لم يتغير فكذلك أنا لم أتغير، رغم الحوادث ورغم المِحن لم يتغير أول أمري عن آخره.

- **فائدة:**

ولاشكَّ أنَّ **الإنسان يُمدح بالثبات على الحقِّ، والثبات على الأخلاق والفضائل حتى في زمن الشدائد**، وهذا هو صاحب الخُلق؛ لأنَّ الخُلق كما يقول العلماء هي ملكةٌ راسخةٌ، فإذا تغيَّر الخُلُق فإنَّ هذا يدلُّ على عدم رسوخه، **وصاحب الخُلُق هو صاحب الشيمة الراسخة التي لا تتغير**، أمَّا الذي تتغير أخلاقه من وقتٍ إلى وقتٍ، تتغير في حالة الشدة عنها في حال الرخاء، أو تتغير هذه القِيَم والأخلاق إذا تغيرت رياح المصالح والسياسة؛ فهذا ليس صاحب خُلُقٍ قويٍّ، **صاحب الخُلُق القويّ هو الذي يُداوم على هذه الأخلاق**، ولهذا قال ﷺ: "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي" [صحيح الترمذي: ٣٨٩٥]، **فجعل مِعيار خَيرية الإنسان إنَّما هو خَيريته لأهله**، لماذا؟

لأن الإنسان خارج البيت قد يتصنَّع بعض الأخلاق؛ لأن مصالحه مُرتبطةٌ بالمدير فلان، أو العميد فلان، أو المدرس فلان، أو الشركة الفلانية، فيضطر أن يتصنَّع بعض الأخلاق، لكن إذا عاد إلى البيت عاد إلى طبيعته، عاد إلى خُلُقه الأصيل، فإذا وجدتَه في بيته شرسًا وصاحب خُلُقٍ سيءٍ فتعرِف أنَّ أخلاقه التي في الخارج هذه أخلاقٌ صناعيةٌ مُصنَّعةٌ، لكن إذا وجدتَ أن هذه الأخلاق موجودةٌ حتى مع أهله وأولاده؛ فتعرف أنَّها أخلاقٌ

أصيلةٌ؛ لأن زوجته وأولاده هم تحت سلطانه، وهو الحاكم عليهم، فإذا ثبتَ على هذا عرفتَ أنَّ أخلاق هذا الإنسان أخلاقٌ أصيلةٌ، كما قال الشاعر:

دعَــاوَى الــناسِ في الــدّنيا فــنــونُ ... وعلــمُ النـــاسِ أكــــثرُهُ ظنــــونُ

وكــم مــن قـــائلٍ أنـــا مــن فُــلانٍ ... وعنـــد فُـــلانَة الخــــبرُ اليقــــينُ

عند فلانةٍ: عند أمّ عياله! اسألْ امرأته عن أخلاقه لتعرف حقيقة الرجل. ولهذا من أقوى ما يُستدلُّ به على أخلاق رسول الله ﷺ شهادة نسائه، كما قالت عائشة -رضي الله عنها-: "كَانَ خُلُقُهُ القُرْآن" [أخرجه أحمد: ٢٥٨١٣]، فهذا يدلُّ على أصالة الخُلُق.

فإذن، الرجل عندما يَثبُت على أخلاقه ومبادئه وفضائله في كل الأماكن والأزمنة، فأنتَ تستدلُّ بهذا على أصالة خُلُقه، وأن هذا مِمَّا يُمدح به الإنسان.

أما المُتقلِّب في هذه الأخلاق، هو رحيمٌ لطيفٌ لكنه فجأة ينقلب إلى حيوانٍ مُفترسٍ، فتعرف أنَّه ليس صاحب خُلُقٍ أصيلٍ، والله سبحانه وتعالى ذمَّ المُنافقين بهذا التقلُّب لمّا قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ﴾ [الحج: ١١].

على حرفٍ أي على طرفٍ؛ لأنَّ الحرف في لغة العرب هو طرف الشيء، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]، وفي الآية الثانية التي بمعناها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، يعني تغيَّرَ وانقلبَ وخرج على أخلاقه، وهكذا كان بعض الأعراب -ولهذا نزلت هذه الآية- يأتي إلى المدينة يُهاجر إليها ويُسلِم، فإذا جاءته الصحة، والعافية، والرزق، والمال، والغنى، والولد، قال: هذا دينٌ صالحٌ. وإذا جاءته الحُمَّى -والمدينة معروفةٌ بحُمَّاها في أول الأمر- والفقر، والجهاد، وقلة ذات اليد، قال: هذا دينُ سَوءٍ، ثمَّ ارتدَّ عن دينه ورجع إلى باديته! فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ...﴾ [الحج: ١١].

فالشاعر هنا تَمَدَّح بهذه الخصلة الممدوحة، وهي خصلة الثبات على الخُلُق الفاضل، وعلى الصواب، والحقّ والدين، مهما تغيرت الظروف والأحوال.

البيت الثالث: فيمَ الإقامُة بالزوراءِ لا سَكَني ... بها ولا ناقتي فيها ولا جَملي

فيـــــمَ الإقـــــامُة بـــــالزَّوراءِ لا سَـــــكَني   بـــــها ولا نـــــاقتي فـــــيها ولا جَملـــــي

الشرح:

"**فيمَ الإقامة بالزوراء**"، فيمَ: هذا استفهامٌ يُقصد به التعجُّب من حاله،

و**الإقامة**: ضد السفر، وهي البقاء في المكان وعدم الانتقال عنه، وعكسه السفر والترحال.

"**الزَّوراءِ**": هذا **اللفظ يُطلق على أكثر من مَوطنٍ**، فعندنا أهل المدينة يُطلَق على مكانٍ مخصوصٍ في غربيّ المسجد النبويّ، المَوضع الذي كانت فيه دارٌ يُؤذَّن عليها الأذان الأول يوم الجمعة في عهد عثمان -رضي الله تعالى عنه-، فجعل مُؤذنًا على الزوراء -وهي دارٌ وحولها سوقٌ- فكان يُؤذن المُؤذن الأذان الأول للجمعة في هذا المكان، وهو غربيّ المسجد النبويّ عند مسجدٍ معروفٍ الآن يُقال له مسجد الزهراء أو مسجد فاطمة الزهراء، وكان شيخنا الشيخ عطية -رحمه الله- يُصوِّب أن هذا الاسم فيه تحريفٌ، حرَّفته العامَّة أو صحَّفته، هو مسجد الزَّوراء لكنَّ العامَّة صحَّفته فقالت الزهراء، وبعضهم يزيد فاطمة ويقول: نسبةً إلى امرأةٍ بَنَتْ هذا المسجد، ويقول: لا، لو صحَّ هذا فهي من المُمكِن أنها جددت المسجد ولم تبنِه أساسًا، لكن هذه المواطن التي فيها هذه المساجد -مسجد الزهراء ومسجد عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب- كان يخرج إليها هؤلاء الخلفاء في أيام العيد والاستسقاء، كانت هي المُصلَّى، مُصلَّى العيد ومُصلَّى الاستسقاء، كانوا يخرجون إلى هذه المَواطن، ثم بعد ذلك بُنيت عليها هذه المساجد.

فهذه الزوراء المشهورة عندنا -أهلَ المدينة-. لكن **الزوراء التي قصدها هنا الشاعر هي إمَّا اسمٌ من أسماء بغداد**، يعني هي بغداد نفسها ولكن هذا اسمٌ آخر؛ لأنَّ **بغداد لها أسماءٌ كثيرةٌ**، سمَّاها أبو جعفر المنصور مدينة السلام -وقد غاب عنها السلام اليَوم- وكانت تُسمَّى بغداد وبغدان بالنون، وبعض السلف يقول بغداذ بالذال المعجمة الأخيرة، وإن كان كرهه بعض السلف؛ لأنَّ معناها عطية الصنم أو عطية الشيطان، ومنها: الزوراء، وقيل بأنَّ الزوراء هي منطقةٌ في بغداد، ليست بغداد كلُّها ولكن منطقةٌ في بغداد يُقال لها الزوراء، وقيل لها الزوراء إمَّا لازْوِرَارِ قبلتها، يعني أنَّ القبلة فيها مائلةٌ، وإمَّا لازْوِرَارِ أبوابها الداخلية عن الخارجية؛ لأنَّ بغداد كان عليها سورٌ، فالأبواب الداخلية كانت مائلةً عن الأبواب الخارجية فلهذا قيل لها الزوراء، وهذا المقصود هنا، يعني الشاعر لم

يقصد الزوراء عندنا -أهلَ المدينة- إنَّما قصد الزوراء التي هي بغداد أو هذه المحلّة في بغداد، فيقول: "فيمَ الإقامة بالزوراء لا سَكَني بها" أي ليس عندي فيها بَيتٌ.

"ولا ناقتي فيها ولا جملي"، **الناقة** هي **أنثى الإبل**، والجمل ذَكر الإبل، (ولهذا يقولون في المثل: استنوق الجمل، أي تحوَّل الجمل إلى ناقةٍ، يضربونه مثلًا على مَن تغيَّر وخرج عن طبعه).

وهذا مَثَلٌ أورده الشاعر في هذا البَيت، مَثَلٌ عربيٌّ استعملوه قديمًا وقالوا: لا ناقة لي في هذا ولا جمل، أو فلانٌ ليس له ناقةٌ ولا جملٌ في هذا الموضوع، يُضرَب مَثلًا على البراءة من الشيء ونفي وجود المصلحة فيها وأنَّها ليست من شأنه، فيُعبِّرون عنها بهذا المثَل، وأصل هذا المثَل قاله الحارث البكري -من بكر بن وائل- لمَّا اعتزلَ حربَ البَسُوس المشهورة بين بني بكرٍ وبني تغلِب فلاموه على هذا، فقال: **"هذه حربٌ لا ناقةَ لي فيها ولا جمل"**، فكان أول مَن أطلق هذا المثل واشتهر عنه بعد ذلك.

فهذا الشاعر في هذا البَيت يتعجَّب من نفسه كيف يُقيم في بغداد ويمكث فيها وهذه حالته؟! والحالة أنَّه ليس له فيها سكنٌ وليس له فيها أهلٌ، وليست له فيها أيضًا مصلحةٌ، يعني ما وجد فيها مصلحةً ولا منفعةً، وضاقت عليه؛ والسبب هو فقره وغربته، كان غريبًا وفقيرًا. وقديمًا هجر القاضي عبد الوهاب المالكيّ بغداد بعد أن عاش فيها زمنًا وخرج منها وهو يقول:

بَغْـــدَادُ دَارٌ لِأَهْـــلِ الْـــمَالِ طَـــيِّبَةٌ ... وَلِلْـــمَفَالِيسِ دَارُ الضَّنْـــكِ وَالـــضِّيقِ

ظَـــلَلْتُ حَـــيْرَانَ أَمْـــشِي فِي أَزِقَّتِهَـــا ... كَـــأَنَّنِي مُـــصْحَفٌ فِي بَـــيْتِ زِنْـــدِيقِ

ضاقت عليه بسبب هذا فهجرها ومشى إلى مصر! وهكذا شاعرنا الطغرائيّ قال هذه القصيدة في أول أمره، وقال: أتعجَّب من حالي كيف أقيمُ بالزوراء وأنا ليس لي فيها سكنٌ، وليست لي فيها ناقةٌ ولا جملٌ، يعني ليس فيها مصلحةٌ، فهو كأنَّه يُعاتب نفسه على الإقامة في هذه البقعة وعدم السفر رغم مُعاكسة الأحوال له.

- **فائدة:**

والأصل كما نعرف أنَّ الإنسان إذا ضاق عليه المحل، ولم يستطع أن يُقيم دينه وشرعه أو يسعى وراء دنياه المباحة أيضًا؛ فإنَّ المشروع له أن يضرب في أكباد الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥] لم يقُل: فامشوا في أوديتها، قال: ﴿فِى مَنَاكِبِهَا﴾ يعني حتى هذه الأماكن الصعبة في قِمم الجبال إذا كان لكَ رزقٌ فاذهب واضرب أكباد الإبل لتصل إلى هذه البقاع، **فالإنسان إذا ضاقت عليه السبُل في مكانٍ**

وضاقت عليه الحياة فيها، **فيُشرع له أن ينتقل إلى غيرها** حتى يسعى في فِعل ما أمر الله سبحانه وتعالى، واكتساب ما أذن الله سبحانه وتعالى له.

وكما قال الشاعر قديمًا:

تغــرَّبْ عــنِ الأوطــانِ في طَلَــبِ العُلــى ... وَسَــافِرْ فَفِــي الأَسْــفَارِ خَمْــسُ فَوَائِــدِ

تفريــــجُ هَــــمٍّ واكتســــابُ معيــــشَةٍ ... وعِلْــــمٌ وَآدَابٌ وَصُــــحْبَةُ مَــــاجِدِ

فلهذا **حثَّ العلماء على السفر إذا ضاقت على الإنسان السبُل ولم تكُن هناك مصلحةٌ شرعيةٌ ولا دنيويةٌ في بقاء الإنسان في هذه البقعة**، ولا ينبغي للإنسان أن يتعذَّر في هذه الحالة بحُبِّ الأوطان، "حبُّكَ الأوطَانَ عَجزٌ ظَاهِرُ" -كما قال ابن الورديّ رحمه الله-.

البيت الرابع: نَاءٍ عن الأهلِ صِفْرُ الكفِّ منفردٌ ... كالسيفِ عُرّيَ متناهُ من الخَلَلِ

نَاءٍ عــن الأهــلِ صِــفْرُ الكــفِّ منفــردٌ ... كالسَّــيفِ عُــرِّيَ مــتنــاهُ عــن الخِلــلِ

الشرح:

"ناءٍ عن الأهل" ناءٍ: من النأي بمعنى البُعد والإعراض، نأى عن كذا أي: أعرضَ عنه، ونأى في سفره أي: بَعُد أيضًا، فيأتي (نَأَى) بمعنى البُعد والإعراض، ويأتي أيضًا بمعنى النهوض بثِقلٍ، كما في الآية الكريمة: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [فصلت: ٥١]، وفي بعض القراءات ﴿وناء بجانبه﴾، ناء بمعنى نهض بثقلٍ وتكلُّفٍ، كما في الآية الأخرى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] يعني تثقل بهم بحيث لا ينهضون إلَّا مُتثاقلين ومُتكلِّفين من ثقلها وحجم ثروته في قصة قارون.

ويأتي َ(نأَى) بمعنى أعرض، ويأتي بمعنى بَعُدَ أيضًا، كما في الآية الأخرى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦] يعني أنَّهم كانوا ينهون الناس عن رسول الله ﷺ والاستماع إليه، وينْأون عنه هم بأنفسهم، يعني يبتعدون عنه ويُعرضون عنه ﷺ؛ فهم ارتكبوا هاتين الخصلتين السيئتين: لا هم انتفعوا برسول الله ﷺ، ولا تركوا الناس أيضًا ينتفعون برسول الله ﷺ!

وهذا كما يقول علماء البلاغة من باب الجناس، ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾، يعني الفرق حرفٌ واحدٌ، الهاء والهمزة هنا، مثل ما قال ﷺ: "الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يومَ القِيامَةِ" [مسلم: ٢٥٧٨]، وَ "الخَيلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى

يَومِ القِيَامَة" [أخرجه أحمد: ١٤٨٣٣]، **لا تُنال المكارم إلَّا بالمكاره** -كما يقولون-، فهذا من باب الجناس الذي جاء في كتاب الله تعالى، ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ أي يُعرضون أو يبتعدون عنه ﷺ، والأقرب هنا أنَّه يُريد البُعد وليس الإعراض، ناءٍ عن الأهل: أي بعيدٌ عن الأهل، فأنا في بلدٍ وهم في بلدٍ آخرٍ.

"ناءٍ عنِ الأهلِ صِفْرُ الكَفِّ مُنفردٌ" صفر الكف: أي **خالي الكف**، يُقال صَفِرَ الإناء إذا خلا ما فيه من الشراب.

"كالسيف عُرّيَ" عُرِّي يعني **جُرِّد**، من التعرية وهي التجريد، ومنه العُريان وهو الذي تجرَّد عن ثيابه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: ١١٨]، فالعُرْي هو التجرُّد من الشيء.

"كالسيف عُرِّيَ مَتْنَاهُ عَنِ الخِلَلِ" متناه: أي **ظهراه وطرفاه**، و**الخِلَل**: **جمع خِلَّة وهي البطانة والزينة التي تُعلَّق على أجفان السيوف**، كما نعرف أنَّ عادة الناس يُعلِّقون في أجفان السيوف بعض البطانة أو بعض الزخارف التي يُجمِّلون بها السيف.

فهو أيضًا في هذا البيت يصِف حاله من الغُربة والوحشة، وأنَّه بعيدٌ عن أهله وغريبٌ عن وطنه، وأنَّه أيضًا فقيرٌ صفر الكف يُعاني من الفقر وقلة ذات اليد، ثمَّ شبَّه نفسه بالسيف الذي عُري متناه عن الخِلل، يعني كالسيف الذي جُرِّد من زينته، وجُرِّد من جَفنه وغِمده الذي يُحسِّنه في أعين الناس ويحفظه من العوارض، فهو يصِف هذه المُعاناة التي عاشها في هذه الرحلة.

وهذا يُذكِّرُني بابن زُرَيق البغدادي الشاعر صاحب القصيدة اليتيمة، وقيل لها القصيدة اليتيمة لأنَّ التاريخ ما حَفِظ إلَّا هذه القصيدة لهذا الشاعر، ما قاله من الشعر عدا ذلك كله قد اندثر، إلَّا هذه القصيدة، وهذه القصيدة أيضًا كأنَّها تتكلَّم عن حال الطغرائيّ في هذا البَيت:

لا تَعذُلِيه فَإِنَّ العَذلَ يُولِعُهُ ... قَد قُلتِ حَقًّا وَلَكِن لَيسَ يَسمَعُهُ

إلى أن قال:

ما آبَ مِن سَفَرٍ إلّا وَأَزعَجَهُ ... رَأيٌ إلى سَفَرٍ بِالعَزمِ يَزمَعُهُ

كَأَنَّما هُوَ فِي حِلٍّ وَمُرتَحَلٍ ... مُوَكَّلٍ بِفَضاءِ اللهِ يَذرَعُهُ

يعني كأنَّ الله تعالى وكلّه بأن يذرع الكرة الأرضية -أي يقيسها- من كَثرة أسفاره وتنقُّلاته ورحلاته! فابن زُرَيق لم يُعجبه الجو في بغداد -ولا أدري ما حكاية البغداديين هؤلاء؟! تضيق بهم بغداد في كلِّ زمانٍ- فضاقت به بغداد وعزم على أن يُسافر إلى الأندلس يطلب الرزق ويُوسِّع على نفسه، لكن ذهب إلى الأندلس وصُدِم هناك ببيئةٍ أشدَّ من بيئة بغداد، يعني فوق الغُربة الفقر أيضًا عاناه هناك ولم يجد فرصةً لتحسين حياته المعيشية، فنَدِم على هذه الرحلة، وحتى أنَّه قال فيها بيتًا عجيبًا:

أوتيــتُ مُلكًــا فَلَــم أحسِــن سِياسَــتَهُ ... وَكُــلُّ مَــن لا يَسُــوسُ المُلــكَ يُخلَعُــه

فتصوروا أنَّه اعتبر أنَّ الحياة التي كان يعيشها في بغداد كانت مُلكًا بعد أن رأى ما رأى في الأندلس!

وأنَّه لم يُحسن سياسة المُلك في أول أمره، ثمَّ قال بأنَّ كلَّ مَن لا يُحسن سياسة المُلك فإنَّ الله ينزعه منه إلى غيره، فندم على هذا ومات هناك في الأندلس، ووجدوا عنده هذه القصيدة مكتوبةً عند يده، فَرَقَّ عليه السلطان لمَّا سمع بأمره، فأرسل مبالغ طائلةً إلى أهله في بغداد ليُوَسِّع عليهم... فهذا يُذكِّرني بموقف ابن زُريق البغداديّ؛ فالقصة مُشابهةٌ.

البيت الخامس: فلا صديقَ إليه مشتكَى حزَنِي ... ولا أنيسَ إليه منتَهى جذلي

فـــلا صـــديقَ إلـــيه مُـــشتكَى حـــزَنِي ... ولا أنـــيسَ إلـيـــه مُنتــَهى جـــذلي

الشرح:

الصديق: هو الصاحب، ولكن الصاحب الذي صدق في مَودته، ولهذا مع أنَّ الصيغة فاعلٌ لكن جاءت على وزن فعيل؛ للإشارة إلى شيءٍ من المُبالغة في مسألة الصدق، وأنَّه صادقٌ في مَودته، **والصديق لا يُسمَّى صَديقًا إلَّا إذا كان صادقًا في هذه المَودة؛ وإلَّا هو مُجرَّد صاحبٍ**، فالصَّديق أبلغ من الصَّادق، والصِّدِّيق -على وزن فِعِّيل- أبلغُ منهما؛ ولهذا كان ثناءُ الله على إبراهيم -عليه السلام- بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١] أبلغَ من ثنائه على إسماعيلَ ولده لمَّا قال فيه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤]؛ فالوصف الأول أبلغ من هذا.

"**فلا صديقَ إليه مشتكَى حزَنِي**" **مُشتكى**: اسمُ مصدرٍ بمعنى **الاشتكاء**،

"**حَزَنِي**" **الحَزَن والحُزْن** بمعنًى واحدٍ وإن اختلفا في الصنعة النحوية -هذا مصدرٌ وهذا اسم مصدرٍ- لكن من حيث اللغة معناهما واحدٌ وهو **الاشتكاء**، والحَزَن هو الهمُّ والغمُّ ويُقابله الفرح والسرور، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وفي الآية الأخرى على لسان أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، **فالحَزَن والحُزْن من حيث اللغة بمعنًى واحدٍ**.

"**ولا أنيسَ إليه منتَهى جذلي**" **الأنيس**: هو **الجليس المُؤانس الذي يُؤنسك بكلامه وبحديثه وطلعته**، ويُقال له أنيسٌ، فليس كلُّ جليسٍ أنيسًا، فقد يُجالسك الشخص ولو شِئت -كما قال الإمام أحمد- أن أعضه لعضضتُه! ولكن بعض الجلساء يُوصَف بأنَّه أنيسٌ؛ لأنَّه يُؤنسكَ بحديثه وهيئته ونحو ذلك. و**الجَذَل**: هو الفرح والسرور.

ولاحظوا كيف غاير الشاعر هنا بين الأحزان وبين الأفراح، فجعل مُنتهى الأحزان إلى الصديق، بينما جعل مُنتهى الأفراح إلى الأنيس، عبَّر بالأنيس في الأفراح وبالصديق في الأحزان، لماذا؟ لأنَّ الإنسان يأنس بأي جليسٍ، حتى لو لم يكُن صَديقًا صادقًا صدوقًا كما يُقال، يأنس به وربما يأنس بكلمةٍ قالها، ولكنَّ الإنسان لا يشكو أحزانه وهمومه ومُشكلاتِه إلَّا لصديقٍ، يعني لصاحب مَودةٍ صادقةٍ، هذا الذي يُفضي الإنسان إليه بأحزانه وبهمومه ومُشكلاته، وهذا أمرٌ فِطريٌّ؛ يعني الإنسان يحتاج دائمًا -خاصَّةً في زمن الغُربة والكُربة التي وصفها الشاعر- إلى هذا الصديق الذي يسمع منكَ أحزانكَ، ويسمع منكَ خواطركَ وهمومكَ ويُعينكَ على هذا، كما قال الشاعر:

وَلا بُـــدَّ مِـــن شَـــكوى إلى ذي مُـــروءَةٍ　　　يُـواســـيكَ أَو يُســـليكَ أَو يَتَـوَجَّـــعُ

- **فائدة:**

ولكن أحسنَ مَن تشتكي إليه وترفع إليه أحزانكَ هو ربُّ العالمين سبحانه وتعالى، كما قال يعقوب -عليه السلام-: ﴿قَالَ إِنَّمَآ﴾ وهذه صيغة حصر ﴿أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، **فأولى مَن صرفتَ إليه شكواكَ لهمومك وأحزانك هو ربُّ العالمين سبحانه وتعالى**، لأنَّه هو الذي بيده خزائن كلِّ شيءٍ، هو الذي له أول الأمر وآخره، وظاهره وباطنه، وإذا أراد شيئًا إنَّما يقول له كُن فيكون، وإذا أرادكَ بخَيرٍ فالإنس والجنُّ لا يُمكِن أن يصرفوه عنكَ، وإذا أراد لكَ شرًّا فالجنُّ والإنس أيضًا لن يُغنوا عنكَ من أمركَ شيئًا، فأولى مَن حططت رحالكَ على بابه وعتباته هو ربُّ العالمين سبحانه وتعالى، تشكو إليه همومك فيُفرِّجها سبحانه وتعالى بكرمه متى كُنتَ صادقًا في هذه الإنابة وفي هذا اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى. نكتفي عند هذا البَيت، ونُكمل -إن شاء الله- في اللقاء القادم.

المحاضرة الثانية:

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على رسوله الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد:

البيت السادس: طالَ اغترابِيَ حتى حنَّ راحلتي ... ورحُلها وقرى العَسَّالةِ الذُّبلِ

يقول الأديب الشاعر الطغرائي أبو إسماعيل -رحمه الله تعالى-:

طـــال اغـــترابِي حـــتى حَـــنَّ راحلـــتي ... وَرَحْـــلُها وَقَـــرى الـعَـــسَّالة الـــذُّبُلِ

الشرح:

ما زال الشاعر يتحدث عن غربته وسفره بهذه الأبيات، فيقول في هذا البيت: "طَالَ اغْتِرَابِي"

والاغتراب: **هو التلبُّس بالغربة أو الدخول في الغربة، والغربة: هي مفارقة الأوطان. فهذا هو الاغتراب في معناه المشهور في لغة العرب.**

فالاغتراب هو الوقوع في الغربة أو التلبُّس بالغربة التي هي ترك الإنسان لما نشأ عليه من الأوطان، فهذا يقال له: اغتراب وغربةٌ.

يقول: "حتَّى حَنَّ رَاحِلَتِي"، **الحنين** هو **الشوق**، **حنَّ إلى كذا** أي: **اشتاق إليه**، والأصل أن يقول الشاعر "حنَّت" بتاء التأنيث؛ لأن الفاعل هنا مؤنث، ولكن لـمّا كان المؤنث هنا مجازيًا أجاز كثير من العلماء إسقاط علامة التأنيث في هذه الصورة، كما قال عامر الطائي:

فـــلا وزنَـــةٌ ودقـــت وَدْقَـهـــا ... ولا أرضَ أبـــقَـــلَ إبـــقَـالَـهـــا

فالأصل أن يقول: "**ولا أرض أبقلت إبقالها**"، لكن أسقط تاء التأنيث إما للوزن أو لضرورة الشعر، وهذا عند محققين من علماء اللغة، مثل: سيبويه وابن مالك خاصٌ بالشعر؛ فيخصون حذف علامة التأنيث من المؤنث المجازي بالشعر دون النثر، كما قال ابن مالك:

والحـذف قـد يـأتي بـلا فصلٍ ومـع ... ضـميرِ ذي الـمـجازِ في شـعرٍ وقـع

فالمحققون من علماء النحو يخصون هذا بالشعر دون النثر، فالأصل أن يقول "حنَّت"، ولكنه أسقط علامة التأنيث، **وهذا يجعله علماء العربية من باب إشباع اللفظ أو الحكم على اللفظ باعتبار المعنى** بمعنى أن يخضع اللفظ لحكم المعنى المقصود، فكأن المقصود بالراحلة هنا الجمل وليس الناقة، فباعتبار المقصود حصل التذكير في هذا اللفظ.

"حتَّى حَنَّ رَاحِلَتِي"، و**الراحلة** هي **ما يركبه الإنسان من الإبل سواءٌ كان ذكرًا أم أنثى**، سواء كان جملًا أم ناقةً.

ويقال لها راحلة؛ لأنه يصلح أن يوضع عليها الرَحْلُ؛ لقوتها وجَلَدِها، وهذا ما أشار إليه الحديث الصحيح عندما قال ﷺ: "إنَّما النَّاسُ كالإِبِلِ المِائَةِ، لا تَكادُ تَجِدُ فيها راحِلَةً". [صحيح البخاري: ٦٤٩٨]، فهو يشير إلى أن الكمال عزيز في الناس كما أن الراحلة عزيزة في الإبل، فالراحلة إذَن في الأصل ما يُركب من الإبل سواء كان ذكرًا أم أنثى.

ثم قال: "ورَحْلها"، **الرَّحلِ** بالنسبة للإبل كالسَّرج للفرس، يعني هو **المركب الذي يوضع على ظهر الإبل حال الركوب**، ومنه قوله تعالى: ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٠].

والمحققون من علماء اللغة ينصون أيضًا على أن **الرَّحل إنما يُطلق على ما يُختصُّ بمراكب الرجال دون النساء**؛ فيُطلق الرَّحل على المركب الخاص بالرجال الذي يوضع على ظهر الإبل، وأما رحل النساء يقال له هَودج، ويقال له مِحَفّة، ويقال له حِدِج، له كلمات مخصوصة في لغة العرب، وأما الرَّحل فأكثر علماء اللغة على أنه من الأسماء التي لا تُطلق إلا على مراكب الرجال دون النساء.

طال اغترابي حتى حَنَّ راحلتي ... وَرَحْلُها وَقَرَى العَسَّالة الذُّبُلِ

"وَقَرَى" بفتح القاف، و**القَرى** في الأصل **يُطلق على الظَّهر**، وإنما أُطلِق على الظَّهر لفظ القَرى؛ لاجتماع العظام فيه، واجتماعها في الظهر أبرز من اجتماعها في أي مكان آخر في الإنسان فلهذا قيل له: القَرَى.

وأصل مادة قَرى وقرأ في لغة العرب وجميع مشتقات هذه المادة تدور حول معنى الاجتماع، ومنه القرية؛ لاجتماع الناس فيها، ومنه **المِقراة** وهي: **الجفنة التي يجتمع عليها الضيوف والأكَلة**، و**المِقراة** أيضًا **تُطلَق على الحوض** - حوض الماء الذي تجتمع إليه الإبل أو يجتمع عليه الناس-، ومنه القرآن أيضًا؛ لأنه يجمع كلمات الله سبحانه وتعالى أو لأنه يجمع الأحكام والعقائد والقَصص، والعرب عندما تمدح الناقة تمدحها بأنها لم تقرأ جنينًا:

ذراع عَـــيـــطـــــلٍ أدمـــــاءَ بِـكـــــر   هــجــانَ الــلـــــون لم تـقـــرأ جـــنينًا

يعني: لم تجمع جنينًا في بطنها. فأصل هذه المادة ومشتقاتها يدل على معنى الاجتماع، ومنه إطلاق القَرى على الظهر؛ لاجتماع العظام فيه.

"**قَرَى العَسَّالة**"، **العَسَّالة** المقصود بها هنا **الرماح**، مع أنه يُطلق العَسَّالة في لغة العرب على بائعي العسل، بائع العسل يقال له عسَّالة؛ لأنه يستخرج العسل من مواطنه ويبيعه، وكذلك يطلق العَسَّالة على النحل نفسها، ولكن المقصود هنا بالعَسَّالة يعني الرماح، و "**قَرَى العَسَّالة**" يعني **أعالي الرماح**.

"**الذُّبلِ**" جمع ذابل، و**الذابل** هو **النحيل**، والشيء النحيف يقال له ذابل، وهو يصف بهذا الرماح بأنها رماحٌ دقيقةٌ وخفيفة. هذا معنى المفردات التي وردت في هذا البيت.

وأما المعنى العام لهذا البيت فهو: وصفه لسفره واغترابه بالطول؛ أنه طال سفره واغترابه في سبيل تحقيق مصالحه وأهدافه التي سافر من أجلها، وبلغ من شدة هذا الاغتراب أن جَمَلَهُ ورَحلَهُ ورُمحه أيضًا قد حنَّ إلى الرجوع بعد طول سفر.

- **فائدة:**

وهذا من باب المبالغة في بيان شدة الغربة: أن التأثر بهذه الرحلة وبهذا السفر الطويل لم يقتصر على الحيوان، ولكن حتى الجماد، كالرحل والرماح أيضًا حنَّت للرجوع إلى الأوطان بعد طول سفر واغتراب، ولا شك أن السفر كما قال النبي ﷺ قطعة من العذاب، يعني فيه مشقة وتعب على الإنسان ولهذا قال ﷺ: "فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ، فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ" [صحيح البخاري: ١٨٠٤] لأن السفر فيه هذه المشقة حتى وإن تيسرت أمور السفر وأدوات المواصلات، لكن يظل هذا من طبع السفر –وإن تفاوتت المشقة بين الناس–، لكن لا يخلو سفر من مشقة حتى وإن كانت مشقةً نفسيةً.

البيت السابع: وضَجَّ من لَغَبٍ نضوي وعجَّ لما ... يلقى رِكابي ولجَّ الركبُ في عَذَلي

وضَــجَّ مــن لَغَــبٍ نِضــوي وعَــجَّ لِمــا ... ألـقَى رِكـابي وَلجَّ الرَّكبُ في عَذَلي

الشرح:

"**وضَجَّ**" ضج من الضجيج وهو الجلبة والصياح.

"**مِنْ لَغَبٍ**"، **اللغب** عند جمهور أهل اللغة هو **بمعنى التعب**، والنصب وزنًا ومعنىً، كما قال الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، وهذه الآية جاءت ردًا على اليهود الذين زعموا أن الله سبحانه وتعالى لما خلق السماوات في ستة أيام، استراح يوم السبت بعد ذلك من التعب! فأضافوا إلى الله تعالى هذا النقص فنفاه الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]؛ أي من نصبٍ ولا تعبٍ.

لكن يرى بعض علماء اللغة ومنهم الزمخشري –رحمه الله– أن اللُّغوب يختلف عن النَّصَب والتعب، وأن اللُّغوب هو الفتور الذي ينشأ من التعب والنصب، واستشهد على هذا بالمقارنة في قول أهل الجنة: ﴿لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [ق: ٣٨]، فقال بأن الله غاير بين النَّصَب واللُّغوب، وعطف هذا على هذا، والعطف يقتضي المغايرة كما يقولون فاللُّغوب عنده هو الفتور الذي يعقب التعب والنَّصَب الذي يصيب الإنسان، ولهذا جاء بعض المفسرين كابن كثير –رحمه الله– وحمل اللُّغوب هنا على تعب النفوس والأرواح، يقول النَّصَب هو ما يصيب الأجساد من التعب وأما ما يصيب النفوس والأرواح فهو اللغوب.

على كل حال، هذه الآية تفيد كمال ما عليه أهل الجنة من النعيم بحيث لا يمسُّهم تعب ولا لُغوب يعني لا نصبٌ في الأبدان ولا تعبٌ في الأرواح أيضًا، لا يعتريهم ملل ولا فتور من النعمة التي هم فيها والمعهود أن الإنسان وإن كان في نعمة لكنه يمل من هذه النعمة بعد فترة من الزمن، والله تعالى يصف أهل الجنة بأنهم لا يفترون ولا يملّون من النعيم الذي هم فيه.

فالخلاصة أن اللَّغب واللُّغوب هو بمعنى التعب والنصب عند جمهور أهل اللغة، وبعض أهل العلم يغاير بينه وبين النصب بناءً على الآية الكريمة.

"**وضَجَّ مِن لَغَبٍ نِضْوِي**"، **النِّضو** هو: **الهزيل**، والأكثر في لغة العرب أنه **يطلق على البعير خاصة**، وأنه قد يأتي قليلًا فتُوصَف الخيل بهذا الوصف، ولكن الأكثر في لغة العرب أنهم يصفون الهزيل من البعير بهذه الكلمة: بكلمة النِّضوي.

"**وضَجَّ من لَغَبٍ نِضوي وعَجَّ لِما ألقَى رِكابي**" "**عجَّ**" من العجيج، و**العجيج** هو **ارتفاع الصوت أو الصوت المرتفع**، وأصل هذه المادة أيضًا تدل على الارتفاع في الشيء، ومنه العجيج وهو الصوت العالي المرتفع، ومنه أيضًا العَجَاج وهو الغُبار المرتفع في السماء يقال له عجاجٌ في لغة العرب، فأصل هذه المادة إنما تدور حول الارتفاع في الشيء سواء كان في الصوت أم في غيره.

"**وعَجَّ لِما ألقَى رِكابي**"، وهذا يذكرنا بالحديث الذي رواه الترمذي أن النبي ﷺ سُئِلَ: أي الحجّ أفضلُ؟ قال: "العَجُّ والثَّجُّ" [سنن الترمذي: ٨٢٧/ حديث غريب]

فالعَجُّ أي: **رفع الصوت بالتلبية**، و**الثَّجُّ** هو: **نحر الأضاحي والهدايا**.

"**لِمَا أَلْقَى رِكَابِي ولَجَّ الرَّكْبُ فِي عَذْلِي**"، **الرِّكاب** كذلك **ما يُركب من الإبل خاصةً**، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦]، فالرِّكاب ما يُركب من الإبل خاصةً .

"**ولَجَّ الرَّكْبُ فِي عَذْلِي**" **الركب** أيضًا في أصل اللغة هو **الجماعة الذين يركبون الإبل خاصةً دون غيرها**.

ولهذا جاء في قوله تعالى: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٢]، والمقصود بالرَّكب هنا عِير أبي سفيان- إبل التجارة التي خرج الصحابة أصلًا للاستيلاء عليها،- فالرَّكب مثل الرِّكاب؛ هذه كلمات خاصة في لغة العرب بما يُركب من الإبل خاصة.

"**ولَجَّ الرَّكْبُ فِي عَذَلِي**" و**العذَل** هو: **العتاب واللوم**.

- **فائدة:**

والمقصود من هذا أن سفره قد طال جدًا حتى أدى إلى أن جمله قد ضجَّ من طول السفر، وكذلك رفع رفاقُه في السفر أصواتهم ولجُّوا في عذلِه وعتابه ولومه على طول السفر؛ لأن اللَّجَاج هو التمادي في الشيء، لجّ في الشيء يعني تمادى فيه وبالغ فيه، وردد فيه الكلام والفعل يعني كرره؛ لأن أصل هذه المادة أيضًا في لغة العرب تدل على تردد الشيء بعضه على بعض، ومنه لُجّة البحر؛ لأنه يتردد مرة بعد مرة ويتكرر، ومنه اللَّجلاج وهو: الرجل الذي يتردد في كلامه وهو عيب في النطق، فاللَّجاج هو التمادي في الشيء وتكراره.

فهو يشير إلى أن رفقاءهُ في السفر قد أكثروا عليه من اللوم وراجعوه في العتاب على طول السفر.

والمعنى المقصود من هذا هو الإشارة إلى عظيم مطلوبه وهمته وكثرة همومه، فهو يشير إلى أن الهم الذي أخرجه والمطلوب الذي دفعه إلى السفر هو مطلوب عظيم يحتاج إلى كل هذه المشقة وهذا التعب، ولا شك أن بُعد همة الإنسان وعِظَم مطلوبه يدل على عِظَم همته ويدل على كماله؛ لأن الإنسان الكامل لا يقنع بالأمور اليسيرة وإنما دائمًا يطلب معالي الأمور كما قال: "**لنا الصدرُ دون العالمينَ أو القبر**"، فصاحب الهمة العالية هكذا تجده كثير الهَمّ وبعيد الهمة، كما قال المتنبي:

فقلقلتُ بالهم الذي قلقلَ الحَشا   قلاقلَ عِيسٍ كلهن قلاقلُ

وقلقل أمعاءنا بهذا البيت! **فصاحب الهمة العالية لا يقنع بالأشياء اليسيرة والحاضرة وإنما يبذل جهده وتعبه، ولا يبالي أيضًا بما يدفع من التعب وما يدفع من الأرق والسهر في مقابل ما يسعى إليه.**

ولهذا العلماء إنما صاروا علماء وحصلوا المراتب التي أرادوها بعلو الهمة، وبالصبر على ضريبة هذه المعاني من السهر، بل كانوا يتلذذون بهذا التعب والسهر، ويرون قرة أعينهم في هذه المعاني؛

أبيتُ بِاللَيلِ غَريبَ الكَرى   وَقَيِّمُ الحِكمَةِ في أَنمُلي

وَمُذ عَرَفنا لَذَّةَ العِلمِ لا   يَأخُذُ مِنّي الدَرسُ وَالكُتُبُ

يَسوغُ ما يَسبُكهُ اللُبُّ   يَعجِبُنا المرُ وَلا العَذبُ

فوجدوا في هذا التعب وفي هذا السفر اللذة والراحة؛ لمعرفتهم بعظم المطلوب وهو هذا العلم الشريف الذي شرف الله أهله وأصحابه.

البيت الثامن: أُريدُ بسطةَ كَفٍ أستعينُ بها ... على قضاءِ حُقوقٍ للعُلَى قِبَلي

ثم قال –رحمه الله–:

أُريدُ بسطةَ كَفٍ أستعينُ بها   على قضاءِ حُقوقٍ للعُلَى قِبَلي

الشرح:

"**بَسْطةَ كَفٍ**"، هذه العبارة كناية عن الغنى وكثرة المال، كما تأتي كناية عن الإنفاق كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء:٢٩]، هذه إشارة إلى كثرة الإنفاق والمبالغة فيه، كما تأتي للمعنى الأول الذي ذكرتُ: وهو الغِنى وكثرة المال.

فإذَن، **البسطة** في أصل المعنى اللغوي: هو **السعة في الشيء** كما قال الله تعالى ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وكما أن قبضة الكف أيضًا كناية عن البخل وقلة الإنفاق كما قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، يقبضون أيديهم كناية عن البخل وقلة الإنفاق.

فيقول "**أريد بسطة كفٍ أستعين بها**" من الاستعانة، على أي شيء؟

قال: "**على قَضاءِ حُقُوقٍ**" أي على أداء حقوق، **فالأداء والقضاء في لغة العرب بمعنى واحد** وإن كان بينهما فرق عند الفقهاء والأصوليين، **فالأداء**: **فعل العبادة في وقتها المقدر لها شرعًا**، **والقضاء**: **فعل العبادة خارج وقتها المقدر لها شرعًا**، لكن **في لغة العرب الأداء بمعنى القضاء** كما هنا.

والحقوق: جمع حق، وهو **ما يتعلق بذمة الإنسان تجاه نفسه، أو تجاه الغير**، فيُقال له حق.

"**للعُلى**" يعني **للرفعة والشرف**.

"**قِبَلي**" بمعنى **عندي أو عليَّ**، يعني الحقوق التي عندي أو الحقوق التي في ذمتي.

والمعنى من هذا البيت، يقول: كل هذا السفر وهذا الترحال وهذا الجهد والتعب؛ لأني أريد بسطة كف، أريد أن أحصِّل المال الحلال. ولكن يقول لك: أنا لا أفعل هذا لمجرد جمع المال، أنا لا أطلب الدنيا لجمع الدنيا، ولكنني أطلب هذه البسطة في الكف؛ لأداء الحقوق.

- **فائدة:**

وطلب المال والسعي في الرزق بهذه النية هذا أمر ممدوح شرعًا، أن الإنسان يسعى في طلب الرزق ويتعب من أجل أن يؤدِّي الحقوق التي في ذمته، كقضاء الديون مثلًا، أو صلة الأرحام، أو صيانة نفسه عن الحاجة إلى الناس، هذه كلها أغراض ممدوحة شرعًا.

والقرآن كما تعرفون سمى المال: قيامًا للناس، وفي قراءة: (قِوامًا للناس)، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء:٥]، وفي قراءة ﴿قِوامًا﴾، بمعنى أن هذا المال أمر تقوم به أمور المعاش في هذه الدنيا، وما دام المال هكذا فلا حرج على العاقل أن يسعى لتحصيله، ولكن المهم أن تكون نيته من هذا التحصيل حسنة، لا يحصِّلها ليكنز هذا المال ويجمعه ويحبسه، ولكن يجمع هذا المال من أجل الإنفاق، كما قال الشاعر:

لا يألــف الــدرهم المضــروب صــرَّتنا لـكــن يمــرُّ عـليــها وهــو منطــلق

فالمال إذا جمعه الإنسان من أجل الإنفاق وقضاء الحقوق فهذا أمر ممدوح شرعًا.

وقد قال سعيد بن المسيّب –رحمه الله تعالى–: "**لا خير فيمن لا يجمع المال لقضاء دينه أو صلة رحمه أو صيانة وجهه**"، ولهذا كان سعيد من التجار يزاول التجارة مع التعليم، ولما نزل به الموت قال: "**اللهم إنك تعلم أني ما جمعت هذا المال إلا لأصون به ديني ووجهي**"؛ لأن العالِم –بالذات– إذا لم تكن له كفاية من المال واحتاج إلى الناس فقد ذلَّ علمه الذي يبذله للناس كما قال سفيان في بني العباس: "**لولا هذا المال لتمندل بي بنو العباس**"، يعني لجعلوني منديلًا يتمسَّحون بي.

والإمام أحمد –رحمه الله– لما سُئل عن صفات المُفتي؛ ذكر خمس صفات، ومنها: "**الكفاية وإلا مضَغَهُ الناس**"! يعني يكون عنده شيء من المال يصون به نفسه؛ حتى لا يحتاج إلى الناس ولا يتطلع إلى ما عند الآخرين، وحتى يكون حرًا في كلامه وفي قوله وفي فتواه، لا يخضع لضغط الأغنياء، ولا السلاطين، ولا الأثرياء وغيرهم، وهذا كله لا يكون إلا إذا كان للإنسان شيء من الكفاية المادية من الحلال التي يصون بها نفسه.

ولهذا قال ابن الجوزي –رحمه الله– لما تحدَّث عن العلماء الذين لم يصونوا العلم وبذلوه على أبواب الأغنياء والسلاطين قال: "**وددت لو أن هؤلاء العلماء بذلوا شيئًا من الوقت الذي بذلوه في طلب العلم؛ في طلب الرزق الحلال، لكان هذا أحسن لهم وأعز لمكانتهم**".

فالعالِم وطالب العلم يسعى لطلب الرزق، ونيته في هذا الطلب تكون حسنة لا لجمع المال وتكديسه ولا لعبادة المال؛ ولكن لينفقه في هذه الوجوه التي يرضاها الله سبحانه وتعالى وليصون علمه عن ذلك.

فطلب الرزق والمال والسعي فيهما بهذه النية هذا أمر يُمدح به الإنسان، ولكن "اتَّقوا اللهَ، وأَجمِلوا في الطَّلَبِ" [صحيح ابن ماجه: ١٧٥٦]، يعني لا يبالغ الإنسان ويريد أن يكون مثل قارون، لو أراد الإنسان أن يجمع هذه

الثروات لما كان عنده وقت لطلب العلم، ولكن يأخذ من الدنيا بقدر ما تُبلِّغه هذه الرحلة –رحلة الستين أو السبعين سنة أو أقل أو أكثر الله أعلم–، لكن يتبلَّغ منها ما يسد حاجته وما يكفيه وما يصون بذلك علمه.

وأصحاب النبي ﷺ سعوا في طلب الرزق وكان منهم الأغنياء كعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، ولكنهم أنفقوا هذه الأموال في نصرة الدين، في الخير، في الجهاد في سبيل الله، ومن هنا كان هذا المال رفعةً لهم، وعثمان عندما اشترى بئر رومة قال النبي ﷺ: "ما ضرَّ عثمانَ ما عَمِلَ بعدَ اليومِ" [صحيح الترمذي:٣٧٠١]، حاز هذه المكانة وهذا الشرف بهذا الإنفاق في سبيل الله.

فالإنسان لا حرج عليه أن يسعى في طلب الرزق، بل يُطلب منه ذلك، ولكن بالنية الحسنة وبالقدر المعقول الذي يحقق له الحاجة ويصون بها نفسه، هذا معنى قوله:

أُريدُ بسطةَ كَفٍ أستعينُ بها ... على قضاءِ حُقوقٍ للعُلَى قِبَلي

البيت التاسع: والدهرُ يعكِسُ آمالِي ويُقْنِعُني ... من الغنيمةِ بعد الكَدِّ بالقَفَلِ

والدهرُ يعكِسُ آمالِي ويُقْنِعُني ... من الغنيمة بعد الكد بالقفل

الشرح:

"**الدّهْر**" هو **الزمان** كما قال ملاحدة العرب: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، يقصدون بالدهر الزمان، وكما في قوله تعالى ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]

أي من الزمان، ولكن الغالب في استعمال الدهر في لغة العرب أنه يُطلق على الزمان الطويل، بعكس الزمن فإنه يطلق على الطويل والقصير، لكن الغالب في كلمة الدَّهر أن هذه الكلمة لا تطلق إلا على الزمان الطويل، وكفار الجاهلية كانوا يعتقدون أن الدهر هو الذي أوجدهم، بل كانوا يضيفون كل شيء من الفعل من الخير والشر إلى الدهر: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، بل كانوا يسبون الدهر فقال النبي ﷺ: "لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فإنَّ اللَّهَ هو الدَّهْرُ" [صحيح مسلم:٢٢٤٦] بمعنى أن الله هو الذي خلق الزمان وكل ما يقع في الزمان من الخير والشر فهو بتقدير الله سبحانه وتعالى.

"**والدهرُ يعكِسُ آمالِي**"، يعني **يضاد آمالي**، الآمال جمع أمل، والأمل هو الرجاء.

"**ويُقْنِعُني من الغَنِيمةِ**"، يُقنعني من القناعة، **والقناعة هي الرضا بالشيء**، وغالبًا يُستعمل في الرضا بالشيء القليل. **قَنِع بكذابه عني**: **أن عنده شيء قليل قد قنع به ورضي**.

والغنيمة هي كل ما يغنمه الإنسان، وما يحوزه الإنسان من المال يُقال له غنيمة، ﴿فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء:٩٤]، ولكن أكثر ما يستعمل أيضًا في الأموال التي يأخذها الإنسان في الحرب، ﴿فكلوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال:٦٩]، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ [الأنفال: ٤١]، فالغالب أن لفظ الغنيمة إنما يُستعمل في المال الذي يأخذه الإنسان في الحرب.

"**ويُقْنِعُني من الغَنِيمةِ بعدَ الكدِّ**" أي **التعب والمشقة**.

"**بالقَفَلِ**"، **القَفَل والقُفُول هو الرجوع والإياب**، قَفَلَ من سفره بمعنى: رجع وآب، ومنه القافلة، والأصل في كلمة القافلة في الاستعمال الحقيقي وليس المجازي هو إطلاق هذا اللفظ على المسافرين في حالة الرجوع فقط ليس في حالة الذهاب، ولكن أُطلق على جماعة المسافرين حتى في ابتداء السفر من باب التفاؤل وتغليب الخير على الشر؛ فمن باب التفاؤل أن هؤلاء المسافرين سيرجعون ويعودون إلى ديارهم.

- **فائدة:**

فهو يشير في هذا البيت إلى أنه يسعى لتحصيل آماله ويحاول تحقيق أحلامه، ولكنَّ حوادث الدهر تعاكسه، وتجعله يقنع من سفره بمجرد الرجوع، وهذا مثلٌ سَبق إليه امرؤ القيس لما قال في بيته المشهور:

لقَدْ طَوَّفْتُ فِي الآفَاقِ حَتَّى ... رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالإِيَّابِ

فصار مثلًا بعد ذلك يطلق على كل من لم يستطع تحقيق مطلوبه مقصوده ورجع ولم يحقق مسعاه؛ فيقال له هذا المثل: رضي من الغنيمة بالإياب!

وبعض الناس حتى الإياب لا يحوز عليه، كابن زُرَيق البغدادي -كما عرفنا في الدرس الماضي- الذي ترك بغداد وهاجر إلى الأندلس؛ لطلب بسطة الكف، ولم تساعده الأحداث والظروف إلى أن مات بالأندلس، مات في رباطِ الذي نزل فيه، ولما عجز حتى عن كسب الرزق قال لَعلِّي أمدح الخليفة بقصيدة من الشعر؛ فيعطيني شيئًا أتبلَّغ به، فمدح الخليفة ولكن الخليفة ما أعطاه المال الذي يريده، فرجع إلى فندقه أو رباطه ومات غمًّا وهمًّا على فراشه وفي يده هذه القصيدة، فلما أُخبِر الخليفة بهذا حنَّ عليه بعد ذلك، وأرسل إلى أهله بالمال الوفير. فبعض الناس حتى الإياب لا يُحصِّله من رحلته هذه.

البيت العاشر: وذِي شِطاطٍ كصدرِ الرُّمْحِ معتقلٍ ... لمثلهِ غيرَ هيَّابٍ ولا وَكِلِ

وذِي شِطاطٍ كصدرِ الرُّمْحِ معتقلٍ   بمثلهِ غيرَ هيَّابٍ ولا وَكِلِ

الشرح:

"وذي شَطاط"، أو شِطاط بفتح الشين أو كسرها، والأصل **شَطَط**، وهذه **المادة إنما تُستعمل في البعد وتجاوز الحد**، وكل مشتقات هذه الكلمة ترجع إلى هذا المعنى الأساس، ومنه قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤]، **فالشَّطط هنا هو الباطل والقول الذي تجاوز حدَّ الصوابِ.**

وهكذا في قصة داود –عليه السلام– ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ [ص:٢٢] من الشطط وهو تجاوز الحد، فأصل هذه المادة تدور حول هذا المعنى، وهنا كذلك الشطاط يطلق على طول القوام، ولكنه الطول الذي لا يشين الإنسان يعني لا يخرج عن حد الاعتدال.

"وذي شَطاطٍ" يعني بعد أن تحدث عن السفر وهمومه وكذا؛ انتقل إلى الحديث عن رفيقه في السفر، فوصفه بحسن القوام وطوله، وأنه موصوف بهذه الصفة.

"وذِي شَطاطٍ كصدرِ الرُّمْحِ" يعني شبهه بالرمح والجامع هو الطول.

"كصدرِ الرُّمْحِ معتقلٍ بمثله" معتقلٍ: من **الاعتقال وهو وضع الرمح بين ساقه ورَحْلِه**، وهكذا كان يصنع المسافر عندما يسافر يضع رمحه بين ساقه ورحله، بمثله شبَّه صاحبه ورفيقه في السفر بالرمح في طول القوام.

"غير هيَّابٍ": يعني **غير جبان.**

"ولا وَكِلِ" ولا عاجز يكِلُ الأمور إلى غيره.

فمدح رفيقَه بهذه الصفات: بطول القامة وهذا مدح في الشكل والصورة، ومدَحه أيضًا في المعنى كأنه يشير إلى أنه كاملٌ في ظاهره وباطنه، فحتى صفاته جمعت هذه الصفات الحسنة من الشجاعة والقدرة على تنفيذ الأمور.

البيت الحادي عشر: حُلْوِ الفُكاهِةِ مُرُّ الجِدِّ قد مُزِجتْ ... بقسوةِ البأسِ فيه رِقَّةُ الغَزَلِ

ثم يقول:

حلـوُ الفُكاهِـةِ مُـرُّ الجِـدِّ قـد مُزِجـتْ   بـشـــدةِ البـــأسِ مـنــــه رِقَّــةُ الغَــزَلِ

الشرح:

"الفُكاهَةِ" هي **الدعابة وزنًا ومعنى**، هي الدعابة والمزاح، وقد ألَّف الزبير بن بكَّار -رحمه الله- كتابًا سماه (الفكاهة والمزاح) كتاب مشهور خصَّه بأمور المزاح والدعابة والطرائف والنكات.

فالفكاهة بمعنى الدعابة، ولهذا لما تكلم الله سبحانه وتعالى عن أهل الجنة فقال: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ [يس:٥٥]، وفي قراءة ﴿فَكِهُونَ﴾، ففاكهون يرى أكثر العلماء أنها من الفاكهة بمعنى أصحاب فواكه، كما يُقال: (تامرٌ) يعني صاحب تمر، و(لابنٌ): صاحب لبن، و(فاكهٌ): صاحب فاكهة.

و(فَكِهون) قال أكثر أهل العلم بأنها من **الفُكَاهة**، وهو: **المداعبة والمزاح والسرور والفرح ونحو ذلك**.

فعلى القراءة الأولى تكون إشارةً إلى ما أنعم الله عليهم من هذه الأمور الحسية، وعلى القراءة الثانية هي إشارة إلى ما أنعم الله عليه من الأمور المعنوية كالسرور والفرح في الجنة. ومنه الآية الأخرى ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة:٦٥]، تحدث عن أهل النار بأنهم كانوا يمزحون في الدنيا ويسخرون بأهل الإيمان، ويجعلون أهل الإيمان محلًّا للمداعبة والمزاح. فالفكاهة هي بهذا المعنى.

ثم قال: "مرُّ الجدِّ قد مُزِجت"، **مُزجت**: أي **خُلِطت**، من المزج وهو الخلط.

"بشدةِ البأسِ منه" **البأس يأتي بمعنى القوة**، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ [النساء:٨٤]، يعني أشد قوة، ويأتي البأس بمعنى الحرب في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى ﴿وَلا يأْتُونَ البأْسَ إلا قَلِيلا﴾ [الأحزاب: ١٨] يعني لا يحضرون القتال والحرب إلا قليلًا، ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة:١٧٧] يعني حين الحرب والقتال، فالبأس يأتي بهذا المعنى في القرآن ويأتي بالمعنى الآخر أيضًا.

وقوله: "رِقَّةُ الغَزَلِ"، **الغزل**: هو **الكلام الرقيق**، وهذا أيضًا وصف لرفيقه في السفر، وأنه بالإضافة إلى الصفات السابقة من الشجاعة والقدرة والإرادة، فهو أيضًا يجمع بين هذه الصفات الحسنة كالفكاهة والمزاح والدعابة،

ويجمع إلى ذلك أيضًا الشدة والبأس ورقة الغزل أيضًا، فهو يجمع بين هذه الصفات التي تدل على اتزان شخصيته،

- **فائدة:**

وهذا هو الوصف الذي وصف الله به أصحاب رسول الله ﷺ لما قال سبحانه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]، وقال: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]، فهم يجمعون بين هذه الصفات التي يظن بعض الناس أنها متناقضة لكنها ليست متناقضة، كما أنها لم تتناقض في شخص رسول الله ﷺ؛ فالنبي ﷺ كان حلو المعاشرة، وكان يأنس به أصحابه، وكان يمزح معهم ﷺ، ولكنه حين البأس والحرب والشدة كانوا إذا حمي الوطيس، يستترون به ﷺ.

فهذه الصفات التي جمعها الله سبحانه وتعالى في رسوله ﷺ؛ جمعها أيضًا في أصحابه الكرام -رضي الله عنهم-، وقد جمعوا بين هذا وهذا، وهذه حال المؤمن، فالمؤمن لا يكون جادًا دائمًا، ولا يكون أيضًا صاحب مزاح ودعابة دائمًا، ولكنه سَمْحٌ، يمزح ولا يقول إلا حقًا، وفي وقت الشدة يكون جادًا، في وقت الجد يكون جادًا، فهذه صفة المؤمن، كما قال ابن الوردي في لاميّته:

أنا مثلُ الماءِ سهلٌ سائغٌ ... ومتى سُخِّنَ آذى وقَتَل

أنا كالخَيزُور صعبٌ كسرُه ... وهو لدنٌ كيفَ ما شئتَ انفتَلْ

فالمؤمن طبعه السماحة والليونة والسهولة، ولكنه في وقت الشدائد تجده صلب المَرَاس، قويَّ العود، لا يرضى المهانة والذلة لنفسه، فهذا المدح الذي مدح به رفيقه. وهكذا الإنسان ينبغي أن يختار الرفيق قبل الطريق؛ لأن الصاحب ساحب، والإنسان يتأثر بجليسه من حيث لا يشعر، ولهذا قال ﷺ: "الرجلُ على دينِ خليلِه فلينظرْ أحدُكم من يُخالِلُ" [صحيح أبي داوود: ٤٨٣٣/حديث حسن].

الإنسان يختار صحبته إذا أراد أن يصوغ شخصيته كما يحب، وخاصة في حال السفر -هو مدحه بهذه الأوصاف في حال السفر-؛ لأن حال السفر أشد ضيقًا من حال الحضر والإقامة، والإنسان عُرضةً في السفر إلى الشدائد والصعوبات؛ فإذا أحسن اختيار الرفيق، وكان صاحب نفسٍ سمحة فإنه سيحقق هدفه من هذا السفر، وإلا فإنهما سيفترقان في الطريق.

وقد جرى لي هذا مرة في عمري، أردت السفر إلى الجنوب فعلِم بهذا بعضهم فأصرَّ عليَّ أن يصحبني في السفر، وأنا أعرف من طبعه الشدة والقَسوة والمخالفة والعناد، فما وصلنا إلى الباحة إلا وقد مضى في طريق ومضيت أنا في طريق آخر. فالإنسان في حال السفر بالذات يحتاج أن يختار رفقته التي تُعينه على السفر لا أن تكون عِبئًا جديدًا في السفر.

وبالذات مَدَحه بالفكاهة؛ لأن السفر لما كان مظنَّةً للتعب والمشقة والملل، يحتاج فيه الإنسان إلى التوسعة والمزاح أكثر من حاجته إليه في حال الإقامة، ولهذا تجدون أن ظاهرة إنشاد الشعر والحداء في حياة النبي ﷺ، لو تأملت في الآثار تجد أغلبها في حال السفر؛ لأن **وقت السفر هو وقت الحاجة إلى التوسعة، ولهذا جعله الله سبحانه وتعالى مدركًا للرُّخَص الشرعية من القصر والجمع ونحو** ذلك، هذا كله مرتبط بالسفر؛ لأن الإنسان في حال السفر يحتاج إلى التوسعة أكثر منه في حال الحضر.

المحاضرة الثالثة:

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم أحمدك ربي حمد الشاكرين وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا فعلمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا، اللهم إنا نعوذ بك من علمٍ لا ينفع وقلبٍ لا يخشع وعينٍ لا تدمع، أما بعد...

البيت الثاني عشر: طردتُ سرحَ الكرى عن وِرْدِ مُقْلتِه ... والليلُ أغرى سِوامَ النومِ بالمُقَلِ

يقول الناظم الشاعر الأديب الطُّغرائي –رحمه الله– ﷺ:

طــردتُ ســرحَ الكــرى عــن وِرْدِ مُقْلتِــه والليــلُ أغــرَى سِــوامَ النــومِ بالمُقَــلِ

الشرح:

ما زال الشاعر الطغرائي يمدح رفيقه ويصفه بالصفات الحميدة متابعة لما سبق في الأبيات الماضية من عند قوله: "وَذِي شِطَاطٍ..." إلى هذا البيت وهو يتحدث عن الأخلاق الجميلة والصفات الحميدة التي يمتاز بها رفيقه في السفر، وأنه كان شجاعًا صاحب قُدرة، وأنه جمع بين الأخلاق الفاضلة على اعتدال وتوسط، وذكر في هذا البيت أن رفيقه هذا قد شاركه في هذا السهر، ولكن إلى حد ما، ثم خلّاه لهمومه وسهره.

فقال: "طردتُّ" من الطرد، **والطرد: هو الإبعاد في لغة العرب**، طرده أي أبعده إما من المجلس أو أبعده عن البلد والقرية؛ وهذا أشد ما يكون من الطرد، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤]، والمشركون كما تعرفون اشترطوا في الإيمان بالنبي ﷺ أن يُخرج الضعفاء والفقراء من مجلسه حتى يتّبعوه، فالنبي ﷺ رفض هذا وقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال الله فيه: ﴿...فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، فالطرد إذن هو الإبعاد والإخراج.

"طردتُّ سرحَ الكرى" **والسَّرح: هو الشيء المُرسَل**، الشيء الذي ترسله يقال له سرح، ومنه قولهم: سرَحت الإبل أو سرَّحت بالتخفيف وبالتشديد، سرّحت الإبل أو سرَحت الإبل أي أرسلتها في المرعى لترعى، فالسرح إذن هو الشيء المُرسَل نفسه، فيأتي مصدرًا ويأتي بمعنى اسم المفعول، ومنه قوله ﷻ: ﴿...حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]، حين تريحون الإبل؛ وهذا يكون في العشيّ، وحين تسرحون أي حين ترسلون الإبل للرعي؛ وهذا يكون في الغداة في أول النهار ﴿حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾، ومنه تسريح المرأة أيضًا أي تطليقها ﴿...وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب:٤٩]، هو من هذا الباب؛ من التسريح بمعنى الإرسال، فالسرح إذن هو الشيء المرسل أو هو المصدر بمعنى التسريح.

فهنا يقول "طردت سرح الكرى" **والكرى: هو النعاس، ويطلق أيضًا على النوم**، يقال: فلان كريانٌ بمعنى نعسان أو نائم، فلان كريان في لغة العرب بمعنى نعسان مأخوذ من الكَرى، وقد يطلق على النوم أحيانًا أيضًا، فهو يشبِّه الكرى والنوم والنعاس في الأعين بالسرْح؛ بالماشية التي تسرح في الوادي.

"طردتُ سرحَ الكرى عن وِرْدِ مُقْلَتِه"، عن وِرد يعني عن ورود مقلته، **والوِرد والورود: هو الإتيان إلى الماء أو الإقبال عليه**، الإقبال على حوض الماء والإتيان إلى النبع يقال له وِرد، ومنه قوله ﷻ: ﴿...فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]، **وقد يطلق على معنًى متصلٍ به وهو العطش**، فيطلق الوِرد على العطش، لماذا؟ لأن العطش هو سبب الوِرد، الناس إنما يردون على الماء بسبب العطش، فيطلق الوِرد على العطش أو على العطاش وهم الجماعة، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]، يعني نسوقهم إلى النار عطاشًا، فالوِرد يأتي بمعنى العطش، وهذا مرتبط بالمعنى الأول لأن الإقبال على الماء والإتيان عليه إنما يكون بسبب العطش.

"طردتُّ سرحَ الكرى عن وِرْدِ مُقْلَتِه" **المقلة: هي شحمة العين التي تجمع البياض والسواد**، كل هذه الشحمة يقال لها في لغة العرب مقلة، والسواد الأكبر يقال له الحدقة، والسواد الأصغر يقال له الناظر، فالعين فيها

الشحمة التي تجمع البياض والسواد، ثم فيها السواد المستدير هذا الأكبر ويقال له الحدَقة، ثم داخل الحدَقة هناك السواد الأصغر الذي تنعكس فيه رؤية الشيء أو صورة الشيء ويقال له الناظر، فهو يصف النوم وآثاره في هؤلاء القوم بالسرْح، بالماشية التي ترعى، فيقول طردتها عن وِرد مقلته يعني طردت الماشية عن ورود الماء، وهذا نوع من التشبيه والصورة البلاغية الجميلة.

"عن وِرْدِ مُقْلتِه والليلُ أغرَى" أغرى: من الإغراء، **والإغراء في لغة العرب: هو الولع بالشيء واللصوق به،** ومنه الغِراء وهي المادة التي يُلصق بها الشيء، فالمادة هذه الغِراء والإغراء تدل على الملازمة واللصوق بين شيئين، ومنه قوله ﷻ: ﴿...فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ...﴾ [المائدة: ١٤]، يعني جعلنا العداوة والبغضاء بين أهل الكتاب شيئًا ملازمًا وملاصقًا لهم كالغِراء الذي يلصق به الشيء.

فهنا يقول: **"واللَّيلُ أغرَى سَوامَ النَّومِ" سوامَ (بدون تشديد بالتخفيف): جمع سائمة،** "سَوامَ النَّومِ" ومنه سائمة الإبل، **وهي الدابة التي ترعى في المرعى بنفسها بلا راعٍ فيقال لها سائمة،** أما السوامّ بالتشديد فهي الدواب السامة، الحيوانات السامة مثل الحية والعقرب هذه يقال لها السوامّ بتشديد الميم، أما بتخفيف الميم هي جمع سائمة؛ وهي الدابة التي ترعى في الفلاة يقال لها سائمة، ويقابلها المعلوفة، "لا زكاة في سائمة الإبل" يُقصد بها هذا.

"واللَّيلُ أغرَى سَوامَ النَّومِ بالمُقَلِ" النوم معروف؛ وهو الاسترخاء الطبيعي الذي هو نعمة من نعم الله على الإنسان، تتوقف أطرافه وأجزاء جسده عن الحركة من أجل طلب الراحة، وهو نوع من الموت ولكنه يعطيك الحياة ويعينك على الحياة، وهو من آيات الله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾ [الروم: ٢٣]. **"بالمقل"** وقد عرفنا معنى المقلة.

يقول بأني جلست مع رفيقي وسهرت معه حتى طردت عن عينه النوم، يعني أجبرته على أن يسهر معي في ليلةٍ أغرت الناس وأغرت الركب بالنوم لهدوئها وشدة ظلمتها، فهو يصف رفيقه هذا بأنه بات ساهرًا معه في مثل هذه الليلة التي تغري الإنسان بالنوم؛ لأن الليلة كلما اشتدت ظلمتها وكلما كانت هادئة كلما أغرت صاحبها بالنوم، فهو يقول رغم أن الليل بهذه المثابة ولكنني لم أنم؛ لكثرة همومه التي يحملها في صدره، وأخبر أنه اضطر صاحبه إلى السهر معه، وهذا نقضٌ لحقوق الصحبة؛ لأن من حقوق الصحبة أن صاحبك إذا احتاج إلى النوم أن تترفق به وتتركه ينام، لكنه ناكد صاحبه هنا في هذا الموضع، والسبب في هذا هو المعنى الذي يريد أن يشير إليه أن الهموم

التي ملأت صدره كأنها دفعته اضطرارًا إلى أن يخرج عن حقوق الصحبة وعن آداب الصداقة بجعل رفيقه يضطر إلى السهر معه ومشاركته لهمومه التي يحملها في صدره.

البيت الثالث عشر: والركبُ مِيلٌ على الأكوارِ من طَرِبٍ.. صاحٍ وآخرَ من خمر الهوى...

ثم يقول:

والركبُ مِيلٌ على الأكوارِ من طَرِبٍ صاحٍ، وآخرَ من خمرِ الكرى ثَمِلِ

الشرح:

هكذا في المطبوع والذي أحفظه "من خمر **الكرى** ثَمِلِ". **والركْب** -عرفناه فيما سبق-: **جماعة المسافرين إذا كانوا راكبين على الإبل** يقال لهم ركب في لغة العرب.

"والركبُ مِيلٌ"، فالميل هنا جمع أميَل؛ وهو الذي يتهادى على ظهر الدابة، يتهادى يعني يميل يمنة ويسرة يقال له أميل، وهذا الميلان يمنة ويسرة على ظهر الدابة له أسباب، قد يكون أحيانًا ناشئًا بسبب كِبَر السن وقلة الخبرة في ركوب الدواب، ولهذا لما هجا جرير الأخطلَ وقومَه قال فيهم:

لم يألفوا الخيل إلا بعد ما كبروا فَهُم ثِقالٌ على أكتافها مِيل

"لم يألفوا الخيل إلا بعد ما كبروا" -وفي رواية للبيت بعد ما هرموا- **"فَهُم ثِقالٌ على أكتافها مِيل"** -وفي رواية عنُفُ-، فهجاهم بأنهم لم يتعلموا ركوب الخيل إلا بعد كبر، وتعلمهم لركوب الخيل على كبر جعلهم دائمًا كلما ركبوا الخيل يميلون يمنة ويسرة، مثل الشايب الآن لما يتعلم قيادة السيارة وهو كبير في السن فيميل في الطريق يمنة ويسرة بسبب قلة خبرته. فهذا الميلان قد يكون بسبب قلة الخبرة وكبر السن، وقد يكون بسبب النوم والنعاس؛ وهذا هو الذي أراده هنا، فهو يصف الركب بأنهم ميل على الأكوار، **الأكوار: جمع كور وهو الرحل**، فهم يميلون على ظهور الدواب، وهذا الميلان على ظهور الدواب هنا في هذا البيت سببه النعاس الشديد الذي نزل بالركب.

"والرَّكبُ مِيلٌ على الأكوارِ من طَرِبٍ صاحٍ" طرِب بكسر الراء وهو اسم فاعل أو صفة مشبهة للشخص، **"من طَرِبٍ صاحٍ"** **والطرب** -كما يقول علماء اللغة-: **خِفة تعرض للإنسان** ليس فقط بسبب الفرح، ولكن أحيانًا بسبب الحزن أيضًا، وإن كان المستعمل عند الناس وفي أكثر استعمالات اللغة أن الطرب إنما

يستعمل في الخفة والنشوة التي تطرأ على الإنسان بسبب الفرح، ولكن من حيث اللغة يطلق أيضًا على هذه النشوة أو الخفة التي ترد على الإنسان بسبب الحزن الشديد، قالوا:

طربــــت فقلــــت كــــلا وهــــل يبكــــي مــــن الطــــرب الجليــــدُ

أو كما قال، فهو يقصد: "وهل يبكي من الطرب الجليد!" فالطرب هنا ليس المقصود به الفرح إنما مقصود به الحزن، لأن البكاء إنَّما ينشأ من الحزن وليس من الفرح غالبًا، فالطرب إذن يأتي بسبب شدة الفرح وأحيانًا يأتي بسبب شدة الحزن، **وهذا المعنى الثاني الأقل هو الأقرب في هذا البيت وأن هؤلاء من شدة الحزن والملل من السفر أصيبوا بهذه الخِفَّة.**

"من طَرِبٍ صاحٍ": **صاحٍ: يعني مستيقظ، من الصحوة وهي اليقظة.**

"وآخرَ من خمرِ الكَرَى ثَمِلِ" **الخمر: الماء الذي يُسكر أو الشراب الذي يُسكر الإنسان ويذهب بالعقل،** وهذا من باب التشبيه لأن النوم ليس خمرًا، ولكن شبَّه النوم وآثاره في الإنسان بالخمر وما تفعله في الإنسان من زوال العقل. **الثمِل: هو السكران في لغة العرب.**

فهو يشير في هذا البيت إلى أنه سَهِرَ معَ رفيقِهِ وتحادث معه جزءًا من الليل، وهذه حالُ الرَّكب؛ بمعنى أن الركب يجمعهم هذا الوصف الواحد وهو الميلان على ظهور الدَّواب، ولكن يفترقون بعد ذلك في أن بعضهم مستيقظٌ ولكنه حزين من شدَّةِ السفر ومن تعبه ومن وعثائه ومن طول السفر، والآخر يترنح مثل السكران بسبب النعاس وشدة النوم.

- **فائدة:**

ومقصوده من كل هذا هو الإشارة إلى شدة الهموم التي كان يحملها في صدره حال السفر، لدرجة أن هذه الليلة الهادئة التي تغري الإنسان بالنوم، وهذه الليلة الظلماء التي تغري بالنوم... أن كل هذه الصِّفات لم تؤثر فيه، فظلَّ سهران مع صاحبه ورفيقه بينما الركب في هذه الحالة يميلون على الدواب إما من شدة التعب وإما من شدة الكرى والنوم.

وهذا يسمى عند علماء البديع بالجمع والتقسيم، يعني جمعهم في وصفٍ وهو: الميلان على ظهور الدواب، ثم قسَّمهم إلى نوعين فيما يتعلق بأنواع هذا الميل وأسبابه التي أدت إليه.

والركبُ مِيلٌ على الأكوارِ من طَرِبٍ ... صاحٍ وآخرَ من خمرِ الهوى ثَمِلِ

البيت الرابع عشر: فقلتُ أدعوكَ للجُلَّى لتنصُرَنِي ... وأنت تخذِلُني في الحادثِ الجَلَلِ

فَقُلْتُ أَدْعُوكَ لِلْجُلَّى لِتَنْصُرَنِي ... وأنْتَ تَخْذُلُني في الحَادِثِ الجَلَلِ

الشرح:

"**فَقُلْتُ أَدْعُوكَ لِلْجُلَّى**" يعني أناديك للجُلَّى، **والجُلَّى هي**: **الأمر العظيم**، يقال له الجلَّى.

كما قال طرفة:

وإنْ أُدْعَ لِلْجُلَّى أكُنْ مِنْ حُمَاتِهَا ... وإنْ يَأْتِكَ الأَعْدِاءُ بِالجَهْدِ أَجْهَدِ

"**أُدْعَ لِلْجُلَّى**" يعني للأمر العظيم.

"**لِتَنْصُرَنِي**" من **النصرة**: **وهي الإعانة**، أعَانهُ على كذا أي: نَصرهُ، ونصَرَهُ أي: أعانهُ.

"**وأنت تَخْذُلُني**" من **الخِذلان** (**بكسرِ الخاءِ**): **وهو ترك النصرةِ**، خذله بمعنى ترك نُصرتهُ، ومنه قوله ﷻ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ...﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ﴿إِن يَخْذُلْكُمْ﴾ يعني إن تَرَكَ نُصْرَتَكُمْ فلن تنصركم أي قوة في هذه الأرض، ومنه قوله ﷻ أيضًا: ﴿...وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٩] ﴿خَذُولًا﴾ يعني كثير الخذلان، يغريك بالمعصية فإذا وقعت تخلى عنك، يغري البشر بالمعاصي ويوقعهم فلمَّا يأتي يوم الحساب ويوم القيامة يتبرأ من الناس، فالخذلان ترك النصرة والإعراضُ عنها.

فهو يقول: "**وأنت تخذلني في الحادثِ الجَلَلِ**" و"**الجَلَلِ**" هذه من ألفاظ الأضداد كما يقول علماء اللغة، بمعنى اللفظ الذي يستعمل في المعنى وضِدّهِ أيضًا، **فالجلل يطلق على الأمرِ العظيم في اللغة، كما يطلق على الأمر الصغيرِ أو الحقير**.

ولهذا الصحابية في غزوة أحد لمَّا أُشيعَ أنَّ النبي ﷺ قُتل كانت تسأل عن رسول الله ﷺ ما فعل رسول الله؟ ما فعل رسول الله؟ إلى أن أخبروها بأنَّهُ سالمٌ حيّ، فلمَّا نظرت إليه قالت له: "كُلُّ مصيبةٍ بعدَكَ جَلَلٌ" [البيهقي في

الدلائل: ٣/ ٣٠١] مع أنَّهُ قُتل أبوها وابنها وزوجها! فالجَلَل هنا بمعنى الأمر الهين، يعني كلُّ مصيبةٍ في غيرك فهي مصيبة هينة وحقيرة وسهلة.

كُـلُّ المُصـيباتِ إنْ جَلَّـتْ وإنْ عَظُمَـتْ إلاَّ المصــيبةَ في ديــنِ الفَــتى جَلَــلُ

يعني كل المصيبات هينة أمام مصيبة الإنسان في دينه، إذا أُصيب الإنسان في دينهِ فهذه أعظمُ المصائب. لهذا كان النبي ﷺ يستعيذ في دُعائه أن تكون المصيبة في دينه، أما مُصيبات الدُّنيا بالمقارنة بمصيبة الدين فهي هينة. ومنه أيضًا قول الشاعر:

كُــلُّ شَــيْءٍ مــا عــدا اللهَ جَلَــلْ والْفَــتَى يَسْــعَى ويُلْهِيــه الأمَــلْ

جَلَل هنا بمعنى أنه أمر هين، فيطلق على هذا ويطلق الجلل على الأمر الكبير أيضًا.

فهنا في قوله: "وأنْتَ تَخْذُلُنِي فِي الحَادِثِ الجَلَلِ" الأقرب أنه يقصِد بالجلل هنا الأمر الحقير والأمر الصغير.

ويقصِد بهذا البيت من باب العِتاب لِرَفيقهِ، لماذا؟ لأن رفيقَه سَهِرَ معه أول الليل ولكنه تَعِب من السهر فأراد أن يذهب لينام ويترك صاحبه يُكابدُ السهر، فهو يعاتبه ويقول له ما عهدتك هكذا، أنا أدعوك للجُلَّى وأُناديك للقضايا الكبرى فتنصرني، فلمَّا أدعوك إلى هذا الشيء اليسير وهو السهر وترك النوم وأن تبقى معي لتؤانسني فترفض هذا، فتخذلني في هذا، يعني لا يستقيم هذا في النَّظر، أنت تنصرني في القضايا الكبيرة فمن باب أولى أني إذا طلبت منك النُّصرة في الأمور اليسيرة أن تنصرني فيها، وهو طلب منه أن يبقى ساهرًا معه يخفف عنه هذه الآلام والأحزان والهموم التي يُقاسيها.

- **فائدة:**

ولا شك أنَّ نصرة المسلم في الأمور المباحة أو الأمور الشرعية أو فيما هو من باب الحق، أن هذا أمر ممدوح يمدح به الإنسان، بل إنَّ الله ﷻ جعل هذا من واجبات المسلمين تجاه بعضهم البعض ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢]، جعل نصرة المؤمنين واجبة على أهل الإيمان. وقال ﷺ: "المُسلِمُ أخو المسلِمِ لا يظلِمُهُ ولا يخذُلُهُ" [أحمد: ١٦٠٦٢] لا يخذله: من الخِذلان بمعنى ترك النصرة؛ وجعل هذا من حقوق الأُخوة الإسلامية.

بل قال في الحديث الآخر الصريح: "انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا" [البخاري: ٦٩٥٢] يعني هذا من باب التأكيد وإلا هو لو كان ظالمًا لا يُنصر لكن من باب التأكيد على أهمية النصرة للمسلمين أكَّده بهذا الأسلوب وهذه الكلمات التي تُثير السامع، عندما يسمع "ظالمًا أو مظلومًا" فهذا يستثير السامع؛ ولهذا قال بعض الصحابة: أنصرهُ مظلومًا فكيفَ أنصرهُ ظالمًا؟ واضحة أن أنصرهُ وهو مظلوم فكيف أنصره ظالمًا؟ قال: "تمنعُه من الظلم"، فالمسلم يجب أن يُنصر في الحق ويُمنع من الظلم، وهذه هي نصرته التي أرادها ﷺ لكنَّه اختار هذا الأسلوب في البيان لتأكيد أهمية النصرة ولفت انتباه السامعين إلى جلالة هذا المعنى الذي أراده ﷺ.

فَقُلْتُ أَدْعُوكَ لِلْجُلَّى لِتَنْصُرَنِي وأنْتَ تَخْذُلُنِي فِي الحَادِثِ الجَلَلِ

فالصديق أو الرفيق أو المسلم لا يكون كما قال الشاعر:

وإخوانٍ حسبتُهمُ دروعًا فكنوها ولكن للأعادي

ولكن الواجب على المسلم أن ينصر أخاه المسلم في الحقّ.

البيت الخامس عشر: تنام عيني وعينُ النجمِ ساهرةٌ ... وتستحيلُ وصِبغُ الليلِ لم يَحُلِ

ثم قال:

تنامُ عني وعينُ النجمِ ساهرةٌ وتستحيلُ وصِبغُ الليلِ لم يَحُلِ

الشرح:

"تنام عنِّي" عن هنا للمجاوزة، ولهذا فالمعنى تنام معرضًا عنِّي قد تجاوزتني وتركتني، وعنِّي هي أصلها عن التي تفيد المجاوزة في لغة العرب وأضيفت إليها نون الوقاية.

"تنام عني" هي بمعنى تتركني وتعرض عنِّي.

"وعينُ النجمِ ساهرةٌ"، النجم في لغة العرب: يطلق على الكوكب، سواءٌ كان مضيئًا أم غيرَ مُضيء، فكل هذا يسمى في لغة العرب بالنجم، وإن كان المعاصرون اليوم يُفرِّقون بين النجم وبين الكوكب، **فالنجم هو: الجِرم أو الغاز المضيء، بينما الكوكب هو: الجِرم غير المضيء**. فالأرض كوكب وليسَت نجمًا، وزُحل كوكب عندهم

وليسَ نجمًا، لكن هذا اصطلاح معاصر **أما في لغة العرب فيُطلقون النجم على كلِّ كوكب سواءٌ كان مضيئًا أم غير مضيء.**

﴿...وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، النجم هنا بمعنى الكوكب. وقوله ﷻ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] وهو بمعنى الكوكب، فهذا معناه المعروف في لغة العرب، وإن كان الناس في اصطلاح اليوم يفرقون بين هذا وهذا. والعرب كما تعرفون قديمًا ليس عندهم من الآلات والعلوم التي يفرقون بها بين الكوكب المضيء وغير المضيء، ولكن المعاصرين لما توسعت العلوم والأدوات والمعارف والاكتشافات فرَّقوا بين هذه الكواكب التي تظهر في السماء وجعلوا بعضها نجومًا خَصُّوها بهذا الاسم وبعضها كواكب.

فالنجم إذن هو: كل كوكب سواء كان مضيئًا أم غير مضيء، لكن إذا أُطلق –يعني لم يُقيَّد في نص من النصوص عند العرب– فيُحمل على كوكبٍ معيَّن أو نجمٍ معين وهو ما يسمى بالثُّريا، بالألف واللام، وإن كان الناس اليوم لـمَّا يسمون المرأة ثُريًّا يحذفون الألف واللام، وإذا حُذفت الألف واللام ذهب المعنى الذي أرادوه، لأن النجم المخصوص هذا لا يُعبَّر عنهُ إلا بالألف واللام.

ويسمونها «**لامٌ للعهد**» يعني **النجم المعهود وهو المسمَّى بالثُّريا**، وهذا نجم يظهر في السماء في أول الصيف، وهو من حيث اللفظ مفرد لكنه من حيث الحقيقة جمع، لأنه ليس نجمةً واحدة إنَّما **هو ستة نجوم متقاربة، بينها نجوم صغيرة، تظهر في أول الصيف، وإذا ظهرت فالناس يعرفون أنَّ الصيفَ قد بدأ وأنَّ الحرَّ سيشتدُّ**، لهذا قالوا في الأمثال: "إذا طلعَ النَّجمُ فالحرُّ في حَدَمْ والعشبُ في حَطَم"، في حَدَم: يعني في احتدام واشتداد، "والعشبُ في حَطَم" لأن الصيف سيزداد، ومن علاماته عند أهل الزراعة الأمن من العاهة، بمعنى أن النبات يأمن من العاهة إذا طلعت الثُّريا بسبب شدة الحر؛ لأن البرودة من أسباب الفساد ومن أسباب المرض أكثر من الحرارة؛ ولهذا جاء في الأثر: "إذا طلع النجم فقد أمنت العاهة"، والفقهاء بنوا عليها بعض الأحكام الفقهية في بيع الثمار، بسبب أن هذه علامة على سلامة هذه الزروع والثمار والنباتات من الآفات في الغالب.

فالنجم هذا معناه، وإن كان يأتي في لغة العرب أحيانًا بمعنى النبات الذي لا ساق له فيسمي عند العرب بالنجم، وجمهور المفسرين فسروا به الآية في سورة الرحمن: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]، فالنجم هنا عند جمهور المفسرين هو بمعنى النبات الذي لا ساق له، يقابله الشجر وهو النبات الذي له ساق، فاستدلوا بدليل المقابلة، مع أن الأشهر في لفظ النجم إطلاقه على المعنى الأول، ولكن نظروا إلى قرينة المقابلة في هذه الآية ففسروا النجم هنا بالنبات الذي لا ساق له.

والمقصود هنا المعنى الأول في هذا البيت، عندما يقول: **"تنام عني وعينُ النجمِ ساهرةٌ"**، فالنجم هنا المقصود به نجم السماء، وإعطاء النجم هذا الوصف -وهو العين- هذا من باب التجوُّز والتوسع في لغة العرب وإلا فالنجم ليست له عين، ولكن من باب التوسع في لغة العرب؛ وهذا من محاسن لغة العرب أن تشبَّه فيها الأشياء بأشياء يعرفها الناس.

"ساهرةٌ" ويجوز ساهرةً أيضًا، ساهرةٌ بناء على أنها خبر، وساهرةً بناء على أنها إما حال أو مفعول به؛ لأن المعنى يكون: وعين النجم تراها ساهرةً، أو وعين النجم تراها والحال أنها ساهرة، فالنصب يحتمل أن يكون للمفعولية أو أن يكون للحالية، مثل قوله ﷻ: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗا﴾ [الأنعام: ١٢٦] في حالة كونه مستقيم، ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ [هود: ٧٢] بالنصب، فيجوز النصب في هذا اللفظ كما يجوز الرفع أيضًا.

"وعينُ النجمِ ساهرةٌ"، ساهرة: من السهر وهو الأرق وترك النوم، فترك النوم يقال له سهر، وإن كانت **الساهرة تأتي بمعنى الأرض المكشوفة،** الأرض المكشوفة يقال لها الساهرة، ومنه قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾ [النازعات ١٣-١٤] يعني إذا هم خارجون على وجه الأرض، ولا شك أن أرض القيامة التي سيكون فيها الحساب والجزاء هي أرض مكشوفة ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه: ١٠٧]، لا فيها جبال ولا مغارات ولا فيها أماكن يختفي فيها الإنسان. والأرض المكشوفة قيل لها ساهرة لأن السالك فيها يخاف فيسهر لأنه مكشوف، حتى في فن الحروب الأرض المكشوفة أرض خطيرة، وأي جيش يسير في أرض مكشوفة فهو هدف سهل للعدو، فالأرض المكشوفة قيل لها ساهرة لأن السالك فيها يخاف، وإذا خاف دفعه هذا إلى السهر وترك النوم لأن النوم يجعل للعدو فرصة عليه. لكن المقصود هنا المعنى الأول، ساهرة من السهر بمعنى ترك النوم.

"وتستحيل" يعني تتغير؛ من **الاستحالة بمعني التغير.**

"وصِبغ الليل" الصِبغ: هو ما يُصبغ به الشيء مثل الحبر مثلًا، أما الصَبغ بالفتح فهو المصدر، صَبَغَ، يصبغ، صَبغًا، أما الصِبغ فهو ما يصبغ به. **"وصِبغ الليل"** وهذه كناية عن سواد الليل، يعني شبَّه الليل هذا من سواده بالصِّبغ الأسود كالحِبر، **"لم يحُل"**: لم يتغير.

فهذا شرح للعتاب الذي سبق والخذلان الذي ذُكِر في البيت السابق، فهو يعاتب صاحبه على خِذلانه بأنه تركه ساهرًا مع أن الليل لا يزال باقيًا ولم يتغير بطلوع الصباح، بينما هذا تغير عن عهده المعروف وحالته المعروفة وهي النصرة لصاحبه، فكأنه يقول: كيف تتركني ساهرًا وهذا النجم يسهر معي رقةً بحالي، يعني كأنه يقول له:

هذا النجم يرقُّ لحالي ويسهر معي بينما أنت الصديق الذي توقعت منك أن تكون أرق من النجم فتبادر إلى نصرتي بالبقاء معي لتخفف عن همومي وأحزاني.

البيت السادس عشر: فهل تُعِيُن على غَيٍّ هممتُ بهِ ... والغيُّ يزجُرُ أحياناً عن الفَشَلِ

فهــل تُعِــيُن علــى غَــيٍّ هممــتُ بــهِ   والغــيُّ يزجُــرُ أحيــاناً عــن الفَشَــلِ

الشرح:

الغي: هو الجهل وترك الصواب وضده الرشد، ولهذا قال ﷻ: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فقابل الغي بالرشد والرشاد. ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، فالغي هو الجهل وترك الصواب، ويطلق على الطيش والسفاهة أيضًا.

"هممتُ به" أي أردته.

"والغي يزجر أحيانًا عن الفشل"، الفشل في أصل اللغة هو الضعف، يقال نبات فِشلٌ أو فَشلٌ بمعنى ضعيف، فالفشل في أصل اللغة يأتي بمعنى الضعف، وهو المعنى الذي استعمله القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، تفشلوا أي تضعُفوا، وتذهب ريحكم أي تذهب قواكم، ومنه الآية الأخرى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] يعني أن تضعفا.

فالفشل في أصل المعنى هو الضعف، **وإن كانوا اليوم يستخدمونه فيما يقابل النجاح،** يقولون: فلان ناجح وفلان فاشل، **بمعنى أنه لم يحقق مراده،** الناجح هو الذي حقق أهدافه ومراده، والفاشل هو الذي لم يحقق مراده، **وهذا من حيث اللغة ليس استعمالًا دقيقًا؛** لأنه لا يلزم من عدم تحقيق المراد الضعف، فالإنسان قد يكون قويًّا ومجتهدًا وأخذ بجميع الأسباب ولكن الله لم يقدر له حصول هذه النتائج والثمرات التي يرجوها، فالفشل في أصل اللغة هو بمعنى الضعف وليس بمعنى عدم النجاح.

فهنا يقول لصاحبه ويحرضه على النصرة والإعانة، يعاتبه ويحرضه على أن ينصره ويعينه **"على غَيٍّ هممت به"** وفي بعض النسخ "على أمر هممتُ به". والأمر الذي همّ به سيفسره في الأبيات القادمة من طروق الحي والوصول إلى المحبوب.

وهذا المحبوب أو هذه المرأة التي تحدث عنها في الأبيات القادمة إن كانت امرأته فنصرته واجبة في هذا، إن كانت امرأته وأهلها منعوها عنه ظلمًا وعدوانًا؛ فإعانته في هذا واجبة، إعانة الضعيف والمظلوم "انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا" [البخاري: ٦٩٥٢]، ويكون تسميته لهذا المعنى والوصول إليها؛ تسميته بالغي من باب المشاكلة اللفظية، كقوله ﷻ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] مع أنها ليست سيئة، ولكن من باب المشاكلة اللفظية، وقوله ﷻ: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وهو ليس عدوانًا، ولكن سماه من باب المشاكلة، أو كما قال عمرو بن كلثوم في معلقته:

ألا لا يجهلـــــــنْ أحــــــدٌ علينـــــا فنجهـــلَ فـــوق جهـــل الجاهلينـــا

ورد العدوان ليس جهلًا، فيكون تسميته هذا الأمر الذي همَّ به بالغي من هذا الباب.

أما إذا كانت أجنبية لا تحل له؛ فهذا غيٌّ حقيقة ولا تجوز نصرته ولا إعانته فيه.

"**والغي يزجر أحيانًا عن الفشلِ**" الظاهر عندي في هذا المعنى أنه يقول لصاحبه أن الغي أحيانًا يزجر يعني يمنع الإنسان من الفشل، من الضعف، **بمعنى كأنه يقول له**: انصرني في هذا الأمر الذي هممت به، ولا تفكر في عواقبه لأن التفكير في العواقب يزجر الإنسان عن الأمر ويوقعه في الضعف.

الإنسان إذا فكر كثيرًا في عواقب الأمور ربما يقع في الجبن وينثني عن الإقدام، كما سيأتي هو في أبياته:

حـــبُّ الســـلامةِ يُثـــني عـــزمَ صـــاحبِه عـــن المعـــالي ويغـــري المـــرءَ بالكســـلِ

- **فائدة:**

فكأنه يقول: هذا هو الغيّ، يعني اترك النظر في عواقب الأمور، وتسميته بالغي هنا على حقيقته، فكونك تذهب وتغامر بنفسك لتطرق حيًّا بهذه القوة والبسالة التي وصفتها بعد ذلك فهذا ليس من العقل، فسماه غيًّا لأنه جهل، نوع من الجهل والطيش، فكأنه يقول له لا تفكر، انصرني ولا تفكر في عواقب الأمور؛ لأن التفكير في عواقب الأمور، يُوقع الإنسان في الضعف والإحجام.

ولهذا تمدّح ربنا ﷻ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس ١٤-١٥]، لأن الله ﷻ ليس كملوك الأرض يخاف من نتائج الأفعال وما يترتب عليها، فبعض الملوك قد يرغب في قتل ملك آخر وفي إيذائه والإضرار به، ولكنه لمَّا يتأمل في العواقب يحجم عن هذا، فهذه الآية

تمدَّح الله ﷻ بكمال علمه وكمال قدرته، وأنه عندما يُهلك هؤلاء الأقوام الذين يستحقون الهلاك فإنه لا يخاف عقباها؛ يعني لا يفكر في نتائج هذه العقوبات التي ينزلها على هؤلاء القوم، لماذا؟ لكمال قدرته وسلطانه ﷻ.

فهذا الذي يدعو صاحبه إليه، فهو يطلب منه أن ينصره في هذا الأمر الذي همّ به وألّا يفكر في عواقب هذه الأمور.

طبعًا يقولون إن الاستعانة بالصديق في تحقيق المراد هذا من حكمة الإنسان وعقله خاصة إذا عظمت الأهداف، فكلما عظمت أهداف الإنسان وغاياته كلما أحتاج إلى النصرة، ولهذا عيسى عليه السلام قال للحواريين: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]، طلب منهم النصرة في الدعوة إلى الله ﷻ.

والنبي ﷺ كان يطوف على القبائل وكان يقول: "مَن يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة؟" [أحمد: ١٤٦٥٣]، فطلب النصرة في تحقيق الأهداف والأمور هو من كمال العقل.

البيت السابع عشر: إني أريدُ طروقَ الحي من إضمٍ ... وقد حماهُ رماةٌ من بني ثُعلِ

إنـــي أريـــدُ طـُـــروقَ الحـــي مـــن إضَـــمٍ وقـــد حـَمـــاهُ رمـــاةٌ مـــن بـــني ثُعَـــلِ

الشرح:

هذا تصريح بالأمر الذي همّ به، فالأمر الذي همّ به هو طروق الحي، **الطروق: هو إتيان الحي ليلًا**، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ [الطارق: ١-٣]، فالنجم الثاقب سُمي طارقًا؛ لأنه يأتي بالليل، يظهر بالليل، ومنه أيضًا حديث النبي ﷺ لما "نَهَى أن يَطْرُقَ الرجلُ أهلَهُ"، يعني نهاه أن يأتيهم من السفر فجأة هكذا بالليل؛ لأن **لفظ الطروق يدل على المجيء بالليل ويدل أحيانًا على المجيء فجأة**، الظهور فجأة يقال له طروق، ولهذا جاء في الحديث "أعوذ بكلمات الله التامات... ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقًا يطرق بخيرٍ يا رحمن" [أخرجه مالك والنسائي]

فالطوارق هنا في هذا الحديث إنما لوحظ فيها معنى الفجأة، ولهذا عمَّمَه في النهار، قال: "طوارق الليل والنهار" مع أنه في الأصل إنما يطلق على الشيء الذي يأتيك بالليل، ولماذا قيل له طارق؟ لأن صاحبه يضطر إلى طرق الباب؛ لأنه مأخوذ في الأصل من طرق الباب أي دقه، فالذي يأتي بالليل هو يحتاج إلى طرق الباب، لأن عادة الناس أن يغلقوا أبوابهم بالليل، بينما بالنهار قد تبقى بعض الأبواب مفتوحة، فخُصَّ الآتي بالليل بهذا اللفظ؛

وهو لفظ الطارق؛ لأنه يحتاج إلى طرق الباب باعتبار أن عادة الناس أن يغلقوا أبوابهم بالليل. فإذن الطروق هو بمعنى الإتيان إلى المكان ليلًا.

"والحي" هنا: **البطن من القبيلة، وأحيانًا يطلق على القبيلة كلها،** كل من جمعهم أبٌ واحد قيل لهم حيٌّ، أحياء العرب بمعنى قبائلها.

"من إِضَمٍ" **إضم هذا وادٍ بالحجاز بين المدينة ويَنبُع وهي من ديار جهينة،** كانت تسكنه قبيلة جهينة.

"من بني ثُعَل" **ثُعل** على وزن عمر، **وهذا لفظ يطلق على بطن من قبيلة طيّ، يعرفون بثُعل وهم أبناء ثُعَل بن عمرو**، وكانوا مشهورين بجودة بالرماية. ومثلهم القَارَة وهم: عُضَل، والدِّيش بن الهون بن خزيمة، كانوا أيضًا مشهورين بالرماية في الجاهلية، وكانوا يلقَّبون برماة الحَدَق، يعني من دقة رمايتهم يصيبون حدقة العين، فهؤلاء جميعًا كانوا مشهورين بجودة الرماية، ولهذا قالوا في المثل: "قد أنصف القارَة من راماها" يعني من تحدَّاها في الرماية؛ لأن هذه صنعتهم.

- **فائدة:**

فهو في هذا البيت أولًا يكشف عن الأمر الذي همّ به وأنه يريد الذهاب ليلًا إلى هذا الحي، ثم وَصَفَ هؤلاء الحي بجودة الرماية وأنهم أهل حرب وسلاح وليسوا ضِعَافًا. وهذا المعنى الذي يريده الشاعر هو الإشارة إلى صدقه في محبته، لأن الصادق في محبته لا يبالي بالأخطار.

علامـــةُ الحـــبِّ أن يُستصـــغَرَ الخطـــرُ وأن تـــزورَ ونارُ الحـــربِ تســـتعرُ

فهو يريد أن يشير إلى صدقه في محبة هذا المحبوب وأن كل هذا الخطر لا يمنعه ولا يحجزه عن طروق هذا الحي والإتيان إلى هذا الموضع الذي فيه القتل والموت.

فهو يشير إلى هذا المعنى كما أنه يشير إلى شجاعته أيضًا؛ لأن الشجاعة هي التي تدفع إلى مثل هذه المواقف، أما الجبان فإنه يبتعد عن هذه الأماكن التي يلوح فيها الموت وبوارق السيوف.

نكتفي بهذا القدر وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المحاضرة الرابعة:

المقدّمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيّد الأوَّلين والآخرين نبيّنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهمَّ أصلح لنا نيَّاتنا وذرّيَّاتنا وأحسن ختامنا يا أرحم الراحمين.

البيت الثامن عشر: يَحْمُونَ بِالبِيضِ وَالسُّمْرِ اللِّدَانِ بِه ... سُودَ الغَدَائِرِ حُمْرَ الحَلْيِ وَالحُلَلِ

أمَّا بعد: يقول الطُّغْرائي –رحمه الله تعالى–:

يَحْمُـونَ بِالبِـيضِ وَالسُّـمْرِ اللِّـدَانِ بِـه ... سُـودَ الغَـدَائِرِ حُمْـرَ الحَلْـيِ وَالحُلَـلِ

ما زال الشاعر يتحدَّث عن أهل الحيّ مِن إِضَمْ، ويصفهم بهذه الأوصاف الَّتي مضى منها وصفهم بجودة الرماية وإتقان الحرب، وثنَّى بجملةٍ من الصفات الممدوحة في الرجل. وهذا كلُّه من باب الإنصاف، فهو يصفهم بأنَّهم أعداءٌ له، ولكن مع هذا يعترف لهم بالشجاعة والغَيرة والقوَّة. وهذا من محاسن الأخلاق والآداب عند الإنسان، أنَّه يكون مُنصفًا حتَّى مع خصومه وأعدائه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

الشرح:

فالعدل والإنصاف واجبٌ على المسلم حتَّى مع خصومه وأعدائه، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]، والناس هنا لفظٌ عامٌّ يعُمُّ الكافر ويعُمُّ المسلم، يعُمُّ الصالح والطالح، الطائع والفاسق، كلُّهم يدخلون في عموم هذه الآية الكريمة. فهو من باب الإنصاف والعدل لهم يصفهم ويمدحهم بهذه الصفات فيقول: "**يَحْمُونَ بِالبِيضِ وَالسُّمْرِ**".

"**يَحْمُونَ**": من الحماية وهي المنع، فهم يمنعون حرماتهم ونساءهم بهذه الأشياء الَّتي ذكرها بعد ذلك.

"**بِالبِيضِ**": أي بالسيوف البِيض، فهو من باب الاكتفاء بالصفة عن الموصوف، حُذِف الموصوف هنا وبقيت الصفة، يعني: بالسيوف البيض.

"**السُّمْرِ**" يعني بالرِّماح السُّمر، أيضًا من باب حذف الموصوف والاكتفاء بالصفة، والعرب يصفون السُّيوف بالبياض، كما يصفون الرِّماح بالسُّمرة.

كما قال عنترة:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالرِّمَاحُ نَوَاهِلٌ مِنِّي وَبِيضُ الهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي

بِيضُ الهِنْدِ: هي السيوف، وتوصف بالبياض لأنَّها تلمع تحت الضوء، والرماح أيضًا توصف بالسمرة باعتبار لون الأعواد الَّتي تُركَّب عليها حديدة الرُّمح. كما قال الشاعر أيضًا:

ذَكَرْتُكِ وَالخَطِّيُّ يَخْطُرُ بَيْنَنَا وَقَدْ نَهِلَتْ مِنَّا المُثَقَّفَةُ السُّمْرُ

وَقَدْ نَهِلَتْ مِنَّا: يعني شَرِبت منَّا المثقَّفةُ السُّمْرُ، يعني الرماح. فالعرب يصفون السيوف بالبياض والرماح بالسمرة، والسمرة في الأصل هو: لونٌ بين البياض والسواد، فيقال: رجلٌ أسمرُ. يعني بين البياض والسواد، كما هو لون العرب غالبًا، وكما قال النبي ﷺ فيما أنشده من الشعر: "وَلَوْلَا الحَبَّةُ السَّمْرَاءُ لَمْ نَحْلُلْ بِوَادِيكُمْ". وَلَوْلَا الحَبَّةُ السَّمْرَاءُ، المقصود بالحبَّة السمراء حبَّة القمح أو حبَّة الحنطة.

فهذا هو الأصل في السُّمرة، لكن يتوسَّعون في هذا حتَّى يُطلقوا الأسمر على الأسود أحيانًا؛ أخذًا من سواد اللَّيل وظِلِّ القمر، ولهذا يُسمُّون الحديث بالليل سَمَرًا، والقوم الَّذين يتسامرون: سَامِرًا ﴿سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧] كما جاء في القرآن، أخذًا من سوادِ الليل، فيقال له: أسمر. يعني يُطلق هذا اللون على السواد أحيانًا، لكن الغالب إنَّما هو إطلاقه على اللَّون الَّذي بين البياض والسواد، كما في وصف الحنطة بأنَّها سمراء وهي ليست سوداء، السوداء لا تُؤكل ولا يُمتدح بها.

هذا معنى قوله: "**يَحْمُونَ بِالبِيضِ وَالسُّمْرِ اللِّدَانِ بِهِ**".

"**اللِّدَانِ**": جمع لَدْنٌ وهو اللَّيِّنُ.

أَنَا كَالخَيْزُورِ صَعْبٌ كَسْرُهُ وَهْوَ لَدْنٌ كَيْفَمَا شِئْتَ انْفَتَلْ

...وَالسُّمْرِ اللِّدَانِ بِهِ سُودَ الغَدَائِرِ حُمْرَ الحَلْيِ وَالحُلَلِ

"**سُودَ الغَدَائِرِ**": هذا من باب إضافة صِفةٍ إلى الموصوف، يعني الغدائر السود.

وكذلك "**حُمْرَ الحَلْيِ**": يعني الحليُّ الحمر.

و"**الغَدَائِرُ**" هي الضفائر وزنًا ومعنًى، جمعُ غديرة وهي ضفيرةُ الشعر، وهذا كان من عادة النساء قديمًا وحديثًا، النساء يضفرْنَ شُعورهنَّ، وكان أيضًا من عادة بعض العرب أنَّ رجالهم كانوا يضفِرون شعورهم أيضًا، فالضفائر كانت أيضًا ممَّا يفعله بعض الرجال عند العرب قديمًا، بل حتَّى في المدينة هنا، كما قال ربيعة الرأي –رحمه الله–: **"وقد رأيتُ مشيخةً مِنَ المدينةِ لهمُ الضفائرُ وفي أيديهم آثارُ الحنَّاءِ، وفيهم هيئة الفتيان، ودينُ أحدِهم أبعدُ من الثُّرَيَّا إذا أُريدَ دينُه"**.

يعني هو في الظاهر والشكل لا يقال هذا من أهل العلم، ليست عليه سيماء أهل العلم، لكن يقول: هؤلاء كانوا إذا أُريدَ دينهم... يعني إذا أراد أحدٌ أن يجرح دينهم أو يحتال عليهم في الدين، كانوا أبعد الناس عن ذلك، يعني كانوا أصحاب دينٍ.

فالضفائر هذه كان بعض رجال العرب قديمًا، كان من عرفهم أن يفعلوا هذا، وإذا دخلوا الحرب نشروا الضفائر من باب إرعاب العدوِّ وإدخال المهابة والخوف في نفوسهم. ولكن من الناحية الفقهيَّة والشرعيَّة هذا أمرٌ عرفيٌّ يُرجع إلى العرف، فإذا لم يكن ضَفْرُ الشعر للرجال من عُرف القوم فَفِعلُهُ من باب الشهرة الَّتي نهى عنها النبيُّ ﷺ، وأمَّا إذا كان من أعرافهم كما نجد هذا في بعض القبائل اليوم.

بعض القبائل العربيَّة لا تزال هذه الهيئة وهذه السمة ممَّا تعارفوا عليه. فإن كان من عرفهم ذلك فلا حرج على من عاش بينهم أو عاش في تلك البقعة أن يفعل هذا الفعل، ولكن إذا عاش الإنسان في بلدٍ ليس ضفر الشعر من شعائرهم وعلاماتهم وهيئتهم فلا يجوز للإنسان أن يفعل ذلك؛ لأنَّه داخلٌ في لباس الشهرة.

.... سُـــودَ الغَـــدَائِرِ حُمْــرَ الحَلْــيِ وَالحُلَــلِ

"**والحُلَلْ**": جمعُ حُلَّة، والحُلَّة عند جمهور أهل اللغة يطلق على ما كان قطعتين، أو ما كان جُزأين؛ كالرداء والإزار مثلًا. وقيل له حُلَّةٌ لأنَّ أحدهما يحُلُّ فوق الآخر، لهذا قيل له حلَّةٌ. فوصف في هذا البيت هؤلاء القوم بالغَيْرَة، وأنَّهم يحمون نساءهم الموصوفات بسود الغدائر وحمر الثياب والحُليّ، يحمون هؤلاء بالسلاح، بالسيوف والرماح، فهذا مدحٌ لهم، مدحٌ لرجالهم بالغَيرة، والغَيرةُ هذه من أعظم صفات الكمال الَّتي يمتدح بها الرجل.

- **الفائدة:**

ولهذا كانت من صفات الله تبارك وتعالى "لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ" [صحيح البخاري: ٤٦٣٤]، وإن من الغيرة غَيرة يحبها الله، "أتعجبون من غيرة سعدٍ، لَأنا أَغْيَرُ مِنْهُ، والله أغيرُ مِنِّي" [صحيح البخاري:٦٨٤٦].

فالغيرة على الحرمات والأعراض هذه من الصفات الكاملة التي يُمدح بها الرجال. وهكذا مدح الشاعر هنا في هذا البيت هؤلاء الرجال بهذه الغيرة على الأعراض، فهذه من الصفات الحسَنَة الَّتي يجب على المسلمين المحافظة عليها، ولا سيما في هذا الزمن الَّذي هانت فيه الأعراض وانكشفت فيه العورات واختلط فيه الحابل بالنابل.

ومدَحَ نساءهم بهذه الصفات بسوادِ الشعر وبحُمْر الثيابِ والحليّ. ولبس النساء لِلّباس الأحمر لا خلاف فيه بين الفقهاء في جوازه ومشروعيّته إلَّا روايةٌ ليسَتْ مشهورةً عن الإمام أحمد -رحمه الله-، ونحن نعرف أنَّ الشرع وسَّعَ على النساء في باب الزينة واللباس ما لم يوسّعه على الرجال؛ لحاجتهنَّ إلى الزينة.

وأمَّا لِبسُ الأحمرِ بالنسبةِ للرجال ففيه خلافٌ مشهور بين الفقهاء، أوصلها بعضُ أهلِ العلم إلى سبعة أقوالٍ، بل إلى ثمانية، والأحاديث الَّتي وردت في النهي عنها لا تَثْبت من حيث الإسناد، وأقواها حديث البخاري أنَّ النبي ﷺ نهى عن المياثر الحمر، ولكن هذا النصُّ كما يقول الشوكاني وغيره: **"هذا أخصُّ من الدعوى"**؛ لأنَّ المياثر الحمر يعني الحرير الأحمر، هذا خاصٌّ بالحرير وهو محلُّ نهيٍ بالنسبة للرجال، فليس فيه ما يدلُّ على النهي عن لبس كلِّ أحمرٍ، وخاصَّةً أنَّ الأصل في الزينة الإباحة كما نعرف، والتحريم يحتاج إلى دليلٍ واضحٍ.

وقد ثبت في صحيح البخاري عن البراءِ بن عازبٍ -رضي الله عنه- أنَّه قال: "رأيتُ النبيَّ ﷺ وعليهِ حُلَّةٌ حمراءُ ما رأيتُ أحسنَ منهُ" [البخاري: ٥٨٤٨]. أي: أحسن من رسول الله ﷺ، وهكذا ذكرها أبو جُحيفة والصحابة في بعض الأحاديث، بل في بعضها أنَّه لبس هذا في عام الوداع، بمعنى في آخر عمرهِ عليه الصلاة والسلام. فلبس الأحمر والتزيُّن به في حقِّ النساء، كما مَدحَ النساء في هذا البيت، فهذا لا بأس به من الناحية الشرعيَّة.

البيت التاسع عشر: فـسـرْ بِنا فِي ذِمَامِ الَّليْلِ مُعْتَسِفًا...فَـنَفْحَةُ الطيبِ تَهْدِينَا إِلَى الحِلَلِ

ثمَّ قال:

فـســـرْ بِنــا فِي ذِمَـامِ الَّليْـلِ مُعْتَسِــفًا   فَـــنَفْحَةُ الطـــيبِ تَهْــدِينَا إِلَى الحِلَــلِ

الشرح:

"**فـسـرْ بِنا فِي ذِمَامِ الَّليْلِ**": الذِّمَامُ والذمَّة بمعنى العهد والحُرمة والحقُّ، وإنَّما قيل له ذِمامٌ وذِمَّةٌ في لغة العرب؛ لأنَّ من ضيَّعها يستحقُّ الذمَّ، من ضيَّع العهد والحقَّ والحُرمة فإنَّه يستحقُّ الذمَّ شرعًا وعرفًا، ولهذا قيل للعهدِ والحقِّ والحُرْمة: ذمَّةٌ وذِمامٌ.

"**مُعْتَسِفًا**": من الاعتساف، وأصله: الظلم والجَوْر، اعتسف فلانٌ في كلامه أي: ظلمَ وجار، والعَسَّافُ هو الظالِمُ والجائر، ولكن المقصود هنا في هذا البيت هو السير بدون تخطيطٍ، المشي والسير بالليل بدون هدايةٍ ولا تخطيطٍ ولا رَوِيَّةٍ، بمعنى أن يمشيَ إلى أيِّ اتجاهٍ بدون أن يكون له اتجاهٌ محدَّدٌ.

"**فَنَفْحَةُ الطِّيبِ**": أي رائحتُهُ، والنَّفحة هي الرائحة، وسُمِّيت بذلك لمعنى الانتشار في دلالة الكلمة؛ لأنَّ نَفَحَ هي أصل المادَّة في فروعها، إنَّما تطلق على انتشار الشيء، فتقول: نَفَحَ الطِّيبُ. يعني انتشر، ونَفَحَتْ الريحُ يعني انتشرت؛ لكنَّها تدلُّ على معنى آخر في لغة العرب وهو الشيء القليل، فهو انتشارٌ ولكن لشيءٍ قليلٍ أو بشكلٍ يسيرٍ؛ لهذا يُقال: نَفَحَهُ بالسيف. أي: ضَرَبَهُ ضربةً خفيفةً، ومن هنا نفهم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الأنبياء: ٤٦].

لاحظ بلاغة القرآن، يشير إلى شدَّة عذاب جهنَّم وشدَّة عذاب النار يوم القيامة، وأنَّ هؤلاء الكفَّار إن مسَّتهم، لاحظ لفظ المسِّ، وهو اللمس الخفيف بأطراف الأصابع، ثمَّ قال: ﴿نَفْحَةٌ﴾. والنفحة هي الشيء اليسير، حتَّى إنَّ بنية هذه الكلمة جاءت على وزن فعلة وهي تدلُّ على المرَّة في لغة العرب، فكأنَّه يقول: لئن مسَّهم الشيء اليسير من عذاب الله؛ لصاحوا بالويل واعترفوا بالظلم.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦] فهو يشير إلى شدَّة عذاب جهنَّم، وأنَّ هذه الشدَّة كما ترون في هذه الدلالة، أنَّه قال: ﴿مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ فهناك ثلاث دلالات في هذه الآية تدلُّ على هذا المعنى وهو شدَّة عذاب جهنَّم، كلمة المسِّ، ثمَّ النفحة بجوهرها اللغويِّ، ثمَّ ببنيتها الصرفيَّة، فهذه الدلالات الثلاث تدلُّ على شدَّة عذاب جهنَّم وأنَّ الشيء اليسير منه إذا مسَّهم كمسِّ الرائحة فإنَّهم يصيحون من شدَّة الألم ويعترفون بظلمهم في هذه الحياة الدنيا.

فالأثر يُسرع إليهم وهذا من باب الجزاء من جنس العمل؛ لأنَّه لم يسرع إليهم التأثُّر بالقرآن وبالحقِّ في هذه الحياة الدنيا، فأسرع إليهم التأثُّر بالعذاب يوم القيامة. فهذا المعنى اليسير أوصله القرآن الكريم بهذا الإيجاز وهذا الاختصار في الدلالة اللغويَّة، وهذا يدلُّنا على أهمِّية فهم اللغة العربيَّة ودراستها في فهم القرآن وفي فهم معانيه، وكلَّما علا كعب الإنسان في اللغة وفهْمِها كلَّما انفتح له من معاني القرآن واتَّضح له ما لم يتَّضح لغيره من الناس.

"**فَنَفْحَةُ الطيبِ تَهْدِينَا إِلَى الحِلَلِ**": "**الحِلَلْ**" جمعُ حِلَّة وحَلَّة أيضًا بكسر الحاء وفتحها، وهي المكان الَّذي يحُلُّه الناس، الموضع الذي ينزله الناس، أو البيوت التي يجتمع فيها الناس، فهذا المكان يقال له حِلَّة وحَلَّة.

- **الفائدة:**

والشطر الأول من هذا البيت هو من باب التدبير؛ يعني إذا كان رجال الحيّ بهذه الشجاعة وهذه الغَيرة وهذه القوَّة وهذا الإتقان للرماية والحرب، فالتدبير هو أن نسير إلى هذا الحيِّ باللَّيل من باب الاستتار؛ لأنَّ النهار يكشفهم لرجال الحيِّ، فهو يُدبِّر، يعني إذا كانوا بهذه المثابة فينبغي أن نسير إلى هذا الحيّ باللّيل ليكون هذا أخفى عن العيون.

"**فَسِرْ بِنا فِي ذِمَامِ اللَّيْلِ مُعْتَسِفًا**". كأنَّه نشأ سؤالٌ في ذهن السامع، وهو إذا سرنا باللَّيل في ظلمات اللَّيل فكيف سنهتدي إلى هذا الحيّ وإلى هذه البيوت والظلامُ دامسٌ؟

فقال له: "**مُعْتَسِفًا فَنَفْحَةُ الطيبِ تهدينا إلى الحِلَلِ**". يعني سرْ في أيّ طريقٍ تريد بدون تخطيطٍ ولا هدايةٍ؛ لأنَّك ستعرف هذا الحيَّ وستصل إليه من طيب الرائحةِ لهذا الحيّ، لهذا البطن من القبيلة، ستهتدي إلى ديارهم وإلى بيوتهم ولن تضِلَّ حتى ولو سرت باللَّيل، كما قال ذلك الشاعر: "**فَقُلْ لَهُ: يَمْشِي وَيَسْتَنْشِقُ**".

لما جاءه أحدٌ يسأل عن منزل فُلانٍ:

فسرْ بِنا فِي ذِمَامِ اللَّيْلِ مُعْتَسِفًا   فَقُلْ لَهُ: يَمْشِي وَيَسْتَنْشِقُ

يعني قل له ما أحتاج أن أُعطيَكَ العنوان، ولكن استنشق وامش في الطريق فأينما وجدت رائحةً طيِّبةً فثمَّ ديارهم ومكانهم.

البيت العشرون: فَالحِبُّ حَيثُ العِدَى والأُسْدُ رَابِضَةٌ...حَـوْلَ الكِنَاسِ لَهَا غَابٌ مِنَ الأَسَلِ

فَالحِبُّ حَيثُ العِدَى والأُسْدُ رَابِضَةٌ   حَوْلَ الكِنَاسِ لَهَا غَابٌ مِنَ الأَسَلِ

الشرح:

"**فَالحِبُّ**": الفاء هنا تعليليَّة لما سبق، يعني لماذا هذا الحرص وهذا التدبير والسير بالليل؟ قال: "**فالحِبُّ حيثُ العِدَى**". مثل: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: ٧٧]، يعني فاخرج منها لأنَّك رجيمٌ، فكذلك هنا كأنَّه يقول: "**فَسِرْ فِي ذِمَامِ اللَّيْلِ مُعْتَسِفًا**". لماذا؟ لأنَّ الحِبَّ حيثُ العِدَى والأُسْدُ رابضَةٌ.

فالحِبُّ هو الحبيب والمحبوب، ومنه قيل لأسامة بن زيد بن حارثة الكلبي –رضي الله عنه–: الحِبُّ بن الحِبِّ، وكان نقشهُ في خاتمهِ: حِبُّ رسول الله ﷺ، كان يفتخر بهذا اللَّقب الَّذي لقَّبه الصحابة، الحِبُّ بن الحِبِّ، يعني الحبيب

بن الحبيب؛ لأنَّ أباه زيد بن حارثة كان من أحبِّ الناس إلى رسول الله ﷺ، وأسامة مولى رسول الله ﷺ وابن مولى رسول الله ﷺ وابن مولاة رسول الله ﷺ أمُّ أيمن رضي الله عنها، فالحِبُّ بمعنى: الحبيب.

"**حيثُ**" هنا ظرف مكانٍ، فالحِبُّ يقيم في هذا المكان، حيثُ العِدَى أي: حيث الأعداء، جمعُ كثرةٍ كما قال سيبويه -رحمه الله-.

"**والأُسْدُ رابضةٌ**". رابضة من الرَبَضْ وهو النزول في المكان والجلوسُ فيه والاستقرار فيه، لكنَّه يستعمل في السِّباع وفي ذوات الحافر في لغة العرب، يعني لا يقال في الإبل مثلًا: رَبَضَتْ الإبل.

لكن يقال: رَبَضَ الأسد. لأنَّه من ذوات السباع، وكذلك من ذوات الحافر أيضًا، يطلق على الخيل أيضًا والشاة أحيانًا، ومنهُ الرابِضَة وهو راعي الربض الَّذي يرعى الغنم، ومنه جاء الحديث "**الرُّويبضة**" وهو تصغير الرابضة، يعني يشير إلى أنَّه رجلٌ فيه أعرابيَّةٌ، فيه جهلُ الأعراب، فهو إنسانٌ جاهلٌ، ولكن مع هذا يتحدَّث في أمر العامَّة!

يعني هو أعرابيٌّ فيه أخلاق الأعراب وجهل الأعراب، ولكنَّه يتكلَّم في عظائم الأمور وقضايا الأمَّة الكبيرة وهو ليس عنده من العلم والعقل والحكمة ما يدير به نفسه وأسرته فضلًا عن أن يوجِّه الأمَّة كلَّها! فالرَبَض في الأصل هو الاستقرار في المكان والبقاء فيه، ومنه قيل: **الأُسْدُ رابضَةٌ**. بمعنى أنَّها استقرَّت في هذا المكان ونزلت فيه أو قعدت فيه أو جلست فيه.

"**حَوْلَ الكِنَاسِ لَهَا غَابٌ مِنَ الأَسَلِ**"، الكناس هو مكانُ الظبي والبقر الوحشيَّة الَّذي تستتر فيه وترجع إليه، لها مكانٌ محدَّدٌ كلَّما أرادت أن تستريح أو خافت من شيءٍ رجعت إليه واستترت به، إمَّا تحت شجرةٍ وإمَّا في غار جبلٍ أو نحو ذلك، فهذا الموضع يقال له الكِناس، ومنه الآية الكريمة: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦﴾ [التكوير: ١٥-١٦].

- **الفائدة:**

فالخَنَسْ هنا بمعنى الرجوع، والكَنَسْ بمعنى الغياب والاختفاء، فالله سبحانه وتعالى يقسم في هذه الآية -عند جمهور أهل العلم- بالكواكب والنجوم الَّتي تظهر وتختفي وتجري ثمَّ ترجع، فأقسم بها على هذا المعنى الَّذي ذكره الله سبحانه وتعالى في الآية، وإن كان بعض العلماء كابن جرير -شيخ المفسِّرين رحمه الله- يفسِّرُ هذا الآية عامَّةً، ليست خاصَّةً بالنجوم، وإنَّما يقول: كلّ ما وُجِدَت فيهِ هذه الصفة من مخلوقات الله ﷻ وهي صفة الخَنَسْ وَالكَنَسْ، يعني الجريان والاختفاء والذهاب والرجوع.

فقال: فيشمل هذا النجوم والكواكب، ويشملُ الظباء والبقر والحيوانات أيضًا، وكلُّ ما يتحقَّق فيه هذا الوصف فيكون داخلًا في هذه الآية الكريمة، ومُقسمًا به في الآية.

فالخُلاصة أنَّ الكِناس: موضع الظبي أو البقر الوحشيَّة الَّذي ترجع إليه وتختفي فيه، وسمّي كذلك لمعنى الاستتار والاختفاء فيه؛ لأنَّها تختفي فيه وترجع إليهِ عندما تخاف من عدوٍّ أو تطلب الراحة بعد جهدٍ وتعبٍ.

"**من الأَسَل**" الأسل هي الرماح، فهو يعلِّل السير في ذمام الليل مختفيًا؛ بأنَّ المحبوب في موضعٍ محوطٍ بالأعداء، ثمَّ شبَّهَ محبوبَه بالظبي في الكِنَاس الَّذي تحيطُ بهِ الأُسْد الرابضة، والمقصود من هذا كلِّه هو الإشارة إلى صعوبة تحقيق هذا المراد وصعوبة الوصول إلى المحبوب بسبب هذه الموانع الكثيرة.

كما قال العبَّاس بن الأحنف:

هِـيَ الشَـمسُ مَسـكَنُها في السَـماءِ	**فَـعَـزِّ الـفُؤادَ عَـزاءً جَـمـيلا**
فَـلَن تَـسـتَطيعَ إِلَيـها الصُـعود	**وَلَـن تَـسـتَطيعَ إِلَـيـكَ النُـزولا**

يعني لا تستطيع أنت الصعود إلى الشمس ولا هي ستنزل إلى الأرض.

البيت الحادي والعشرون: نَؤُمُّ ناشـئةً بالجِزعِ قد سُقيت...نِصَـالُهَا بِمِيَاهِ الغُنْـجِ والكَحَلِ

نَـؤُمُّ ناشـئةً بالجِـزعِ قـد سُقـيت	**نِصَـالُهَا بِمِيَـاهِ الغُنْـجِ والكَحَـلِ**

الشرح:

"**نؤُمُّ**": يعني نقصد، أمَّه بمعنى قَصَدَه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، يعني لا تستحلُّوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام، فالأَمُّ بمعنى القصدُ.

"**نَاشِئَةً بالجِزعِ**" ناشئةً يعني فتاةً أو امرأةً ناشئةً، فحذفَ الموصوف واكتفى بذكر الصفة، ﴿ثم يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾[النساء: ١١٢]، يعني شخصًا بريئًا أو إنسانًا بريئًا، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه. كذلك هنا ناشئةً يعني امرأةً ناشئةً، يعني حديثة السنِّ، يقال: فلانٌ ناشئٌ أو شابٌّ ناشئٌ، يعني حديثُ السنِّ؛ لأنَّه في بداية النشأة وهو آخذٌ في الازدياد والارتفاع، ومنه ناشئةُ السحاب لأنَّها ترتفع للأعلى ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا

وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل: ٦] كذلك، سواءٌ قلنا: الناشئة هي الساعات أو هي النفس الناشئة بالليلِ، بمعنى الَّتي تنهض وترتفع وتترك الفراش والنوم لتتَّجه إلى عبادة الله تبارك وتعالى، يعني فيها إشارةٌ وتعبيرٌ دقيقٌ للصورة؛ لأنَّ الإنسان إذا كان نائمًا لا ينهض مباشرةً إلى قيام الليل هكذا دَفعةً واحدةً، ولكنَّه يفتح عينيه أوَّلًا، ثمَّ يطرد النعاس عن عينيه، ثمَّ يجلس قليلًا، ثمَّ ينهض متثاقلًا، ثمَّ يذهب إلى الوضوء، ثمَّ يقوم إلى الصلاة، فهي تشير إلى هذا التدرُّج؛ لأنَّ التنشئة هي كلمة في لغة العرب تدلُّ على التدرُّج في الشيء، أنَّك تُرِبِّي الشيء شيئًا فشيئًا، فهذا التعبير القرآني يشير إلى هذا ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل: ٦].

"**الجزع**" منعطف الوادي أو وسطه، العرب يطلقونه على وسط الوادي أو على منعطفه، يطلق على هذا وعلى هذا.

"**قد سقيت نِصالُها**" نصالها يعني أطرافها.

"**بمياهِ الغُنْجِ**" الغُنجُ أو الغَنجُ هو الدلال والتكسُّر، يُقال فتاةٌ غَنجٌ أو فيها غَنَجٌ أو فيها غُنْجٌ بمعنى فيها دلالٌ وتكسُّرٌ، وهذا ممَّا تَمدح العرب به المرأة، ولا تُمدح المرأة بالصرامة والحزم، وإنَّما تُمدح المرأة بالدلال والنعومة واللَّطافة.

"**الكَحَلِ**" الكحل هو سواد الأجفان خلقةً وطبيعةً، يعني ليس بالاكتساب والفعل، لكنَّه وصفٌ، الكَحَل في الإنسان هو أمرٌ طبيعيٌّ ليس أمرًا مكتسبًا، لهذا إذا مدحوا الرجل يقولون رجلٌ كحيلٌ وامرأةٌ كحلاءُ، بمعنى أنَّه يتَّصف بالكَحَل -الَّذي هو سواد الأجفان- خِلقةً وطبيعةً وليس فعلًا باستعمال الكُحل، لهذا قال الشاعر المتنبِّي: "**ليس التكحُّل في العينين كالكَحَلِ**". التكحُّل هو فعل، يعني اكتساب الكُحْل واستعماله، وأمَّا الكَحَلُ فهو أمرٌ طبيعيٌّ.

فالمرأة تُمدح بهذا، "**كأنَّ بها كُحْلًا ولم تَكَحَّلِ**" كما قال الأوَّل.

- **الفائدة:**

وهذا من صفات المها أو الظبي عندما تتأمَّلون فيها هذا السواد حول العين، كما قال الشاعر: "**إنَّ المها لم تكتحل بالإِثْمِدَ**". فهذه الصفة وهي السواد حول العين ممَّا يُمدح به الإنسان إذا كان خِلقةً وطبيعةً "**ليس التكحُّل في العينين كالكحل**". فهنا يصف هذه المرأة ويمدحها بالحسن والجمال، وأنَّ محبوبه بهذه الصفة، وأنَّها تمتاز بالحسن والدلال، وأنَّها حديثة السن.

البيت الثاني والعشرون: قدْ زادَ طِيبَ أَحَادِيثِ الكِرَامِ بِهَا...مَا بِالكَرَائِمِ مِنْ جُبْنٍ ...

قَدْ زادَ طِيبَ أَحَادِيثِ الكِرَامِ بِهَا مَا بِالكَرَائِمِ مِنْ جُبْنٍ وَمِنْ بَخَلِ

الشرح:

"**الكِرامِ**": جمع كريمٍ، و"**الكرائم**" جمع كريمةٍ، والكريم مِنْ كُلِّ شيءٍ خِيارُهُ، لهذا قيل: الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب. فالكريم والكريمة: من كلِّ شيءٍ خياره وأحسنه وأفضله.

"**أحاديثِ الكرامِ بها**". بها يعني عنها، الباء هنا للمجاوزة هي بمعنى عن، كما قال الله تعالى: ﴿فَسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]. يعني فأسأل عنه خبيرًا، فالباء تأتي بمعنى المجاوزة وتكون مثل (عن) في إفادة هذا المعنى.

"**مَا بِالكَرَائِمِ من جُبنٍ ومن بَخَلِ**" الجُبن هو الخوف والجزع. والبُخْلُ هو المنعُ وترك العطاء.

- **الفائدة:**

هو أنَّ الكرام عندما يتحدَّثون عن هذه المرأة الفاضلة الحسناء فيزيد كلامهم حُسنًا هاتان الصفتان، الجُبنُ والبُخلْ. يعني ممَّا يزيد حديث الكرام عنها طيبًا وحلاوةً أنَّهم يتحدَّثون عن جبنها وبخلها، وهذا مذهبٌ لبعض العرب أنَّهم يمدحون المرأة بالبُخل وبالجُبن، قالوا: لأنَّها لو كانت كريمةً لضيَّعت مالها ومال زوجها، ولو كانت شجاعةً وجريئةً لوقعت في القبائح. فالأحسن عندهم في المرأة أن تكون جبانةً بخيلةً!

ولكن هذا من مدح ما ذمَّ الله، فإذا نظرنا إلى الجبن وإلى البخل في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ لا نجدهما إلَّا مذمومين، ولم يذكرهما الله ورسوله ﷺ إلَّا في سياق الذمِّ، والنصوص الواردة عامَّة في الرجال وفي النِّساء، بل إنَّ النبيَّ ﷺ خاطب المرأة، خاطب أسماء بنت أبي بكرٍ رضي الله عنها، لما قالت: يا رسول الله لا أجد في بيت الزبير إلَّا ما أعطاني الزبير، أفأُنفق، أفأُعطي؟ يعني هل يجوز لي أن أُعْطي من مال الزبير في البيت فأتصدَّق به، وأَجُود به على الناس؟ فقال عليه الصلاة والسلام لها: "لَا تُوكِي فَيوكَى عَلَيْكِ" [صحيح البخاري: ١٤٣٣]. وفي روايةٍ "فَيُوكِي الله عليك".

لا توكي يعني لا تمنعي، لا تدَّخري، ولكن أنفقي، في الرواية الأخرى: "لَا تُحْصِي فَيُحْصِي الله عليك" [صحيح البخاري: ٢٥٩١]. يعني أنفقي ولا تحصي، وأخذت بهذا أسماء وكانت معروفةً بالجود والكرم، وكانت تنهى جاريتها عن الادِّخار إلى غدٍ، تأتي الجارية تقول: نرفع هذا الطعام إلى غدٍ. كانت تنهاها عن ذلك، ولا تشرق عليها شمس اليوم الثاني وعندها شيءٌ في دارها عملًا بقول رسول الله ﷺ: "لَا تُوكِي فَيُوكَى عَلَيْكِ" .

بل كانت مع ذلك امرأةً معروفةً بالشجاعة أيضًا، ومُدحت بذلك في سيرتها رضي الله عنها، وهي الَّتي واجهت الحجَّاج بن يوسف الثقفي الظالم، وقالت له مواجهةً هكذا: "لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: يَخْرُجُ مِنْ ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ، أَمَّا الكَذَّابُ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ -يعني المختار الثقفي- وأمَّا المبِيرُ فَهْوَ أَنْتَ" [صحيح مسلم: ٢٥٤٥].

تواجهه بهذا الكلام وهي امرأةٌ قاربت المائة، وتواجه بهذا الكلام أشهر الناس ظلمًا وسفكًا للدِّماء في زمانه! ولما جاءت إليه وقال لها: يا أُمَّاه أَوْمُريني! فقالت له: "**لست لك بأمٍّ، إنَّما أنا أمُّ هذا الأسد الَّذي علَّقْته**". تقصد ابنها عبد الله بن الزبير، فهذه شجاعةٌ وقد مُدحت بذلك.

فالمرأة كانت تمدح أيضًا في عهد النبيّ ﷺ بالشجاعة وبالجود والكرم وقال ﷺ لنسائه لما سألنه عن أسرعِهِنَّ لُحوقًا، قال: "أَطْوَلُكُنَّ يَدًا". وفي روايةٍ قال: "خَيْرُكُنَّ أَطْوَلُكُنَّ يَدًا". وكانت زينب بنت جحشٍ وقيل سودةُ، لماذا؟ لأنَّهنَّ كُنَّ معروفاتٍ بكثرة الإنفاق والصدقة والإحسان إلى الناس، وزينب كانت امرأةً صاحبة صنعةٍ، يعني عندها مهاراتٌ، تخيط وتصنع ثمَّ تتصدَّقُ وتبيع.

فالمدح الَّذي جاء في وحي الله ﷻ للشجاعة والجود والكرم ليس خاصًّا بالرجال، بل هو عامٌّ في الرجال والنساء، لكن لعلَّ الشاعر أراد بالبخل هنا، هو البخل عن بذل النفس للغرباء، البخل عن إبراز محاسنها للغرباء وبذلِ نفسها للغرباء، وهذا ممَّا تُمدح به المرأة لأنَّه عِفَّةٌ، من العفَّة الَّتي تُمدح بها المرأة، وعكسها تُذمُّ به المرأة، ولهذا قال: إنَّها لا تردُّ يد لامسٍ، على أحد التفسيرين. فلعلَّه أراد بالبخل هذا، وأراد بالجبن الحياء وعدم الجرأة في فعل الأشياء، فالمرأة إذا كانت حييَّةً فإنَّها تَجبن عن فعل بعض الأشياء بسبب حيائها، والحياء ممَّا يمدح به الإنسان سواءٌ كان رَجُلًا أو امرأةً.

البيت الثالث والعشرون: تَبِيتُ نَارُ الهَوَى مِنْهُنَّ فِي كَبِدٍ...حَرَّى وَنَارُ القِرى مِنْهم...

تَبِيـــتُ نـــارُ الهَـــوَى مِنْـــهُنَّ فِي كَبِـدٍ حَــرَّى وَنَارُ القِــرى مِــنْهم عَلَــى القُلَــلِ

الشرح:

"**تبيتُ**": البيات هو المكوث بالليل، ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧]. فالمكوث بالليل يقال له: بياتٌ. ولهذا جُمع في الآية الأخرى مع القيلولة ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤]. وخصَّ البيات والقيلولة لأنَّها محلُّ الغفلة عادةً، وأنَّ الإنسان يكون غافلًا في هذه الأوقات من الطوارق.

"**الهَوى**": بمعنى: الحبُّ.

"**منهنَّ**": هذا يعود إلى نساء الحيِّ.

"**في كبدٍ حرَّى**": حرَّى من الحرارة وشدَّة الشوق.

"**ونارُ القِرى**": القِرى بمعنى الضيافة، ما يُقدَّم للضيف يقال له: القِرى.

"**منهم**": يعني من رجال الحيِّ، هناك منهنَّ للنِّساء وهنا الضمير يعود إلى الرجال.

"**على القُلَلِ**": القُلل جمع قُلَّةٍ وهو الشيء المرتفع كرأس الجبل، وقد يقال له: قُنَّةٌ بالنون أيضًا. فالقُلَّة هي الأشياء المرتفعة، كلُّ شيءٍ مرتفعٍ يقال له قُلَّةٌ كرأس الجبل.

- **الفائدة:**

فالشاعر في هذا البيت يمدح نساء هذا الحيِّ ورجالهم أيضًا، يمدحهم بأنَّ لهم نارين، نارُ الهوى في قلوبهم، الَّذي يتعلَّق بهؤلاء النساء، ونارُ القِرى، يعني نار الضيافة، ووصف الرجال بذلك لأنَّ الرجال هم الَّذين يستقبلون الضيف، وهم الَّذين يُرحِّبون به، وهم الَّذين يُقدِّمون له القِرى، فمدح نساءهم بالحسن والجمال بحيث تتعلَّق بهنَّ نار الهوى، ومدح رجالهم أيضًا بالكرم والجود وأنَّ نار القِرى منهم على القُلل، يعني هذه مبالغةٌ في جودهم وكرمهم؛ لأنَّ البخيل إذا أراد أن يوقد نارًا بالليل يبحث عن الأماكن المنخفضة حتَّى لا يراها الناس، أمَّا الكريم الجواد الَّذي يريد من الناس أن يروا هذه النار ويستدلُّوا بها على المكان وعلى بيته فيوقد النار في الأماكن المرتفعة في القُلل على رؤوس الجبال، حتَّى يراها السائرون والمسافرون وأبناء السبيل، فيأتون إليه ليقدِّم لهم الضيافة والكرم، فهذه مبالغةٌ في وصف هؤلاء بالجود والكرم.

البيت الرابع والعشرون: يَقْتُلْنَ أَنْضَاءَ حُبٍّ لا حِراك بهِ...وَيَنْـحَرُونَ كِـرَامَ الخَيْلِ والإِبِلِ

يَقْــتُلْنَ أَنْضَــاءَ حُــبٍّ لا حِــراك بــهِ وَيَنْـــحَرُونَ كِـــرَامَ الـــخَيْلِ والإِبِـــلِ

الشرح:

"**أَنْضَاءَ حُبٍّ**" أنضاءَ: جمع نِضْوٌ، وقد عرفنا النِّضْوَ سابقًا وهو: الهزيل، ويطلق غالبًا على الإبل، وهنا أُريدَ بهِ الرجال، "**يَقْتُلْنَ أنضاءَ حُبٍّ**" أي: بسبب الحبِّ، فهو يصف رجالهم بأنَّ الحبَّ أثَّرَ فيهم

حتَّى أصيبوا بالهزال، بالنحافة، وذهبت منهم الصحة.

"**لا حِراك بهِ**" يعني حتَّى يظلَّ كالميِّت الَّذي لا حِراك به بسبب حسنهنَّ وحُسنِ شمائلهنَّ وطبائعهنَّ.

"**وينحرونَ كِرام الخيلِ والإبلِ**" ينحرون: من النحر، والأصل في النحر في لغة العرب هو: ضربُ المِنحر، أو ثُغرة النحر من الإبل والخيل، ثُغرة النحر منطقةٌ ضعيفةٌ هكذا تكون في أعلى الصدر؛ ولهذا النحر يطلق على الصدر أيضًا، فيضرب هذا الموطئ، ثُغرة النحر من الإبل أو الخيل بالطعن هكذا، هذا يسمَّى بالنحر، والإبل قيامٌ، وأمَّا الذبح فهو معروفٌ لكنَّه يختصُّ في الأصل في لغة العرب بالبقر والغنم، فالبقر والغنم تُذبح، والإبل والخيل تُنحر، ولهذا جاء في القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]. لكن أحيانًا يأتي في اللُّغة توسُّعٌ فيتوسَّعون ويطلقون النحر على الذبح والذبح على النحر من باب التوسُّع في الدلالة ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]. النحر هنا يشمل الذبح أيضًا وليس خاصًّا بالإبل.

- **الفائدة:**

فيقول الشاعر: "**وينحرونَ كِرام الخيلِ والإبلِ**" يعني يمدح أيضًا نساءهم ورجالهم، يمدح نساءهم بالحُسنِ والجمال بحيث يصيبون الناظر بالهوى والعشق –نعوذ بالله منه ومن دائه– ويَنْحرونَ كِرَام الخيل والإبِل، يعني يَمْدَح رجال هذه القبيلة بأنَّهم كرامٌ لدرجة أنَّهم لا يُضَيِّفونَ الناس على الشاة والضأن ولكن على الإبل والخيل، وليس فقط على أيِّ إبلٍ وأيِّ خيلٍ، لكن على كرامِ الخيلِ والإبلِ، فهذه من باب المبالغة والإشارة إلى منتهى الجود والكرم الَّذي اتَّصف به هؤلاء.

البيت الخامس والعشرون: يُشْفَى لَـديغُ الـعَوَالِي فِي بِيُوتِهِمُ...بِنَـهْلَةٍ مِنْ غَدِيرِ الخَمْرِ...

يُشْفَـــى لَـــدِيغُ الـــعَوَالِي فِي بِيُـــوتِهِمُ   بِنَـــهْلَةٍ مِـــنْ غَـــدِيرِ الخَمْـــرِ والعَسَـــلِ

الشرح:

"**يُشفى لديغ**": اللديغ هو الملدوغ، فَعِيلٌ بمعنى مفعولٌ، وهو الَّذي لدغته العقرب أو الحيَّة، يقال له: لديغٌ.

"**العوالي**": هي: الرماح، وقيل بأنَّها موضعٌ مرتفعٌ، لكن الأقرب هنا إلى المعنى أن العوالي بمعنى: الرماح.

"**بنهلة**": أي بِشَرْبةٍ.

"**غديرِ**": الغدير هو الماء المتبقِّي بعد السيل. السيل عندما يمرُّ ويذهب، وتبقى بعض مُجْتَمعات الماء الصغيرة، فهذه المجتمعات الصغيرة للماء يقال لها: غديرٌ. وقيل لها: غديرٌ. لأنَّ السيل غادرها، يعني تركها.

"**غديرِ الخمرِ والعسلِ**" الخمر والعسل معروفٌ.

- **الفائدة:**

فيمدح هؤلاء في هذا البيت بأنَّ لديغَ العوالي، يعني جريح الرماح الَّذي أصابته الرماح وأصابته السيوف في الحرب، يُشفى بشَربةٍ من غدير الخمر والعسلِ، يعني: ممَّا عندهم من الخمر والعسل.

وهذا إمَّا أن يكون من باب الحقيقة أو من باب الكناية، **فإذا كان من باب الحقيقة فالعسل شفاءٌ كما أخبر القرآن الكريم:** ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

وثبتَ بالتجربة أنَّها شفاءٌ حتَّى في الجراحات الظاهرة على الجسم، يعني صبُّ العسل هذا أحسن من الأدوية الكيميائيَّة في علاج حتَّى الجروح الظاهرة على الجلد، وهو مطهِّرٌ جيِّدٌ وتلتئم به الجروح، ووجدوا بالدراسة العلميَّة أنَّ أقوى ميكروب لا يبقى أكثر من خمس ساعاتٍ داخل العسل إلَّا ويقضي عليه العسل، ففيه شفاءٌ للناس كما أخبر الله سبحانه وتعالى.

وإذا كان يقصد بالخمر المعنى الحقيقي وهو الشراب الَّذي يُسكِر، فيقصد هذا من باب التداوي بالخمر لأنَّهُ جريحٌ يحتاج إلى الدواء، والتداوي بالخمر قال به بعض الفقهاء واشترطوا في ذلك شروطًا؛ أن تكون ممتزجةً يعني ممزوجةً بغيرها، وألَّا تُسكر، وأن يتحقَّق نفعها ويتثبُت.

ولكن جمهور الفقهاء على عدم جواز التداوي بالخمر بناءً على قوله ﷺ: "إنَّ اللهَ لم يجعلْ شفاءَكم فيما حَرَّم عليكم" .وقال له بعض الصحابة: إنِّي أصنعُ منها دواءً. فقال: "إنَّها داءٌ وليست دواءً".

وهذا مذهب جماهير الفقهاء رحمهم الله. وإمَّا أن يكون هذا –كما قلت– من بابِ الكناية، ويقصِد بالخمر والعسل: ريقَ هؤلاء النساء، فوصفَ ريقهنَّ بهذه الصفة تشبيهًا لأثرها فيهم بأثر الخمر.

البيت السادس والعشرون: لـعلَّ إلْـمَامَةً بِالجَزْعِ ثَانِيةً يَدِبُّ...مِنْـها نَسِيمُ البُــرْءِ...

لــعلَّ إِلْمَــامَةً بِالجَــزْعِ ثَانِيــةً يَــدِبُّ   مِنْــها نَسِـيمُ البُـــرْءِ فــي عِـلَـــلِ

الشرح:

"**لعلَّ**": هذا لفظٌ يفيد ترجِّي وتوقُّع حصول الشيء، وهو يشير بهذا إلى الهدف من كلِّ هذا الاقتحام

للحيِّ وهذه الحملة وهذا التدبير، يعني المقصود من وراء كلِّ ذلك أنَّه يقول: إنِّي مريضٌ بالهوى ومريضٌ بهذهِ الأشواق الَّتي عانيتُ منها وأريدُ أن أُداويها.

فيقول: "**لعلَّ إلمامةً**": الإلمامة هي الزيارة والمرور بالشيء، ولكن دون إطالةٍ. ألمَّ به أي: مرَّ بهِ ونزَلَ في المكان، ولكنَّهُ لم يطل المكث في هذا المكان، فالإلمامة إنَّما تطلق على النزول العابر أو الجلوس غير الطويل في المكان.

لعلَّ إلمامةً أي: زيارةً يسيرةً من هذا القبيل، "**بالجزِع ثانية**" الجزِع كما عرفنا سابقًا هو وسط الوادي أو منعطفه.

"**ثانيةً**": أي مرَّة ثانيةً.

"**يَدِبُّ منها**" أي يمشي فيها، والدبيب هو المشي الخفيف الَّذي لا يَكاد يُحسُّ به.

"**نسيمُ البُرْءِ**" النسيم هو: الهواء العليل، والريح الطيِّبة يقال لها نسيمٌ في لغة العرب. نسيمُ البُرْءِ أي: شفاءٌ.

"**في عِلَلِ**" أي في أمراضي؛ لأنَّ العلَّة هي المرض.

- **الفائدة:**

فهو في هذا البيت يبدي العُذر ويبدي الجواب عن كلِّ ما سبق من التدبير والتفصيل، وأنَّ العذر في ذلك أنِّي أُريد شفاءَ قلبي من هذه الأمراض وهذه العلل.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يحفظنا جميعًا من سائر العلل وخاصَّةً علَّة الهوى، فمن هوى فقد هوى.

أكتفي بهذا القدر ونكمل اللقاء القادم، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

المحاضرة الخامسة:

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، أحمدك ربي حمد الشاكرين، وأصلِّي وأسلِّم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم أصلح لنا نياتنا وذرياتنا، وأحسن ختامنا يا أرحم الراحمين، اللهم إنا نسألك علمًا نافعًا وعملًا صالحًا متقبلًا، اللهم طهر قلوبنا من النفاق، وأعمالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة، واجعلنا من عبادك الراشدين. أما بعد:

أيها الإخوة، نواصل ما توقفنا عنده من لامية العجم لأبي إسماعيل الطُّغرائي -رحمه الله تعالى-.

يقول -عليه رحمة الله-:

لـعـــلَّ إلـمـــامةً بالـجـــزِع ثانيـــةً ... يـــدِبُّ منـــها نـــسيمُ الـبُرْءِ في عِلَلِـــي

لا أكـرهُ الطعنـةَ الـنجلاءَ قـد شُـفِعَتْ ... برشـــقةٍ مـــن نِـــبالِ الأعـــيُنِ النُّجُـلِ

ولا أهـــابُ الصِّـــفاح البِـــيض تُسـعِدُني ... باللمــحِ مــن خَلــل الأســتار والكــلَلِ

ولا أخِـــلُّ بغِـــزلان أغـازِلُـهـــا ... حـــبُّ الســـلامةِ يَثْـــني هـــمَّ صاحِـــبه

فـإن جـــنحتَ إليـــه فاتَّخِـــذْ نَفَـــقًا ... ودَعْ غـــمارَ العُلـــى للمُقـــدِمين علـــى

ولـــو دهـتـــني أسُـــودُ الغِيــل بالغيَــلِ ... عـــن الـــمعالي ويُغـــرِي المــرءَ بالكَســـلِ

في الأرضِ أو سُـــلَّمًا في الجـــوِ فـــاعتزلِ ... ركوبِهـــا واقتـــنِعْ مـــنـــهن بالبَـــلَـــلِ

البيت السادس والعشرون: لعلَّ إلمامةً بالجزِع ثانيةً .. يدِبُّ منها نسيمُ البُرْءِ في عِلَلِ

لـعـــلَّ إلـمـــامةً بالـجـــزِع ثانيـــةً ... يـــدِبُّ منـــها نـــسيمُ الـبُرْءِ في عِلَـــلِ

الشرح:

يقول -رحمه الله-: **"لعلَّ إلمامةً بالجزِع ثانيةً"**. لعلَّ، هذه الكلمة تدل في لغة العرب على الترجي وتوقُّع حصول الشيء، ولكن دون الجزم بحصول هذا الفعل، وهذا معنى قول الإمام الجوهري -رحمه الله- في (الصِّحاح) عن كلمة "**لعل**"، يقول: "لعل: كلمة شك" يقصد بكلمة شك: أنها تفيد توقع حصول الشيء، ولكن دون الجزم به، أي: لا تجزم بحصوله، قد يحصل وقد لا يحصل.

وبعض العلماء يستثني من هذا **كلمة "لعل" و"عسى" ونحوهما من الكلمات إذا جاءت في كلام الله تعالى، فيقولون: إذا جاءت في كلام الله تعالى؛ فإنها تفيد التحقيق أو التحقق**.

ولهذا قال عبد الله بن عباس -رحمه الله ورضي عنه-: **"عسى من الله واجب"**. بمعنى: أن هذه الكلمات التي تفيد توقع حصول الشيء إذا جاءت في كلام الله تعالى فهي تفيد التحقيق؛ لأن الكريم إذا أمَّل الناسَ شيئًا، فحقُّه أن يتم ذلك، فهو كالوعد في حقه، ووعد الحُر -كما يقولون- دَينٌ عليه، أي: لا بد أن يوفِّيه.

فـ"عسى" من الله واجب، كما في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. "**عسى**" هنا ليست للترجي الذي يمكن أن يقع ويمكن ألَّا يقع، وإنما للتحقيق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ [المائدة: ٥٢] وقد جاء الله سبحانه وتعالى بالفتح، وكما في قوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فالتائب إلى الله سبحانه وتعالى إذا كان صادقًا في توبته، وكانت توبته نصوحًا، وتوافرت فيها الشروط الشرعية؛ فإن الفلاح أمرٌ متحققٌ بالنسبة لهذا العمل.

فالخلاصة: أن بعض العلماء يقول: **يُستثنى من ذلك ما لو جاء في كلام الله. وهذا في الحقيقة ليس استثناءً بناء على أساسٍ لغوي، ولكنه استثناء بناء على معنى شرعي جاء به الشرع**، وإلا فهي في اللغة بمعنى الترجي، لكن جاءت في كلام الله تعالى تفيد التحقق، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى يستعمل هذه الكلمات بناءً على عُرف العرب في كلامها، وأنها تعبر بهذه الكلمات عن هذه المعاني.

والنكتة في ذلك: أن يكون الإنسان في رجاء وخوف؛ أي المعنى الذي من أجله جاءت هذه الكلمات حتى في المعاني المحققة التي ستقع بوعد الله سبحانه وتعالى، لكن النكتة البلاغية فيها أن يظل الإنسان المؤمن على شفقة، وعلى رجاء، وعلى خوف من الله سبحانه تعالى، حتى وإن وعده الله سبحانه وتعالى بذلك الأمر.

فأصل هذا المعنى وهو: أن هذه الكلمات إذا جاءت في موعود الله تعالى فإنها متحققة؛ فهذه كلمة صحيحة، ولكن بناء على معنى شرعي، وليس بناء على استثناء في اللغة، وإلا فاللغة المعنى واحد أن "لعل" هي للترجي وتوقع الحصول للشيء، لكن لما نظرنا في الشرع وجدنا أن الشرع يدل على أن هذه المعاني إذا عُلِّق عليها وعد الله تبارك وتعالى فإنه يفيد التحقيق.

كما في قصة أبي لبابة -رضي الله تعالى عنه- لما ربط نفسه في سارية المسجد، ثم نزل قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]

النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية قام فحل رباطه وأطلقه، فحمله على قبول التوبة من الله سبحانه وتعالى مع أنها جاءت بكلمة "عسى"، والمعنى -كما ذكرت- من الناحية الشرعية هو: أن الكريم إذا أطمع غيره بشيء، فإنه لا يقطع مطمعه بشيء من الفعال والكلام، ولكن يفي بوعده هذا ويجعل الآخرين يتعلقون بهذا المعنى الذي أشار إليه.

ولكن كما ذكرت هذا جارٍ على أسلوب العرب في التعبير والبيان أنهم يستخدمون هذه الكلمات التي تفيد هذا المعنى، أي: لما يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] "لعله" أي: يمكن أن يقع ويمكن ألّا يقع في حق الخلق، ولكن الله سبحانه وتعالى هو يعلم حقيقةً أن فرعون لن يؤمن، ولن يتذكر، ولن يخشع، ولكن الكلام إنما خرج على سَنَنِ العرب في بيانها وفي لغتها، وأنها تعبر بهذه المعاني لإفادة الترجي وحصول الشيء.

فهنا يقول: **"لعلَّ إلمامةً بالجِزعِ"**. والإلمامة والإلمام هي: الزيارة العارضة التي تأتي حينًا بعد حين أو وقتًا بعد وقت. وهي عارضة بمعنى: أن صاحبها لا يطيل المكوث والمقام، فيقال: "ألمّ به". أي: مر به وجلس عنده جلوسًا خفيفًا لم يطل المقام فيه، فالإلمامة في لغة العرب تدل على هذه الزيارة العابرة والسريعة والخفيفة، التي لا يطيل صاحبها المقام فيها. وكما قال الشاعر:

وبنفسي من لا أسميه إلا ... هو والظبي في الجمال سواء

بعض إلمامة وبعض إشارة ... واستفاد الغزال منه استعارة

أي: قوله: أفدي بنفسي محبوبًا لا أسميه إلا بعض إلمامة وبعض إشارة، أي: لا أحتاج أن أطيل في ذكر نَسَبِهِ ونعوته وألقابه؛ لأنه معروف ومشهور، بمجرد أن أقول: فلان وآتي بطرف من اسمه أو بطرف من سيرته يعرفه الناس. ولهذا قال:

.... هو والظبي في الجمال سواء

.... واستفاد الغزال منه استعارة

أي: لا يصح أن تشبهه بالغزال فهو أصلًا كالغزال نفسه، هو أصلٌ في الحسن كالغزال نفسه، فلا يحتاج إلى التشبيه والاستعارة بذكر لفظ الغزال. فالخلاصة: أن **الإلمام والإلمامة هي: هذه الزيارة العابرة التي تأتي حينا بعد حين.**

ثم يقول: **"بالجِزعِ ثانيةً"** الجزع -كما سبق في القصيدة في بعض أبياتها- هو: منعطف الوادي، والمكان الذي يقيم فيه القوم.

فهو يقول: **"لعلَّ إلمامةً بالجزعِ ثانيةً"** أي: مرة ثانية، **"يدِبُّ منها نسيمُ البُرْءِ في عِلَلِي"**. الدَّب هو: المشي والحركة. وهذه الكلمة من الكلمات التي روعي فيها الصوت في التسمية؛ أي: هي حكاية صوت المشي؛ لأن المشي إذا صدر من صاحبه في أماكن معينة يصدر منها صوت "دَبْ دَبْ دَبْ" فسموه دَبًّا ودابَّة.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي﴾ [النور: ٤٥]. فلما كان المشي يصدر منه هذا الصوت سمَّوا هذا الفعل بهذا الاسم وهو: الدَّب، أي: المشي. أما الدبيب فهو: أخص من هذا المشي، وهو المشي الخفيف الضعيف الذي لا يكاد يُشعَر به. كما قال الشاعر:

زَعَمَتْنِي شيخا ولست بشيخ إنما الشيخ من يدب دبيبا

أي: يمشي مشية ضعيفة لضعف جسده. وفيه جاء الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: "لَلشِّركُ فيكم أخْفى من دبيبِ النَّملِ" [الأدب المفرد: ٥٥١]. أي: الرياء أخفى من دبيب النمل، فيُستخدم لفظ الدبيب في الحركة الخفية أو في المشي الخفي، مثل: دبيب الروح، ودبيب الظل، ودبيب الوساوس في الصدر؛ فهذه الحركات الخفية التي لا يكاد يشعر بها يعبر عنها في لغة، العرب بالدبيب.

"نسيمُ البُرْءِ". النسيم هو: الهواء العليل، والبُرء هو: الشفاء، **"في عِلَلِي"** أي: في أمراضي.

- والمعنى الذي يقصده من هذا البيت: **أنه يرجو ويأمل في زيارة عابرة لهذا المكان الذي يقطن فيه المحبوب ينشأ عنها الشفاء لعلله وأمراضه وأشواقه التي ابتُلي بها.**

وفي البيت مبالغة بأن مجرد الإلمامة يترتب عليها الشفاء من كل أمراضه؛ لأنه قال: **"لعل إلمامةً بالجِزعِ"**. أي: ليس المكوث الطويل والبقاء الطويل، وهذا فيه من المبالغة في تصوير المعنى الذي يريده الشاعر.

وهذا المعنى معنى صحيح، أي: بقاء الإنسان أو مروره بالأماكن التي ترتبط بذكرياته أو ترتبط بأحبابه لا شك أنها تُكسب النفس راحةً وطمأنينةً، وإذا ارتاحت نفس الإنسان؛ فحتى أمراض الأبدان قد تُعالج بسبب الراحة النفسية التي يكون عليها الإنسان، وهو أمر فطريٌّ، حتى الصحابة كانوا يطمحون إلى أن يمروا بتلك البلاد التي هاجروا منها، كما جاء في صحيح البخاري: **"وَكانَ بلَالٌ إذَا أقْلَعَتْ عنْه** -أي: الحمى- يقولُ:

ألا لَيْتَ شِعْرِي هل أبيتَنَّ ليلةً وَهلْ أرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ

بـــوادٍ وحـولـــي إذخِـــرٌ وجــلـــيــلُ   وَهَـــلْ يَـــبْدُوَنْ لِي شَـــامَةٌ وَطَـــفِيلُ

[صحيح البخاري: ٥٦٥٤].

وقال الآخر:

ألا لَيْـــتَ شِـــعـــري هـــل أبيـتَنَّ ليلـةً   بـــطيبةَ حيــث الـطيِّـــبونَ نُــــزُولُ

فكثير من الشعراء جاؤوا ونسجوا على منوال هذه القصيدة في كل بلاد الدنيا، في مصر، وفي حمص، وفي المدينة، وفي غيرها من المدن.

فبقاء الإنسان أو مروره على ديار المحبين لا شك أنه يكسب الإنسان شيئًا من الراحة، وشيئًا من الطمأنينة في نفسه بسبب ارتباط هذا المكان بذكرياته الطيبة.

البيت السابع والعشرون: لا أكرهُ الطعنةَ النجلاءَ قد شُفِعَتْ ..برشقةٍ من نِبالِ ...

ثم قال:

لا أكــرهُ الطعنــةَ الــنجلاءَ قــد شُــفِعَتْ   برشـــقةٍ مـــن نِـــبالِ الأعـــيُنِ النُّجُــلِ

الشرح:

"لا أكره" أي: لا أُبغض.

"الطعنة النجلاء" الطعن والطعنة هي: الضرب بالرمح. يُعبَّر عنه بذلك في لغة العرب، وإن كان أحيانًا يُستخدم في الطعن المعنوي، أو في القدح والثلب المعنوي، وليس الحسي الذي هو الأصل في استعمال الكلمة، كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: ١٢]، فالطعن في الدين هذا طعنٌ معنوي، بمعنى: القدح والثَّلْب والسخرية، ولكن أصل هذه الكلمة إنما هو في الضرب بالرمح.

ونحن نعرف أن الضرب بالرمح درجات ومراتب؛ بعضها ضربات يسيرة ربما لا تنفُذ في جسد الإنسان، وبعضها ضربات شديدة، ومن محاسن اللغة العربيَّة: أنها خصَّت لكل مرتبة من مراتب هذه الضربة ألفاظًا معينة،

- فإذا كانت الضربة أو الطعنة يسيرة قالوا: **"وخزه بالرمح"**. أي: طعنه به، ولكن طعنًا غير نافذ.

ويقولون: "**نَبَرَه بالرمح**"، و"**وَلَقَهُ بالرمح**" بنفس المعنى.

- لكن إذا كانت الطعنة أشد؛ أتوا بعبارات وألفاظ أخرى، فقالوا: "**دَسَرَه بالرمح**"، و"**نَتَرَه بالرمح**"، و"**نَجَلَه بالرمح**"، أي: طعنه طعنة غائرة وعميقة وواسعة، ومنها هذه "**الطعنة النجلاء**".

بل حتى من محاسن العرب: أنهم قد يخصون الفعل باسم معين بحسب اختلاف الآلة التي نشأ عنها هذا الفعل، ومنها: الطعن بالرمح، فإذا كان الطعن برمح قصير قالوا: "**نزكَه بالرمح**". ومنه العبارة المشهورة في شهر بن حوشب عند علماء الحديث كما رواه مسلم في مقدمة صحيحه عن عبد الله بن عون: أنه سُئل عن شهر بن حوشب فقال: "إنَّ شَهْرًا نَزَكُوهُ" [صحيح مسلم: ١/ ١٧] بعض المحدثين يرويه: "تركوه". ولكن الأصح عند المحققين أنها "نَزَكُوه" أي: ضربه بالرمح القصير ويسمونه: النيزك.

وهذا اللفظ يُشعر أن الجرح الذي جُرح به شَهْر ليس جرحًا عميقًا وكبيرًا، إنما هو جَرح يسير؛ لأن غاية ما أُخذ عليه أنه يتفرد بالأحاديث الغريبة التي لا يرويها غيره، ويُرسِل في بعض الأحاديث، أما اتهامه بالسرقة فهذه تهمة لم تثبت عن شهر -رحمه الله- وعُوقِب الشاعر الذي اتهمه بذلك وقال بيته المشهور:

لقد باع شهرٌ دينه بخريطةٍ فمن يأمنُ القرّاء بعدك يا شهرُ

هو اتهمه بسرقة المال من بيت المال، ولكن لما حققوا في الموضوع وجدوا أن الشاعر اتهمه ظلمًا وجورًا؛ فعُوقِب الشاعر على بيته ذلك.

فهذه العبارة التي قالها ابن عون: "إنَّ شَهرًا نَزَكُوه". فيها إشارة إلى أن الجرح الذي في شهر بن حوشب ليس جرحًا يُسقِطُه ويُسقِطُ روايته بالمرة. ولهذا روى له الإمام مسلم في سياق الشواهد والمتابعات.

فهذه من لطائف اللغة العربية وعجائبها: أنها قد تخص بعض الأفعال التي ترجع إلى جنس واحد ببعض الألفاظ الخاصة بها، فكلما كان الإنسان دقيقًا في لغة العرب، أدرك من معانيها ما لا يدركه غيره.

فالخلاصة: أن الطعنة النجلاء هي: الطعنة الواسعة.

ومنه ما أشار إليه في آخر البيت: "**الأعين النُّجلِ**" وهي: الأعين الواسعة، فالنّجَلُ: سَعَةُ العين. والعرب تمدح في العين صفات معينة، منها: السعة، ولهذا جاء ﴿وحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢]. أي: واسعات الأعين، فتُمدح في العين: السعة، فتقول: "عينٌ نجلاء"، و"الأعين النُّجل".

ويُمدح فيها أيضًا: الحَوَر، أي: شدة بياضها وشدة سوادها. كما يُمدح في أجفان العين: الفتور، لما تكون نظرة الإنسان فاترة وليست حادة. كانوا دقيقين في ملامح الجمال في العصر القديم، ولهذا قال شاعرهم:

يَا حَـاكم الْحُـبّ لَا تحكـم بسـفك دمـي إِلَّا بفـــتوى فـــتـــور الْأَعْـيـــن النّجُـلِ

فمدحوا في العين جملة من الصفات، منها: هذه الصفة التي أشار إليها الشاعر في البيت وهي الأعين النجل.

"قد شُفِعَت" أي: قُرِنَت، وجَعَلْتَها شَفْعًا. والشفع يقابل الوتر كما في الآية المشهورة ﴿والشَّفعِ والوَتْر﴾ [الفجر: ٣] وفي قراءة ﴿والوِتر﴾ بكسر الواو.

والشفع كما يقول الشيخ عطية -رحمه الله-: **"هو كل المخلوقات جملةً وتفصيلًا، والوَتر والوِتر هو الله سبحانه وتعالى"**. كما جاء في حديث أسماء الله: "إنَّه وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ" [صحيح مسلم: ٢٦٧٧].

ثم أشار إلى أن هذه الآية تشير إلى ما يسمى بقانون الزوجية أو الثنائية في الكون، إذا تأملت في الكون وفي الأشياء ستجد أن الله سبحانه وتعالى أقام المخلوقات على أساس قانون الزوجية، حتى الهواء والماء.

ف**"شُفِعَت"** أي: قُرِنَت وزُوّجَت بفعل آخر، ما هو الفعل الآخر؟ قال: **"برشقَةٍ"** أي: برمية **"من نِبالِ الأعيَنِ النُّجلِ"**، النبال هي: السهام، **وشبَّه فعل الأعين برمية أو برشقة السهام بجامع التأثير في كل منهما**، كما قال الآخر:

بـيـــن السـيـــوف وعـينـيـه مـشــاركةٌ مـــن أجـلـــها قيـــل للأغمــادِ أجفـانُ

أغماد السيوف قيل لها: **أجفان**، فلوحِظ فيه معنى جفن العين؛ بسبب المشاركة في التأثير بينهما.

"شُفِعت برشقةٍ من نبال الأعين النُّجلِ" المعنى الذي يريده من هذا البيت: أن يقول: أنا لا أبغِض أن أُطعَن طعنة نجلاء -وليست طعنةً يسيرة أو من قبيل الوخز- لكن بشرط أن تُقرَنَ هذه الطعنة بنظرة من الأعين النُّجل، أي: من أعين المحبوب. فهو راضٍ بهذا الضرر في مقابل هذا؛ **لأن العادة أن الملذة التي تأتي للإنسان إذا كانت أعلى في قلبه من الألم، فإن صاحبها لا يحس بالألم.**

إذا ورد على الإنسان واردان؛ شيء مؤلم وشيء مفرح، وكان الشيء المفرح هذا أعظم من الشيء المؤلم؛ فالإنسان لا يحس بالألم من شدة هذه اللذة المفرحة التي وردته، كما في قصة يوسف -عليه السلام- في النسوة اللائي لما رأينه ﴿أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: ٣١] فهنَّ من هَول ما ورد عليهن من

جمال يوسف –عليه السلام–، قطعن أيديهن بالسكين فما شعرن بالألم. فهو يقول: أنا لا أكره هذا ولا أبغضه ولا أرده؛ لأنني لن أشعر بألم هذه الطعنة النجلاء إذا شُفِعت بنظرة إلى المحبوب.

وكثير من الشعراء من يتمدحون بذكر المحبوب عند الشدائد، ويجعلون من ذلك دليلًا على صدق المحبة، وعمق المشاعر، كما في بيت عنترة المشهور:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

يقول: ذكرتك والرماح في جسدي، وضربات السيوف، ودمائي تسيل، وأنا أذكركِ في هذا الموقف يريد أن يستدل بهذا على صدق محبته.

وإني لأرعاكم على القرب والنوى وأذكركم بين القَنَا والقَنابِل

بين القنا أي: الرماح. و**القنابل** هي: جماعة الخيل الشِداد، وجماعة الناس الشِداد في الحرب. يقال لها في لغة العرب: قنابل، مفردها: قُنبُل.

فهو يقول :"**وأذكركم بين القنا والقنابل**" يتمَدَّح بأنه يذكر هؤلاء في هذا الموقف العصيب الذي ينسى فيه الجليس جليسه، أي: حتى يترك الحديث إليه فضلًا عن المشاركة بمشاعره أو نحوَ ذلك. فيقول:

لا أكرهُ الطعنةَ النجلاءَ قد شُفِعَتْ برشقةٍ من نِبالِ الأعيُنِ النُّجُلِ

البيت الثامن والعشرون: ولا أهابُ الصِّفاح البِيض تُسعِدُني.. باللمحِ من خَلل الأستار...

ولا أهابُ الصِّفاح البِيض تُسعِدُني باللمحِ من خَلل الأستار والكِلَلِ

الشرح:

"**ولا أهاب**" أي: لا أخاف، فيأتي هذا اللفظ بمعنى الخوف. ومنه: الهَيوب، يُقال: "فلانٌ هيوبٌ وهيبان وهيّبان" بمعنى: أنه رجل جبان يخاف من كل شيء. ولكن الهيبة أحيانًا تأتي بمعنى الإجلال والتعظيم، وليس بمعنى الخوف. ومنه: الهيبة، يُقال: "فلان له هيبة". أي: الناس تُجِلّهُ لسَمْته، كما وصفوا مالكًا في الأبيات المشهورة، وأحيانًا قد يوضع في اللفظ قرينة صريحة بأن الهيبة هنا هي هيبة إجلال، كما في الأبيات المشهورة:

أَهـــابُكِ إجـــلالًا وَمـا بِـــكِ قُـــدرَةٌ   وَمـا هَـــجَرَتكِ النَـــفسُ أَنَّـــكِ عِنـدَها

عَـلَـــيَّ وَلَـــكِن مِـــلءُ عَيـــنٍ حَبيبُهـا   قَـــليلٌ وَلَـكـِن قَـــلَّ مِنـــكِ نَـــصيبُها

فهو يقول: "**أهابكِ إجلالًا**". أي: هذا الخوف ليس خوفًا ناشئًا عن كراهية أو عن جُبن أو عن جزع ولكنه خوف ناشئ عن إجلالٍ وتعظيم، "**أهابك إجلالًا وما بكِ قدرة عليَ**" أي: الدليل على هذا أنه ليس لكِ سلطان، ولهذا أنشد الخليفة هذا البيت على إحدى نسائه وقال: "**أهابُكِ إجلالًا وما بكِ قدرةٌ عليَّ**". وهو الخليفة! "**ولكن ملء عين حبيبها**". فالهيبة أحيانًا تأتي بمعنى الإجلال، وأحيانًا تأتي بمعنى الخوف، ومنها هذا البيت "**ولا أهاب**" أي: ولا أخاف.

"**الصِّفاح البيض**". الصِّفاح هي بالأصل: جمع صِفاحة وهي: **الصخرة العريضة**. الصخور العريضة يقال لها: صِفاح بلغة العرب؛ ولهذا زعموا كما زعم النابغة الذُّبياني في تَدمُر بيته المشهور: "**يبنون تدمُرَ بالصِّفاحِ والعُمُد**" أو "**بالصُّفَّاحِ والعَمَد**" على اختلاف في رواية البيت، فهو يزعم أن مدينة تَدمُر الشامية بناها الجن في عهد سليمان -عليه السلام-؛ لأنهم رأوا هذه الصخور الضخمة العريضة وارتفاعها، والناس مولعون أن أي شيء غريب ينسبونه إلى الجن. **فالصفاح هي: الصخور العريضة**.

لكن قد يأتي بمعنى: السيف العريض، يُقال له: صِفَاحَة، وصَفِيحَة وهذا الأشهر، أن السيف يُقال له: صفيحة، والجمع: صفائح. فالصفيحة والصفاحة قد تأتي بمعنى السيف العريض؛ لهذا يقال: "ضربه بصفحة سيفه". أي: بعُرض سيفه وليس بحده. فهنا يقول: "**لا أهاب الصِفَاح البيض**". ويقصد هنا: السيوف العريضة. "**البيض**" أي: التي تلمع تحت الضوء وتحت الشمس.

"**تُسعِدنِي باللّمحِ**" هذه جملة منصوبة على الحَاليَّة، أي: حالة إسعادها لي بهذه الرؤية. **واللمح هي**: **النظرة السريعة**، وإذا أضيف إلى البصر فهو يفيد الزيادة في السرعة، والمبالغة فيها.

ولهذا جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] أي: كسرعةٍ كسرعةِ لمح البصر؛ لأن لمح البصر أسرع الحركات في الإنسان فضُرب بها المثل على السرعة، ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] **فإذا أضيف اللمح إلى البصر فإنه يفيد الزيادة في السرعة**، فهنا يقول: "**تسعدني باللمح**" أي: بلمحة البصر أو بلمحة العين.

"**من خلل الأستار والكِلل**" **الخلل هو: الفرجة بين الشيئين**، أو الفرجة بين الأشياء. الأستار: جمع سِتْر أو سَتر. والكِلل بكسر الكاف جمع: كلِّة، و**الكِلّة** هي: أخص من الأستار، وهي **الستر الرقيق** الذي أحيانًا قد يُتقى به البعوض، نسميه نحن في الحجاز بالناموسية.

وهو يشير في هذا إلى أن محبوبته محجوبة عن الأعين بهؤلاء الأبطال الأشاوس والأسود الضواري ومحجوبة أيضًا بالأستار والكِلل.

وهذا يدلنا على أن الحجاب هو أقرب في الدلالة على نفاسة الشيء وحمايته من ابتذاله، وهذا معنى الحجاب في الشريعة، فحجاب الشريعة هو تكريم وحماية للمرأة، ﴿أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩] كما قال القرآن الكريم، فالحجاب يشير إلى نفاسة هذا الشيء؛ لأن الشيء النفيس يُحجَب عن الأنظار، إذا كان عندك جوهرة -مثلًا- لا تضعها هكذا أمام الأعين معروضة بين الناس، وإنما تحجبها لشرفها ونفاستها ومكانتها، وهكذا كان العرب قديمًا على هذه الفطرة، وإن كانوا تمردوا عليها اليوم ورأوا أن الحجاب هو إذلال للمرأة، وأنه تقييد حريتها! ونحو ذلك من شبهات الشيطان. بينما في الأصل: أن الحجاب، حجب المرأة، وحجب الشيء هو: دليل على نفاسته وحمايته.

فالشاعر يقول في هذا البيت: أني لا أخاف السيوف العريضة اللامعة إذا كانت تسعدني بلمحة ونظرة عابرة لهذا المحبوب من بين الكِلل والأستار، وهذا أيضًا فيه المبالغة الجميلة أو الحسنة في إيصال المعنى، وأنه مستعد يتعرض لهذا الخطر العظيم لمجرد نظرة أو لمحة لهذا المحبوب.

البيت التاسع والعشرون: ولا أخِلُّ بغِزلان أغازِلُها.. ولو دهتني أسُودُ...

ولا أهابُ الصِّفاح البِيض تُسعِدُني ... باللمحِ من خَلل الأستار والكِلَلِ

ولا أخِلُّ بغِزلان أغازِلُها ... ولو دهتني أسُودُ الغِيل بالغيَلِ

الشرح:

"**لا أخُل**" أي: لا أقصِّر؛ لأن الإخلال هو: التقصير، أخلَّ بالشيء أي: قصَّر فيه، و"لا أخُل" أي: لا أقصّر ولا أترك.

"بغِزلانٍ أغازِلها"، الغِزلان بكسر الغين مثل غِلمان، جمع غزال، والغزال هو: ولد الظبي. فولد الظبي يُقال له: غزال. ويُقال له: شادن. فإذا برز قرنه فيُقال له: ظبي وظبية.

وتشبيهه للمرأة بالغزال يقصد به: الوصف بالحُسن، والرشاقة، والنشاط. فالتشبيه بالغزلان إنما يُقصد به هذا المعنى، كما جاء في عمرة القضاء أن النبي ﷺ لما أخذ يطوف بالبيت وجاء إبليس إلى أهل مكة ووسوس لهم أن هذه فرصة ليقتلوا النبي ﷺ وأصحابه، فالنبي ﷺ أمر الصحابة أن يرملوا أثناء الطواف –والرمل هو: المشي السريع– فلما قريش رأت الصحابة يرملون حول البيت قالوا: "إنهم يرملون كالغزلان" أي: نشاطًا وحركةً، كيف هؤلاء الذين تقولون إنهم أوهنتهم حمَّى يثرب وهم كالغزلان في نشاطها وفي حركتها؟! فالتشبيه بالغزلان يقصد به الإشارة إلى هذا المعنى وهو النشاط والحركة والرشاقة.

"ولا أخل بغزلان أغازلها" وفي بعض النُّسخ: "تغازلني" والمغازلة هي: محادثة النساء بالكلام الرقيق.

"ولو دهتني" أي: أصابتني الداهية، والداهية في لغة العرب هي: المصيبة العظيمة، ليست أي مصيبة ولهذا أبو البقاء الرُّندي لما رثى الأندلس قال في قصيدته:

دَهَى الجَزِيرَةَ أَمْرٌ لَا عَزَاءَ لَهُ ... هَوَى لَهُ أُحُدٌ وَانْهَدَّ ثَهْلَانُ

دهى الجزيرة أي: جزيرة الأندلس، فقال: دهى. ليشير إلى أن المصاب الذي نزل بأهل الأندلس في زمانه كان مصابًا عظيمًا، قال: **"لا عزاء له"**، ثم أكد هذا المعنى فقال: **"هوى له أُحدٌ وانهدَّ ثهلان"**. **ثهلان: جبلٌ باليمن** ويُضرب به المثل في الثِّقل، يقولون: "أثقل من ثهلان" فهو يصور المعنى الذي يريده بهذه الصورة البلاغية.

فهنا يقول: **"ولو دهتني"**. أي: لو نزلت بي داهية عظيمة، ومصيبة عظيمة.

"أسود الغيل بالغيلِ" الغيل في الأصل هو: الشجر الملتف المجتمع، وأُطلق على عرين الأسد؛ لأن الأسد عادةً يتخذ مسكَنه أو عرينه في هذه الأشجار الملتفة والمجتمعة. والغِيَل: جمع غائلة، وهي الداهية والمصيبة والشر.

المعنى الذي أراده: أنه لا يترك محادثة المحبوب حتى لو دهته أسود الغِيل بالغِيَل، حتى لو نزلت عليه هذه المصائب الشديدة. وكل هذا يريد أن يثبت أو يبين شدة محبته وصدقَه لهذا المحبوب.

البيت الثلاثون: حبُّ السلامةِ يَثْني همَّ صاحِبه...عن المعالي ويُغرِي المرءَ بالكَسلِ

ثم قال:

حــبُّ الســلامةِ يَثْــني هـــمَّ صـاحِــبه   عـــن الـــمعالي ويُغــرِي المــرءَ بالكَســلِ

السلامة هي: **البراءة من الآفات**، والبعد عن الأضرار، والتلف، والمصائب، ونحو ذلك.

الشرح:

"**يَثني**" بفتح الياء وليس بضمها أي: يعطف ويقصُر ويكف، أما يُثني: من الثناء وهو المدح، وليس مرادًا هنا.

"**حب السلامة يثني هم صاحبه**" من الثني، وهو العطف.

"**هم صاحبه**" أي: عزم صاحبه وإرادته.

"**عن المعالي**". المعالي هي: الأمور الشريفة، والخصال التي تُكسب الإنسان الشرف والمكانة.

"**ويغري المرء بالكسل**" "**يغري**" -كما عرفنا سابقًا- من الإغراء وهو: الولع بالشيء واللصوق به. ومنه: الغراء؛ لأنك لو وضعته في شيء يلتصق به الشيء الآخر. والكسل -كما تعرفون- هو: الفتور والتثاقل، وضده: النشاط، والكسل بهذا المعنى مذمومٌ شرعًا، ولهذا وصف الله به المنافقين لما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسالى﴾ [التوبة: ٥٤]. والنبي ﷺ كان يستعيذ في دعائه من العجز والكسل: "اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل" [صحيح البخاري: ٢٨٢٣].

لكن العرب تجعل الكسل صفة ممدوحة في المرأة، يقولون: امرأة كسلى وكَسِلة ومِكْسال. يمدحونها بهذا، ولا يقال: كسلانة إلا على لغة بني أسد، جمهور العرب يقولون: امرأة كسلى ولا يقولون كسلانة، فهذه لغة أسدية كما يقولُ علماء اللغة.

لماذا تجعل العرب الكسل صفة مدح في المرأة؟ لأنها تشير إلى أن هذه المرأة مخدومة، ولها مكانة وشرف بحيث هناك من يخدمها ويقوم بالأعمال، ولا تحتاج هي أن تتحرك لقضاء مصالحها.

ولهذا قال الشاعر: "**نؤومُ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عن تَفضُّلِ**" مدحَها بأنها تنام إلى الضحى، رغم كونه نوعًا من الكسل، ولكن مدحوا بها المرأة؛ لأنها تشير إلى أنها امرأة ذات وجاهة ولها مكانة في أسرتها أو في عائلتها أو في مجتمعها، فهي لا تحتاج إلى أن تستيقظ مبكرًا لقضاء مصالحها فهناك من يقوم بها.

وما أكثر ما انتشر هذا في زماننا! فالعرب يجعلون هذه الصفة صفة مدح في المرأة من هذه الحيثية يقولون: "امرأة مِكسَال" في سياق المدح، مع أن الكسل صفة مذمومة طَبْعًا وشرعًا في الأصل.

حبُّ السلامةِ يَثْني همَّ صاحِبه عن المعالي ويُغرِي المرءَ بالكَسلِ

أي: أن الإنسان إذا غلب عليه وسيطر على عقليته وشخصيته حب السلامة، وحب البعد من الآفات؛ فإن هذا سيدفعه إلى البعد عن طلب معالي الأمور، والبعد عن خوض خِصال الشرف، واكتسابها، وتحصيلها، ومجاهدة الحياة؛ لأنه لا يريد مشاكل، يقول لك: "أمشي في ظل الحائط"! "من خاف سلِم"! وربوا الناس على هذا الخوف وعلى طلب السلامة، و"السلامة لا يعدلها شيء" جعلوا ذلك شعارًا!

وإن السلامة من سلمى وجارتها ألا تحل بحال بواديها

فالشاعر من حكمته يقول: الإنسان إذا غلب عليه هذه العقلية فسيظل إنسانًا ناقصًا قاصرًا، وسيُحرم من كثير من الخيرات وخصائل الشرف؛ لأن طريق المجد والمعالي طريق وعر، ويحتاج إلى همة وإرادة وقوة وعمل وشجاعة وعزيمة...

يقول الشاعر: "**المجد سهلٌ والطريق إليه بالإجماع وعرُ**"، أي: المجد سهل تتغنى به، لكن الطريق الذي تبذله وتمشيه وتسير فيه لتحصيل هذه المعالي وعر يحتاج منك إلى عزيمة وإرادة.

الصحابة ما حازوا هذا الفضل وكانوا خير الأمة إلا بعد أن جاهدوا في سبيل الله، وبذلوا نفوسهم، وبذلوا أرواحهم؛ فحازوا هذه المراتب العليا، أما الإنسان الذي همه فقط أن يعيش سالمًا، بعيدًا عن الآفات، وبعيدًا عن المشاكل والتحديات؛ سيظل إنسانًا ناقصًا تفوته كثير من الخصال الشريفة في الدنيا وفي الآخرة، لا يريد من الدنيا إلا الراحة والسَّكَن والهدوء والوظيفة والمرأة الحسنة والمركوب الحسن، وانتهت همته -المسكين- وإرادته في الدنيا في هذه الأشياء الصغيرة!

فهو يشير إلى هذا المعنى الجميل: **أن الإنسان الذي يعشق معالي الأمور، ويصدُق في طلب المعالي والفضائل، ينبغي أن يكون صاحب إرادة وعزيمة، ويجاهد ويُصابر؛ حتى يصل إلى هذه المراتب العليا، أما إذا كان يميل إلى الراحة؛ فسيعيش صغيرًا ويموت صغيرًا**، كما قال الشاعر:

وكـــن عـــن الـــراحـــة فـــي معـــزل فالصـــفع مـوجـــود مـــع الـــراحـــة

لأن "صفَعَ" في لغة العرب لا تُقال إلا إذا كانت براحة الكف، فإذا اخترت لنفسك الراحة والدعة فتستحق أن تُصفع؛ لهوانك أمام الناس.

فهو يدعو في هذا البيت إلى حكمة جليلة وهي: أن الإنسان ينبغي أن يكون صاحب إرادة عالية، وصاحب عزيمة، ويطلب معالي الأمور، ولا يكون قنوعًا بالأشياء الصغيرة. وهذا ليس فقط على مستوى الفرد، حتى على مستوى الأمة، لاحظوا أُمّتَنا لما آثرت الدَّعة والخمول، وطلب السلامة، والحفاظ على المكتسبات الحياتية والاقتصادية؛ صارت أذل الأمم للأسف، كل مشكلات العالم عندنا في العالم الإسلامي، وانطبق علينا ما قال النبي ﷺ: "يُوشِكُ الأممُ أن تداعَى عليكم كما تداعَى الأكَلةُ إلى قصعتِها". فقال قائلٌ: ومن قلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ" إذن ما العلة؟ "ولكنَّكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيلِ، ولينزِعنَّ اللهُ من صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذِفَنَّ اللهُ في قلوبِكم الوهْنَ". فقال قائلٌ: يا رسولَ اللهِ! وما الوهْنُ؟ قال: "حُبُّ الدُّنيا وكراهيةُ الموتِ" [صحيح أبي داود: ٤٢٩٧] .

فالأمة التي لا تريد أن تضحي ستبقى أمة ذليلة، والله سبحانه وتعالى قال: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة ٢٤].

هذه المصائب الثمانية التي إذا ابتُليت بها أمة ضُرب عليها الذل إلى يوم القيامة، ولهذا قال الشيخ الأمير –رحمه الله–: هذه الآية تدل على أنه متى تعارضت مصلحة الدين مع كل مصالح الدنيا؛ حافظنا على مصلحة الدين وتركنا مصالح الدنيا؛ لأن مصلحة الدين أو الحفاظ على الدين هي أعظم المصالح، وهي أم المصالح.

ولهذا لما كتب شكيب أرسلان كتابه المشهور: (لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟) ودرس فيه ظاهرة التخلف والضعف والذلة في العالم الإسلامي، في نهاية الكتاب رأى أن السبب الرئيس هو: أن هذه الأمة لا تريد أن

تضحي في سبيل عزتها وسيادتها في الدنيا، وهذا هو حب الدنيا الذي قال عنه النبي ﷺ. فالمعنى الذي أشار إليه ليس خاصًا بالأفراد، بل حتى على مستوى الأمة.

البيت الحادي والثلاثون: فإن جنحتَ إليه فاتَّخِذْ نَفَقًا.. في الأرضِ أو سُلَّمًا في الجوِّ...

حُبُّ السلامةِ يَثْني هَمَّ صاحِبه ... عن المعالي ويُغرِي المرءَ بالكَسلِ

فإن جنحتَ إليه فاتَّخِذْ نَفَقًا ... في الأرضِ أو سُلَّمًا في الجوِّ فاعتزلِ

الشرح:

"**فإن جنحتَ إليه**" أي: ملت إليه. الجنوح إلى الشيء هو: الميل إليه، كما قال الله تعالى في كتابه ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١] أي: إذا مالوا إلى السلم وترك الحرب؛ فاجنح إليه.

"**فإن جنحتَ إليه فاتَّخِذْ نَفَقًا**" النفق هو: الطريق الذي يكون في باطن الأرض، ويقال له: السَّرَب. ومنه: نفق اليَربوع وهو: الطرق التي يحفرها تحت الأرض. ومنه: المنافق أو النفاق؛ لأن صاحبه له دين يستره تحت الأرض غير الدين الظاهر الذي يتظاهر به.

"**فاتَّخِذْ نَفَقًا في الأرضِ أو سُلَّمًا**" السُّلم هو: الدرج الذي يصعد به الإنسان إلى الأماكن المرتفعة.

"**أو سُلَّمًا في الجوِّ**" الجو هو: الهواء أو الفضاء بين الأرض والسماء، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ [النحل: ٧٩] ولهذا يُطلق على الأماكن المرتفعة في لغة العرب وكان العرب يسمون أهل نجد واليمامة أهل الجو؛ لأن أماكنهم مرتفعة، ولهذا سميت بنجد؛ لأن النجد ما ارتفع من الأرض.

وقد يطلق الجو على داخل الشيء، كما يقال: "جو البيت". أي: داخله. وبقيت بقية لهذه الكلمة في عاميتنا الدارجة مع تحريف يسير، مثل: "أين فلان؟" قال: "جُوَّ البيت" أو "دخل جُو البيت" أو "أدخل هذه البضاعة جُو البيت" عرب أهل الشام كانوا ينطقون بهذا؛ ولهذا عندهم مدارس إلى الآن الجَوَّانِية والبَرَّانية، لو تقرأ في تاريخ المدارس في بلاد الشام: الأشرفية الجَوَّانِية، والأشرفية والبَرَّانية والحديثية الجَوَّانِية، والبَرَّانية. فلا تزال هذه الكلمة تستخدم عندهم. فالجو هو: الفضاء الذي يكون بين الأرض والسماء.

ثم قال: "**فاعتزلِ**". من الاعتزال أي: ترك المخالطة، ومنه سمي المعتزلة معتزلة؛ لأنهم تركوا مخالطة الحسن البصري وأصحابه، واجتنبوا مجلسه، فقيل لهم: المعتزلة.

- ومعنى هذا البيت يقول: إذا مِلتَ إلى حب السلامة، وآثرته على طلب الكمال، ومعالي الأمور واكتساب الفضائل؛ فاتَّخذ نفقًا في الأرض أو سلمًا في السماء، أي: اذهب واحفر في باطن الأرض ما شئت واصعد في السماء ما شئت، افعل ذلك ومع ذلك ستعجز عن هذا! وإذا كنت تعجز عن هذا الشيء، وأنت عاجز عنه؛ فيجب أن تدرك أن السلامة في الدنيا أمر معجوز عنه؛ لأنك لن تسلم من ألسنة وكلام الناس، ولن تسلم من مصائب الدنيا أصلًا، فطبيعة هذه الحياة أنها طبعت على كدر، لا بد أن تمر بالإنسان لحظات من الابتلاء، والمرض، والفقر، والمعاناة، لا بد أن ينتهك بعض الناس عرضك، ويتكلموا في كذا، وربما أخذوا مالك، وآذوا عيالك، لن تسلم من الناس! فطلب السلامة هذا أمر محال.

فكما أنك لو اتخذت نفقًا في الأرض وسلمًا في السماء مع هذا لن تسلم من الناس، ولو حاولت العزلة في رأس جبل لن تسلم من ألسنة الناس؛ فلا تبالي بهذا، لا تلتفت إليه، ولكن اجتهد في القيام بالحق، وفي تحصيل الفضائل والمكارم؛ محتسبًا أجرك عند الله سبحانه وتعالى.

وهذا فيه اقتباس وفيه إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

الله تعالى يقول لنبيه ﷺ: إذا كان كبر عليك هذا التكذيب والإعراض والكفر والإيذاء من هؤلاء؛ فاذهب واتخذ نفقًا في الأرض أو سلمًا في السماء، إذا كنت تستطيع هذا، لكنك لن تستطيع أن تفعل هذا، ولن تستطيع هداية هؤلاء، ولن تستطيع السلامة من إيذاء هؤلاء أيضًا! فهذا من باب التسلية للنبي ﷺ، ومن باب دعوته ألا يحزن ويهلك نفسه بسبب كفر هؤلاء.

وقد يكون المقصود بها أمرًا آخر يحتمله السياق وهو: الإشارة إلى كمال حرص النبي ﷺ على هداية المشركين، وأنه ﷺ من شدة حرصه لو استطاع أن يأتي بآية في أنفاق الأرض أو في عنان السماء لذهب وأتى بهذه الآية؛ لشدة حرصه ﷺ على هداية الناس.

فالآية تحتمل أن المقصود بها: تسلية النبي ﷺ، فلا يهلك نفسه حَزَنًا وغمًّا على كفر هؤلاء، وتحتمل أن المقصود بها: الإشارة إلى كمال حرص النبي ﷺ على هداية الناس.

البيت الثاني والثلاثون: ودَعْ غـمارَ العُلى للمُقدِمين على.. ركوبِها واقتـنِعْ منهن بالبَلَلِ

ودَعْ غـمارَ العُلى للمُقدِمين على   ركوبِها واقتنِعْ منهن بالبَلَلِ

الشرح:

"**ودَعْ غمارَ العُلى**" الغِمار والغَمَرات والغَمَر أصل هذه المادة: تدل في لغة العرب على الكثرة التي تغمر الشيء وتغطيه. ومنه قيل للأهوال: غَمَرات. الله سبحانه وتعالى في كتابه يقول: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣].

أي: لو ترى -يا نبي الله ﷺ- إذ الظالمون في غمرات الموت أي: في سكراتها وأهوالها ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾. لو رأيت هذا وكُشف لك الغطاء؛ لرأيت أمرًا مهولًا عظيمًا! فالغمرات والغمار هي هذه الأشياء التي تغمر الأشياء لكثرتها، ولهذا قيل:

الْغَمْرُ مَاءٌ غَزُرَا   وَالْغُمْرُ ذُو جَهْلٍ سَرَى

وَالْغِمْرُ حِقْدٌ سُتِرَا   فِيهِ وَلَمْ يُجَرِّبِ

فهنا يقول: "**ودَعْ غمارَ العُلى**" أي: اترك الخوض في غمرات المعالي وشدائدها وأهوالها للمُقدمين على ركوبها.

"**للمُقدِمين**" "المقدِم": اسم فاعل من أقدم، وهو: الشجاع الذي يقدم على الأشياء بلا تردد؛ لشجاعته وعلمه بكمال ما يسعى لتحصيله.

"**للمُقدِمين على ركوبِها واقتنِعْ منهن بالبَلَلِ**" القناعة هي: الرضا بالشيء اليسير. والبَلل: الماء اليسير أو الندى ونحو ذلك، كما قال المتنبي: "أنا الغريق فما خوفي من البلل".

فهو يقول: إذا كنت تميل إلى حب السلامة وهمك في الدنيا في هذه الأشياء الصغيرة؛ فاترك ركوب المعالي لأصحاب المعالي، واذهب واقتنع أنت بهذه الأشياء الصغيرة، وعش بها صغيرًا؛ لأن **قيمة الإنسان بقيمة اهتماماته، وأهدافه التي يسعى من أجلها**، فإن كانت كبيرة كان كبيرًا، وإن كانت صغيرة كان صغيرًا.

وكل المقصود بهذا: أن الإنسان في سبيل تحصيل المعالي لا يبالي بما يصيبه في سبيل ذلك؛ لأن الإنسان إذا عرف قيمة ما يطلب؛ هان عليه ما يبذل، البيت المشهور لأبي فراس:

تَـهُـــونُ عَـلَـيـنـــا في المَعـــالي نُفوسُـــنا وَمَـــن خَطَـبَ الحَسـناءَ لَمْ يُغلِهـا المَهـرُ

إذا كنت تريد هذه المعالي ينبغي أن تهون عليك النفوس وتهون عليك ما تبذل؛ لأنك تعرف قيمة ما تطلب، فإذا كنت تطلب رضا الله في الدنيا، وتطلب الجنان، والفوز برضا الرحمن، ومجاورة الأنبياء والرسل –عليهم الصلاة والسلام– وهذا أعظم غاية تسعى إليها؛ فلا تبالِ بما يصيبك في الطريق من الآفات والبلايا، والامتحان، والابتلاء، والنقص في المال والأنفس والأعراض وغير ذلك؛ لأن الإنسان إذا عرف قيمة ما يسعى إليه هان عليه جميع ما يبذل.

المحاضرة السادسة:

المقدِّمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا ونبينا مُحمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

يقول الناظم –رحمه الله تعالى–:

رِضَـى الـذَّلِيلِ بِخَفْـضِ العَـيشِ مَسْـكَنَةٌ وَالعِــــزُّ عِنْـدَ رَسِـيمِ الأَيْنُـقِ الـذُّلُلِ

فَـادْرَأْ بِـــــهَا فِي نُحُـورِ البِيــدِ جَافِلَـةً مُعَارِضَـــاتٍ مَثَـــانِي اللُّجْـمِ بِالجُــدَلِ

إنَّ العُـــــلَا حَــدَّثَتْنِي وَهْــيَ صَــادِقَةٌ فِـــي مَـــا تُحَـدِّثُ أَنَّ العِـزَّ فِي النُقَــلِ

لَــو أنَّ فِي شَــرَفِ المَــأْوَى بُلُــوغَ مُــنَىً لَــمْ تَـبْرَحِ الشَــمْسُ يَوْمًـا دَارَةَ الحَمَــلِ

أَهَبْـــتُ بِالحَــظِّ لُــو نَادَيــتُ مُسْـتَمِعًا وَالحَـــظُّ عَـــنِّيَ بِالجُـــهَّالِ فِي شُـــغُلِ

لَــــعَلَّهُ إِنْ بَـــــدَا فَـــضْلِي وَنَقْصُـــهُمُ لِعَــــيْنِهِ نَـــامَ عَـــنْهُمْ أَوْ تَـــنَبَّهَ لِي

أُعَـــلِّلُ النَــــفْسَ بِالآمَـــالِ أَرْقُبُهَـــا مَـــا أَضْـيَقَ الْعَـيشَ لُـوْلَا فُسْـحَةُ الأَمَــلِ

لَـــمْ أَرْضَ بِالْـــعَيشِ وَالأَيَّـــامُ مُقْبِلَـــةٌ فَكَيـفَ أَرْضَـى وَقَـدْ وَلَّـتْ عَلَى عَجَــلِ

غَـــالَى بِـــنَفْسِيَ عِــــرْفَانِي بِقِيمَتِهَـــا فَصُـنْتُهَا عَـنْ رَخِـيصِ القَـدْرِ مُبْتَـذَلِ

وَعَـــادَةُ النَـــصْلِ أَنْ يَزْهُـــو بِجَـوْهَرِهِ وَلَـيْـسَ يَـــعْمَلُ إِلَّا فِي يَـــدَيْ بَطَـــلِ

البيت الثالث والثلاثون: رِضَى الذَّلِيلِ بِخَفْضِ العَيشِ مَسْكَنَةٌ ..وَالعِزُّ عِنْدَ رَسِيمِ ...

يقول الشاعر الطُغرائي –رحمه الله–:

رِضَـى الـذَّلِيلِ بِخَفْـضِ العَـيشِ مَسْـكَنَةٌ والعِـــزُّ عِنْـدَ رَسِـيمِ الأَيْنُـقِ الـذُّلُلِ

الشرح:

البيت الأول من هذا المقطع يقول فيه الطُغرائي –رحمه الله–: "**رِضَى الذَّلِيلِ بِخَفْضِ العَيشِ مَسْكَنَةٌ**"، هكذا في بعض النسخ، وفي بعضها: "**رِضَى الذَّلِيلِ بِخَفْضِ العَيشِ يَخفِضُهُ**"، "**يَخفِضُهُ**" بدل "**مَسْكَنَةٌ**"، "**وَالعِزُّ عِنْدَ رَسِيمِ الأَيْنُقِ الذُّلُلِ**".

"**الذَّلِيل**" في لغة العرب هو: ضد العزيز، وإذا كان العزيز هو المتصف بالعزة –أي الغلبة والقوة– فالذليل عكسه، كما قال السموأل بن عادية في قصيدته المشهورة:

ومـــا ضـــرنا أنّـــا قـليــلٌ وجـــارُنا عـــزيز وجــــار الأكـــثرين ذلـيـــل

فالذليل يقابل العزيز، والذلة تقابل العزة، كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] يعني: أذلةٌ في أعين أعدائكم، يرونكم أذلةً بسبب قلة العدد، وبسبب ضَعف السلاح الذي كان يحمله المسلمون يوم بدرٍ. فالذلة هي المهانة ونزول القدر، وهي بعكس العزة.

"**رِضَى الذَلِيلِ بِخَفْضِ العَيشِ**" و"**خفض العيش**" هو: سَعَته ولينه ورَغده، وهو من الألفاظ المستغرَبة؛ لأن أصل المادة يقتضي أن يكون خفضُ العيش هو ضيقُهُ وليس سَعته؛ لأن أصل المادة يقابل الرفع والخفض، فإذا قيل: "معيشته مرتفعة" فُهِم منها السعة، ونقيضها المنخفضة وهي الضيقة، ولكن هكذا تكلمت العرب بهذه الكلمة، وأطلقت خفض العيش على سَعَته، ولينه، ورغده، ونحو ذلك، "**رِضَى الذَلِيلِ بِخَفْضِ العَيشِ مَسْكَنَةٌ**": "**مَسْكَنَةٌ**" يعني: عجزٌ وفقرٌ.

"**وَالعِزُّ عِنْدَ رَسِيمِ الأَيْنُقِ الذُلُلِ**": الرسيم هو: السير السريع، أو المشي الشديد والسريع يقال له: رسيمٌ في لغة العرب. كأنَّ الماشي يرسِمُ آثاره على الأرض من شدة الوطء وسرعة المشي؛ لهذا يقولون: "ناقةٌ رَسُومٌ".

إذا كانت شديدةً في سيرها بحيث تترك آثارها في الأرض، ومنه سُمي الصحابي رسيم العبد –رضي الله عنه–، أحد أصحاب النبي ﷺ، وهو الوحيد الذي سُمي في الصحابة بهذا الاسم، رسيم العبد من بني عبد القيس، وكان يسكن في هَجَر، وله حديثٌ واحدٌ في السنة، حديث النبيذ في الأوعية، فسُمي بهذا الاسم من هذا المعنى، ولوحظ في تسميته هذا المعنى اللغوي.

"**وَالعِزُّ عِنْدَ رَسِيمِ الأَيْنُقِ**": "**الأَيْنُقِ**" جمع قِلّة لِـ"ناقة"، على وزن أفعُل، وأصله أَنْوُق، ولكن وقع فيه قلبٌ وإبدال، فقيل له: أَيْنُق.

"**عِنْدَ رَسِيمِ الأَيْنُقِ الذُّلُلِ**": "**الذُّلُلِ**" جمع ذَلول، والذلول يطلق على الناقة السهلة التي لا تَجمحُ براكبها، فالناقة السهلة واللينة توصَف بأنها ذلول، ناقةٌ ذلول.

كما تُطلق أيضًا على الأرض الممهدة، الأرض إذا كانت ممهدةً يقال لها: أرضٌ ذلول. كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ يعني: ممهدة؛ لأن الأرض إذا لم تكن ممهدةً فالسير فيها من أصعب الأشياء، لكنَّ الله من رحمته مهَّد هذه الأرض للسير فيها.

ومنه أيضًا على أحد التفسيرَين قوله تعالى: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾. ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨] إلى أن قال: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النحل: ٦٩] فالذلل هنا يَحتمل أنها حالٌ من السبل ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾؛ فيكون المقصود: الطرق الممهدة، ويحتمل أنها حالٌ من النحل، "اسلكي ذللًا"؛ يعني طائعةً منقادةً، فتكون من المعنى الثاني: ناقةٌ ذلولٌ إذا كانت طائعةً، ومنقادةً، وسهلةً لا تجمح بصاحبها، فالآية تحتمل أن تكون من المعنى الأول، وتحتمل أن تكون من المعنى الثاني أيضًا.

- **ومعنى هذا البيت:**

أنَّ رضا الإنسان وركونه إلى الدَّعة، ورغد العيش، والترف، وترك العمل والسعي والمجاهدة لتحصيل معالي الأمور؛ هذا نقصٌ وعجزٌ في صاحبه، يعتبر نقصًا وعجزًا في صاحبه، من ركن إلى الدنيا وإلى رغد العيش، وترك السعيَ إلى معالي الأمور، وتحصيل مراتب الأعمال الفاضلة؛ فإن هذا عيبٌ في نفسه، ونقصٌ في علمه أيضًا.

وأما من أراد العزة وأراد المكانة والشرف فكما قال: "**عِنْدَ رَسِيمِ الأَيْنُقِ الذُلُلِ**". من أراد أن يحوز على العزة والشرف والمكانة في الدنيا وفي الآخرة، فلا ينبغي له أن يرضى بالركون إلى الدَّعة ولا يرضى بالركون إلى الذلة، فالمكان الذي يجعله ذليلًا قليلًا لا يستطيع أن يسعى لمعالي الأمور ينبغي له أن ينتقل منه إلى مكان آخر، يستطيع أن يعيش فيه عزيزًا كريمًا، كما فعل النبي ﷺ لما حورب الصحابة في مكة، وغُلِّقت عليهم الأبواب، ولم يعد هناك مجالٌ لنشر الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، فالنبي ﷺ ترك مكة رَغم حبه لها، وهاجر إلى المدينة حيث استطاع أن يقيم فيها شرع الله سبحانه وتعالى، وأن يعيش فيها حياةً إسلاميةً تُرضي الله عز وجل، بل إن القرآن يسمي هذا ظلمًا للنفس، يجعل بقاء الإنسان في المكان الذي يُستضعف فيه ولا يستطيع أن يقيم فيه دين الله وشرعه، جعله ظلمًا للنفس، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]

وبعدها في الآيات قال: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]، ليس في أمور الدين، حتى في أمور الدنيا، ﴿مُرَاغَمًا كَثِيرًا﴾ يعني ستجِدُ أماكنَ تُراغم فيها عدوكَ الذي استضعفك، ﴿وَسَعَةً﴾ تجد فيها سعةً في الرزق، يفتح الله عليك من أبواب الرزق ما لا تدركه، فلا تستسلم، ولا تقل: أنا مستضعف لا أستطيع، المكان الذي لا تستطيع أن تقيم فيه شرع الله ودين الله، وأن تحيا فيه حياة ترضي الله سبحانه وتعالى، وحتى أيضًا في أمور الحياة الدنيا ضاقت عليك، اضرب في مناكب الأرض، ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]

وهذا وعدٌ من الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾. وهكذا وجدنا كلَّ من هاجر من بلدٍ إلى بلد، وكان مخلصًا في ذلك إلا أبْدلهُ الله سبحانه وتعالى حالًا أحسن من حاله.

البيت الرابع والثلاثون: فَادْرَأْ بِـــهَا فِي نُحُورِ البِيدِ جَافِلَةً ..مُعَارِضَـاتٍ مَثَـانِي اللُّجُمِ...

يقول الشاعر الطُغرائي -رحمه الله-:

فَـادْرَأْ بِـــــهَا فِي نُحُـورِ البِيــدِ جَافِلَـةً مُعَارِضَـــاتٍ مَثَـــانِي اللُّجْـمِ بِالجُــدَلِ

الشرح:

"**جَافِلَةً**" أو "**حَافِلَةً**"، حسب النُسَخ جاءت روايةُ هذا البيت بالمنقوطة: "**جَافِلَةً**"، وبالمهملة: "**حَافِلَةً**".

"**فَادْرَأْ بِهَا**": ادرأ يعني ادفع، الدرء هو: الدفع، كما قال الله تعالى: ﴿فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨] "ادرؤوا" أي: ادفعوا، فالدَّرْءُ هو الدفع.

"**فَادْرَأْ بِهَا فِي نُحُورِ البِيدِ**": النحور: جمع نَحْرٍ، والنحرُ أعلى الصدر، وموضع القلادة يقال له نحْر، ومنه نحْرُ الإبل؛ لأنها تُضرب في هذه المنطقة وفي هذا المكان، "نَحَر الإبل"؛ يعني ضربها في هذا الموضع، ومنه أيضًا حتى في الأساليب المجازية عندما يقولون: العالِم النِّحْرير. يعني كأنه نَحَرَ العِلم نحرًا! من كثرة إحاطته بالعلم وسعة باعِه فيه، كما يقال: "قتل المسألة بحثًا". فالنحور هي أعالي الصدور.

و"**البِيد**": هي الصحراء، والمفاوز، والفَيافي، والقِفَار، وقيل لها بيد؛ لأنها يَبيدُ من فيها، يهلك من فيها؛ لعدم وجود أسباب العيش فيها، والعرب سمتها "مَفازة" أحيانًا من باب التفاؤل، أن من دخلها يفوز بالسلامة والنجاة منها، وإلا فهي في الأصل يَبيد من دخل فيها إذا لم تكن معه أسباب العيش.

"**فَادْرَأْ بِهَا فِي نُحُورِ البِيدِ جَافِلَةً**": "**جَافِلَةً**" بالمنقوطة يعني: مُسرعة، جفَلَ وانجفَلَ أي: أسرعَ، ومنه حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه: "لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل الناس إليه" [سنن الترمذي: ٢٤٨٥] "انجفل إليه الناس" يعني: أسرع إليه الناس، ومنه دعوةُ الجَفَلى في الفقه، في الدعوة إلى الوليمة.

نحن في المشتاة ندعو الجفلى　　　لا ترى الآدِب فينا ينتقر

دعوة الجفلى يعني: الدعوة العامة المفتوحة، وقيل لها الجفلى؛ لأنه يُسرع إليها ضعاف الناس، فأصلُ مادة جفَلَ هي تدل على الإسراع إلى الشيء في الإقبال عليه أو في الهروب منه أيضًا.

وأما بالمهملة: فهي بمعنى الاجتماع، "**حَافِلَةً**" بمعنى: محتفلة، أي مجتمعة، الحفل والاحتفال هذا كله بمعنى الاجتماع على الشيء والاهتمام الزائد به.

"**مُعَارِضَاتٍ مَثَانِي اللُّجْمِ بِالجُدَلِ**": "**مُعَارِضَاتٍ**" جمع مُعارِضة، مأخوذٌ من المعارَضة، والمعارضة هنا بمعنى المسايرة، والمساواة، والمشابهة، فيقال: عارضه بكذا، يعني فعَل مثلَ فعله، وأتى بمثل قوله، ومنه المعارضة الشعرية، "عارضه بالشعر" يعني: قال قصيدةً مثل ما قال الشاعر الأول، مثل شركة العِنان في الفقه، أن يدفع كل واحدٍ منهما مالًا مثل مال صاحبه، وعملًا مثل عمل صاحبه، فبينهما معارضة. ومنه الحديث أنَّ جبريل عليه السلام كان يعارض النبي ﷺ القرآن في كل سنة مرة، ثم عارضه في آخر سنةٍ مرتين، "**عارضه**" هنا المعارضة بمعنى: المحاكاة، والمماثلة، والمساواة، والموازاة، والمسايرة، "**عارضه في مشيته**" يعني: مشى بجواره، وفعل مثل فعله.

وليست المعارضة دائمًا بمعنى المعاندة والمقابلة والتصدي للشيء؛ ولهذا المعارضة السياسية ليس دائمًا يعني المطلوب أن تتصدى لكل ما يصدر من الحكومة، أحيانًا إذا كان الصادر صوابًا، ويحقق مصلحةً فليس من مفهوم المعارضة أنك تعارض في الحق وفي الباطل، فالمعارضة ليست دائمًا هي بمعنى التصدي والمعاندة والمقابلة، لا، حتى في اللغة معارضةٌ تأتي بمعنى: المماشاة والموازاة والمساواة ونحو ذلك، أن تسير بجانب الشيء، فمنه هذا المعنى: **"مُعَارِضَاتٍ مَثَانِي اللُّجْمِ"**.

"مَثَانِي": أصله من الثَّنْيِ، وهو العطف والتكرار، وأتى به مرةً ثانية. ثنَّاه: يعني أتى به مرةً ثانية، أو عطفه وكرره مرةً بعد أخرى.

ومنه السبع المثاني: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

والمثاني كما فسَّرها النبي ﷺ في حديث أبي سعيد بن المعلّى: " قالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي السَّبْعُ المَثانِي، والقُرْآنُ العَظِيمُ الذي أُوتِيتُهُ" [البخاري: ٥٠٠٦]، فهذا تفسيرٌ من النبي ﷺ لهذه الآية، وأن المقصود من السبع المثاني هي هذه السورة الكريمة، سورة الفاتحة، وقيل لها المثاني كما قال الصحابة؛ لأنها تُثَنَّى في كل ركعة، يعني تكرر وتُقرأ مرةً بعد أخرى في كل ركعة من الصلاة.

"مَثَانِي اللُّجْمِ" أيضًا يعني ما انعطف منها على عنق الفرس أو الدابة.

و**"اللُّجم"** بضم الجيم وسكونها هي: جمع لجام، واللجام هو: خِطام الدابة، أو الزمام الذي تقاد به الدابة، ولا يختصُّ بالخيل. وبعض العلماء يرى أنها فارسيةٌ مُعرَّبة، وليست عربية، لكن الصواب أن هذه الكلمة جاءت مستعملةً في فصيح الكلام، وفي شعر العرب، بل حتى في كلام أفصح الخلق ﷺ لما قال: "من سُئل عنْ علمٍ فكتمهُ ألجمهُ اللهُ بلجامٍ مِنْ نارٍ يومَ القيامة" [الترمذي: ٢٦٤٩]، ولما جاءته المستحاضة قال لها: "فَتلجَّمي" [الترمذي: ١٢٨]. والأصل في الاستعمال العربي أنه عربيٌّ، ومن ادعى أنها فارسيةٌ معرَّبةٌ يحتاج إلى إقامة الدليل على هذا.

فاللجم: جمع لجامٍ وهي كلمةٌ عربيةٌ فصيحة، وهي بمعنى الزمام أو الخطام الذي تُزم به الدابة.

"بِالجُدُلِ": الجُدل جمع جديل، فَعيل بمعنى مفعول، وهو أيضًا الخطام المجدول، يعني المفتول بشدة، الذي فُتِل بشدة، وهو أيضًا بمعنى الخطام أو الزمام الذي يوضع على الدابة لتقيّد حركتها بها.

- **ومعنى هذا البيت يقول:**

إذا عرفتَ أن رضا الإنسان بالذلة، وبرغدِ العيش أيضًا مسكنةٌ وعجزٌ ونقصٌ في الإنسان، فادرأ بها نحور البيض، يعني إذا أردتَ العزة والخروج من الذلة، عليك بالانتقال ومواجهة الأخطار، ولا ترضى بالعيش الذليل.

"**فَادْرَأْ بِهَا فِي نُحُورِ البِيدِ جَافِلَةً**" حتى لو قطعت الفيافي والصحاري والقفار، فادرأ بها نحور البيد، وأيضًا عارض بين لجام الخيل وبين خطام الدابة أو الناقة فلا تقتصر على هذا؛ وهذا على طريقة العرب في السفر، إذا أرادوا أن يسافروا جمعوا بين الخيل وبين الناقة، المسافات الطويلة يركبون فيها النوق، والمسافات القصيرة يركبون فيها الخيل، وأحيانا يُراوِح بينهما حتى تستريح الدابة دون الأخرى. والمقصود بهذا أنَّ الإنسان يأخذُ بكل أسباب العزة والمكانة وتحقيق المصالح الدنيوية والأخروية، ولا يَركنُ إلى العجز والضعف، ولا يركنُ إلى دَعَة العيش، فإن المسلمَ عزيزُ النفس لا يرضى بالذلة مهما كانت.

البيت الخامس والثلاثون: إنَّ العُـــلَا حَدَّثَتْنِي وَهْيَ صَادِقَةٌ ..فِـي مَـا تُحَدِّثُ أَنَّ العِزَّ...

يقول الشاعر الطُغرائي –رحمه الله–:

إنَّ العُـــــلَا حَـــدَّثَتْنِي وَهْـــيَ صَـــادِقَةٌ   فِـــي مَـــا تُحَــدِّثُ أَنَّ العِــزَّ فِي النُقَــلِ

الشرح:

"**النُقَلِ**": جمع نُقلة، ويقال "نِقلة" أيضًا بكسر النون، وهي: الانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ آخر.

والشاعر يقول: "**إنَّ العُلَا حَدَّثَتْنِي**". فنسبَ الحديثَ إلى العلا، والعلا بمعنى الشرف والمكانة والفضيلة، هذه أمورٌ معنويةٌ لا يصدرُ منها الحديث والكلام، ولكنه أسلوبٌ من أساليب العرب، يُعبرون بهذا عن الأمور المعنوية في التعبير، كما قال الشاعر:

امـــــتلأ الحــــــوض وقـــــال قَطِـــــني   مهـــــلًا رويـــــدًا قـــــد مـــــلأت بطـــــني

والحوض لا يقول: قطني. لكن هذا أسلوبٌ من أساليب العرب المجازية في التعبير. "**وقالت له العينان سمعًا وطاعةً**". والعينان هي لا تقول سمعًا وطاعة، لكن تدل على هذا المعنى بحالها. "**وقالت له الطير أهلًا وسهلًا**... ونحو ذلك من العبارات.

فهذا أسلوبٌ من أساليب العرب ينسبون الحديث إلى من لا يصدر منه الحديث تنزيلًا له منزلةَ العاقل، ومن باب تشجيع النفوس على الاستماع لهذا المعنى وقبوله والعمل به. فيقول:

إنَّ العُــــــلَا حَـــدَّثَتْنِي وَهْـــيَ صَـــادِقَةٌ   فِـــي مَـــا تُحَـــدِّثُ أَنَّ العِــزَّ فِي النُقَــلِ

- **ومعنى هذا البيت يقول:**

العلا حدثتني حديثًا صادقًا أن العزة والشرف والمكانة في الانتقال من مكانٍ إلى مكان. المقصود من هذا أن الإنسان كما ذكر في الأبيات السابقة لا يركن إلى الذلة والقلة، ولكن يضرب في مناكب الأرض، يسعى في طلب رزقه، يسعى في عزة نفسه، يسعى في إقامة دينه، لكلِّ هذه العلا وهذه الفضائل التي جاء بها الشرع.

البيت السادس والثلاثون: لَو أنَّ فِي شَرَفِ المَأْوَى بُلُوغَ مُنَىً ..لَمْ تَبْرَحِ الشَمْسُ يَوْمًا...

يقول الشاعر الطُغرائي –رحمه الله-:

لَـــو أنَّ فِي شَـــرَفِ المَـــأْوَى بُلُـــوغَ مُـــنَىً   لَـــمْ تَـــبْرَحِ الشَـــمْسُ يَوْمًـــا دَارَةَ الحَمَـــلِ

الشرح:

طبعًا البيت السابق هو من باب التعليل للمعاني السابقة، عليك بالانتقال وكذا وكذا، لماذا؟ لأن العلا حدثتني أن العَزّ في النُّقلِ. وهنا يريد أن يقيم الدليل على هذا المعنى الذي أشار إليه، وهو الانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ الى آخر، فقال: "لَو أنَّ فِي شَرَفِ المأْوَى": "المأْوَى": هو المكان الذي يأوي إليه الإنسان سواءٌ كان بالليل أم بالنهار.

"**بُلُوغَ مُنَىً**"، البلوغ هو الوصول، والمنى ما تتمناه النفس.

"**لَمْ تَبْرَحِ الشَمْسُ**": يعني لم تتجاوز، ولم تتعد، كما في قوله تعالى: ﴿لَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ [يوسف: ٨٠]، يعني لن أتجاوز هذه البقعة ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾.

"**لَمْ تَبْرَحِ الشَمْسُ يَوْمًا دَارَةَ الحَمَلِ**": الدَّارَة ما يدور حول الشيء، ومنه دارة البيت، ما حولها من الباحة والساحة. ومنه دارة القمر، وهي: الهالة التي تكون حول القمر؛ فالدارة بهذا المعنى.

و"**الحَمَل**": أحدُ بروجِ الشمس الاثني عشر التي تواضعَ علماء الفَلك على تقسيم الفلك على هذه البروج الاثني عشر، وسمَّوا كل برجٍ بِاسْمٍ معين، ومنها برج الحَمَل؛ وبرج الحَمَل هذا إذا جاءت الشمس فيه فهذا أوان الربيع، وأوان اعتدال الهواء، وخروج الأزهار والنباتات... ونحو ذلك.

فهو يقيم الدليل على ما سبق من أن العِزَّ في النُّقَلِ، فيقول: انظر إلى الشمس وهي في أفق السماء، هي شمسٌ عالية، ومع هذا لم تلزم دارة الحَمَل، لو أن الإنسان ببقائه في المكان يبلغ الكمال والفضل، لبقيت الشمس في برج الحمل؛ لأنه هو أجمل وأشرف زمانها، وفيها الهواء معتدل، فلو كان في البقاء شرف لَلزِمت الشمس برج الحَمَل، ولم تتجاوز إلى الأبراج الأخرى، ولكن مع هذا هي تتنقل من برجٍ إلى برجٍ آخر، ولا تمكث في مكانٍ واحدٍ.

فهو يريد أن يعطيك دليلًا فلكيًا وظاهرةً من الظواهر الكونية على شرف الانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ آخر.

ولا شك أن هذا الانتقال يعطي الإنسان معارفَ جديدةً، وربما يُغيّر من بعض السلبيات والنقائص عنده، فإن الإنسان لا يعرف عيب نفسه حتى يخالطَ غيره من الناس، ويسمعَ ما عند الناس، وربما لم يتَنَبَّه إلى أن النقص عنده إلا إذا خالط الآخرين، ومن ألِف أن يشرب -كما يقول ابن حزم- من بئرٍ واحدة، غابت عنه حقائق المياه، فلو أنه انتقل إلى بئرٍ أخرى وشرِب منها لاكتشف أن الماء الذي كان يشرب منه كان أُجاجًا في مقابل الماء الذي وجده بعد ذلك!

فالانتقال والسفر ومخالطة الناس فيها فوائدُ كثيرةٌ، تعطي الإنسان معارفَ جديدة، تعرفه بأشياءٍ كثيرة، وفي نفس الوقت يظهر له ما عنده من القصور والنقص في أشياءٍ كثيرة؛ ولهذا كان العلماء قديمًا حريصين على السفر في طلب العلم، والرحلة في طلب العلم، ومقابلة العلماء، والجلوس إليهم، والسماع منهم، ولم يكتفوا بمجرد قراءة الكتب وجمعها؛ لأن الإنسان بمخالطة الناس واستماع ما عندهم، والتنقل من مكانٍ إلى مكانٍ تزداد معرفته، ويزداد علمه بالأشياء، هذا معنى قوله:

لَــو أنَّ فِي شَــرَفِ المَــأْوَى بُلُــوغَ مُــنىً   لَــمْ تَــبْرَحِ الشَــمْسُ يَوْمًــا دَارَةَ الحَمَــلِ

البيت السابع والثلاثون: أَهَبْتُ بِالحَظِّ لَو نَادَيتُ مُسْتَمِعًا ..وَالحَظُّ عَنِّيَ بِالجُهَّالِ...

يقول الشاعر الطُغرائي –رحمه الله–:

أَهَبْتُ بِالحَظِّ لَو نَادَيتُ مُسْتَمِعًا وَالحَظُّ عَنِّيَ بِالجُهَّالِ فِي شُغُلِ

الشرح:

"**أَهَبْتُ بِالحَظِّ**"، أهاب بالشيء يعني ناداه وصاح به، كما يقال: "أهاب الراعي بغنمه". يعني صاح عليها لترجع أو لتغيّر مسارها.

"**أَهَبْتُ بِالحَظِّ**": الحظ بمعنى النصيب. والمراد هنا: الرزق.

أَهَبْتُ بِالحَظِّ لَو نَادَيتُ مُسْتَمِعًا وَالحَظُّ عَنِّيَ بِالجُهَّالِ فِي شُغُلِ

"**وَالحَظُّ عَنِّيَ**": هنا أظهر النصب بينما في البيت السابق: "مُعَارِضَاتٍ مَثَانِي اللُّجُمِ" لم يُظهر النصب هنا؛ مراعاةً للوزن؛ لأنه لو قال هناك معارضاتٍ مثانيَ لانكسر الوزن.

فقال: "**وَالحَظُّ عَنِّيَ بِالجُهَّالِ فِي شُغُلِ**": الشُغُل والشُغْل بمعنى الاشتغال بالشيء والالتهاء به عن الأشياء الأخرى. فـ"**أَهَبْتُ بِالحَظِّ**": يقول: ناديت حظي ونصيبي لو ناديتُ مستمعًا. هذه الصيغة بمعنى أنه لم يستمع إليه، استبعاد التفاتِهِ واستماعه إليه.

"**وَالحَظُّ عَنِّيَ بِالجُهَّالِ فِي شُغُلِ**" يعني: مشغولٌ هو بأهل الجهل والنقص. وهو يشير بهذا إلى أن أمور الحياة الدنيا ليست مرتبطةً بالفضل والعلم؛ لا يلزم أن يكون أفضل الناس وأعلمهم هو أغناهم وأيسرهم أمرًا، فقد يكون أفضلُ الناس أشقاهُم في الأمور الدنيوية، وأفضلهم في الأمور المعنوية أشقاهُم في الأمور المادية، وهذا كثيرٌ؛ الفقر في العلماء وأهل الدين والعبادة أكثر من الغنى فيهم، فقالوا: إن الفقيه هو الفقير، وإنما راء الفقير تجمعت أطرافها، الراء زادت هكذا قليلًا وانقلبت إلى هاء.

قلت للفقر أين أنت مقيم؟ قال في عمائم الفقهاء

إن بيني وبينهم إخاءً وعزيزٌ عليَّ تركُ الإخاءِ!

لماذا؟ لأنهم انشغلوا عن تحصيل الأمور الدنيوية بتحصيل العلم والمعرفة، ومن سنن الله تعالى أن من قلَّ حظه في الأخذ بأسباب الدنيا، قلَّ نصيبه من نتائجها وثمراتها، لكنهم رضوا بذلك؛ لأنهم حازوا على العلم الذي هو أعز مكانةً ونفاسةً من المال؛ فالمال يفنى والعلم يبقى، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فهُم حُرموا من كثرة الأموال والغنى ولكنهم راضون بهذا، بل سعداء بهذا؛ لأنهم يريدون الكفاية، ويعلمون أن الدنيا دارُ معبرٍ، وليست دار مكث، فلهذا عاشوا بالكَفَاف ورضوا بالكفاف، بل طلبوا الكفاف.

النبي ﷺ قال: "اللهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا" [البخاري: ٦٤٦٠]. يعني: بقدر ما يكفيني بحيث لا أحتاج إلى الناس.

فهو يشير إلى أن أمور الرزق، وأمور المادة وهذه الأمور في الحياة الدنيا، ليست محصورةً في أيدي أهل الفضل، بل بالعكس هي عند أهل الجهل أكثر، كما قالوا: "الدهر يتبع أضعف المقدمتين". أو أخس المقدمتين، كما أن النتيجة تتبع أضعف المقدمتين، النتيجة في القياس المنطقي تتبع أضعف المقدمات، إذا كانت مقدمةٌ ظنيةٌ ومقدمةٌ قطعيةٌ فالنتيجة تكون ظنية، فقالوا: هكذا أمور الحياة الدنيا، يعني تتبع أراذل الناس.

البيت الثامن والثلاثون: لَـعَلَّهُ إِنْ بَـدَا فَـضْلِي وَنَقْصُهُمْ ..لِعَـيْنِهِ نَـامَ عَـنْهُمْ...

يقول الشاعر الطُغرائي -رحمه الله-:

لَـعَلَّهُ إِنْ بَـدَا فَـضْلِي وَنَقْصُـهُمُ   لِعَـيْنِهِ نَـامَ عَـنْهُمْ أَوْ تَـنَبَّهَ لِي

الشرح:

"لَعَلَّهُ": هذا تعليلٌ لهذا النداء الذي ذكره في البيت السابق، يعني: ناديت حظي لعله إن بدا فضلي ونقصهم، يعني: لعله ينظر إلى ما أكرمني الله به من الفضل، وما ابتُلي به الآخرون من النقص.

"لِعَيْنِهِ نَامَ عَنْهُمْ أَوْ تَنَبَّهَ لِي": لعله يتنبَّه لي، وينقاد إليَّ، وينام عن هؤلاء الجهال.

"نَامَ عَنْهُمْ": هذا أيضًا تعبير مجازي، **"نام عنه"** يعني تركه وأعرض عنه، **"نام عني الشر"** يعني: تركني وأعرض عني، **"وعين الدهر راقدة"** -كما قال الشاعر- فهذا أمرٌ معنوي، ليست العين بالمعنى الحقيقي المعروف، فهذا تعليلٌ للبيت السابق:

لَـــعَلَّهُ إِنْ بَـــدَا فَـــضْلِي وَنَقْصُـــهُمُ لِعَـــيْنِهِ نَـــامَ عَـــنْهُمْ أَوْ تَـــنَبَّهَ لِي

البيت التاسع والثلاثون: أُعَـلِّلُ النَـــفْسَ بِالآمَـالِ أَرْقُبُهَا ..مَـا أَضْيَقَ الْعَيشَ لَوْلَا...

يقول الشاعر الطُغرائي -رحمه الله-:

أُعَـــلِّلُ النَـــــفْسَ بِالآمَـــالِ أَرْقُبُهَـــا مَـــا أَضْـيَقَ الْعَـيشَ لُـوْلَا فُسْـحَةُ الأَمَـلِ

الشرح:

وفي بعض النسخ: "**مَا أَضْيَقَ الْعُمْرَ لَوْلَا فُسْحَةُ الأَمَلِ**"،

وفي نسخةٍ ثالثة: "**مَا أَضْيَقَ الدَّهْرَ لَوْلَا فُسْحَةُ الأَمَلِ**".

"**أُعَلِّلُ النَفْسَ**": أعلل النفس يعني ألهيها، علّله بكذا يعني: ألهاه، أشغله بكذا.

"**أُعَلِّلُ النَفْسَ بِالآمَالِ**": الآمال جمع أمل، وهو ما يتمناه المرء، ويتوقع حصوله، ويرغب في حصوله، فالأماني والآمال هي: الرغبات التي ترغبها النفس وتتمناها.

"**أَرْقُبُهَا**": يعني أرصدها وأنتظرها.

"**مَا أَضْيَقَ الْعَيشَ لَوْلَا فُسْحَةُ الأَمَلِ**": "**لولا**" كما يقولون حرف شرطٍ يفيد امتناع الشيء لوجود غيره. "لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُوا عَهْدٍ بِشِرْكٍ لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ" [البخاري: ١٥٨٦]، يعني: لولا وجود هذه الحداثة بالكفر لفعلت كذا، لكن لم أفعل لوجود هذا المعنى.

"**لُوْلَا فُسْحَةُ الأَمَلِ**": الفسحة: يعني السعة، ﴿تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١١]، فالفسحة هي: السعة.

فهو يقول في هذا البيت: بأنني أعلل نفسي بالآمال، أي أُشغلها وألهيها في هذه الدنيا بالآمال والرغبات، وهذا فيه راحةٌ للنفس، الإنسان لما يتأمل في أمنياته وآماله ترتاح نفسه نوعًا ما؛ لهذا كان بعض الصحابة عندما يجلسون يقال له: تمنى يا فلان، ماذا تتمنى أنت؟ يقول: أتمنى كذا وكذا، والآخر يقول: أتمنى كذا وكذا. وعمر -رضي الله عنه- قال: "**أما أنا فأتمنى بيتًا مليئًا من أمثال أبي عبيدة أستعملهم في هذا الأمر**".

فذِكرُ الأمنيات فيها راحةٌ للنفس من نكد الحياة وشدتها، وإن كانت تعللنا ببعض ما لا يكون كما يقول الشاعر، لكن هذه الأمنيات فيها نوعٌ من إراحة النفس وتوسعة الحياة على النفس التي ضاقت عليها أمور الحياة.

أُعَلِّلُ النَفسَ بِالآمَالِ أَرْقُبُهَا مَا أَضْيَقَ الْعَيشَ لَوْلَا فُسْحَةُ الأَمَلِ

يعني أن العمر محدودٌ وقصير، لولا أن الأمل هو الذي يطوِّله، أمل الإنسان هو الذي يجعله يُحِس بأن الحياة طويلة، وإلا فالعمر قصير، وأيامه محدودة مهما عشت، يعني الستين السبعين، فهي أيامٌ معدودة جدًا، كما قيل للإمام أحمد لما سُئل عن الشباب، فقال: "**ما شبهت الشباب إلا بشيءٍ كان في كُمي فسقط**". يعني شيءٌ في جيبي وسقط، يشير إلى سرعة انقضاء فترة الشباب والحياة عمومًا.

وهذا الأمل هو هذا دوره، يعني الله سبحانه وتعالى جعله جِبلةً في الإنسان، وطبعًا فيه؛ من أجل أن تُعمَّر هذه الحياة الدنيا؛ لأنه بدون هذا الأمل لا يسعى الإنسان في شيءٍ من مصالح الدنيا، يقول لك: يا أخي ما دام نهايته الموت والخراب، لماذا نُعمِّر الدنيا ونسعى فيها؟!

فالإنسان لو نظر إليها من الناحية العقلية لربما كفَّ عن تعمير هذه الحياة الدنيا، لكن الله لا يريد هذا منا، هو يريد أن نُعمِّر هذه الحياة الدنيا ونسعى في إصلاحها، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] يعني: طلب منكم عمارتها؛ ولهذا غرس فينا هذا الأمل لنعمل في هذه الحياة، ولهذا قالوا: "**لولا الآمال لانقطعت الأعمال**". لولا آمال الناس وأحلامهم لانقطعت الأعمال، لولا أمل الأم في أن طفلها هذا يكبر ويصير رجلًا صالحًا أو عالمًا أو شيئًا يفيد الأمة لما تعبت في تربيته وإطعامه وسهرت من أجله، لكن هذا الأمل في أن يصنع الله من ولدها رجلًا تصلح به الدنيا، هو الذي جعلها تفعل هذا.

لولا الأمل ما أطعمت الطيورُ صغارَها في الأعشاش، لولا الأمل ما تَاجَر تَاجِرٌ، لولا الأمل في الربح ما تاجَر أحد، لكن رجاءه وأمله في أن يربح يجعله يخاطر بأمواله، فالأمل هذا طبعٌ جعله الله سبحانه وتعالى في الإنسان، والعجيب في هذا الطبع أنه يقوى إذا ضَعُف الإنسان، كلما ضَعُف الإنسان يقوى فيه هذا الأمل حتى لا يستسلم؛ ولهذا إذا ضعفت قوة الإنسان زاد أمله، كما قال ﷺ: "يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَبْقَى مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ والْأَمَلُ" [البخاري: ٦٤٢١].

فكلما ضعف الإنسان اشتد عنده الأمل، وأشدُّ ما يكون الإنسان أملًا في الحياة وهو على مشارف الآخرة، ويجتهد في الأخذ بأسباب الحياة، وتعبِ الأطباء بالسؤال والجواب وكثرة الأدوية، فهذه من حكمة الباري سبحانه وتعالى أنه غرس في الإنسان الأمل من أجل أن تُعمّر هذه الحياة الدنيا.

عماد الكاتب يقول:

ولـــم أر شـيـــئًا مثـــل دائـرة الـمـنُى توسعـــها الآمـــال والعمـــر ضـــيِّق

دائرة الآمال يعني يوسعها، هذه الآمال، مع أن العمر ضيق، ولهذا تجد أن كل إنسانٍ أشرف على الموت ولا تزال عنده أحلامٌ وأمنيات، ولا يوجد واحدٌ قال: أنا انتهيت، حققتُ كل آمالي وكل أحلامي!

وهذه حال الدنيا، الإنسان يخرج منها وما قضى أرَبَه منها وحاجته فيها، فالعاقل لا ينخدع بطول الأمل، يدرك أن الأمل له وظيفةٌ وحِكمةٌ أوجدها الله في نفسه، لكن لا يغتر بها، المصيبة في إلهاء الأمل، أن الأمل هذا يُلهيك عن مصيرك، يُلهيك عن آخرتك، يلهيك عن ذكر الله سبحانه وتعالى، هنا المشكلة، دخلت في دائرة الخطر.

لكن الأمل هو له وظيفةٌ، حاوِلْ أن تجعلها في دائرتها، لا تطوِّل هذه الآمال، لا تطوّل حبالك فإن الموت أسرع من ذلك، فالإنسان يحذر من طول الأمل، ولهذا قال الله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ [الحجر: ٣] هي المصيبة في أن الأمل يلهيك عن آخرتك، العاقل يعمل في هذه الدنيا، ولكن عيناه في آخرته، عيناه في مصيره، في الحفرة التي ستدخلها في النهاية.

البيت الأربعون: لَـمْ أَرْضَ بِالـعَيشِ وَالأَيَّـامُ مُقْبِلَةٌ ..فَكَيفَ أَرْضَى وَقَدْ وَلَّتْ عَلى عَجَـلِ

يقول الشاعر الطُغرائي –رحمه الله–:

لَـــمْ أَرْضَ بِالـــعَيشِ وَالأَيَّـــامُ مُقْبِلَـــةٌ فَكَيـفَ أَرْضَـى وَقَـدْ وَلَّـتْ عَلـى عَجَــلِ

الشرح:

"**العَجَل**" من العجلة، وهي: ترك التأني، عدم التأني في الأمور، الاستعجال فيها، وهذا طبعٌ في الإنسان كما قال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء ٣٧]، وعجَل هنا كما ذهب جماهير المفسرين هي بمعنى ترك التأني في الأمور.

وقال بعض العلماء: ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ يعني من طين، فسَّر العجل بالطين، وهذه لغةٌ لِحمير، وقال شاعرهم: "والنخل ينبت بين الماء والعَجَلِ". يعني: بين الماء والطين، وأكدوا هذا بالآيات الأخرى أن الإنسان خلق من طين، ولكن سياق الآية يرجّح قول الجمهور؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ هذه قرينةٌ تُرجّح مذهب الجمهور من أنَّ العجل هنا بمعنى ترك التأني، وهذا الأصل أن الآية تُفسَّر بالمعنى الغالب في اللغة، لا بالمعنى النادر الذي لا تعرفه إلا بعض العرب، فالعجل هنا بمعنى ترك التأني.

فهذه الآية تفيد كما في الآية الأخرى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] فهذه الآية الأخرى هي تفسِّر هذه الآية الكريمة، فالآية تدل على أن العجلة أو التعجل في الأمور، واستعجال النتائج طبعٌ وجِبلةٌ في الإنسان. لكن هنا ينشأ سؤال: إذا كان التعجل طبعًا في الإنسان، فكيف ينهى الله عنه في آخر الآية ويقول ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾؟ كيف يُنهى الإنسان عن أمر جِبِليّ فيه؟ أليس هذا من باب التكليف بالمحال؟

والجواب عن هذا: **أن التعجل هو طبعٌ في الإنسان وجبلةٌ فيه، ولكن الإنسان أقدره الله سبحانه وتعالى على التحكم في هذا الطبع، وعلى لَجْمه وعلى التصرف فيه**، كما هو الحال في الشهوات الأخرى، يعني ميلُ الإنسان إلى الجنس الآخر هذا طبعٌ في الإنسان، الشهوات كلها أو كثيرٌ منها طبعٌ وجِبِلة: الطعام والشراب، النكاح...، لكن الله أقدرك على التحكم في هذه الجبلة، أعطاك القدرة أنك تمتنع عن الاستجابة لهذه الجبلة في موضع، والقدرة على الاستجابة لهذه الجبلة في موضعٍ آخر، فتستجيب للزواج الذي أحلَّه الله، وتمنع نفسك من الفاحشة التي حرَّمها الله، تأكل الطيبات التي أباحها الله، وتترك الخبائث وشرب الخمر التي حرَّمها الله، فهي وإن كان الميل إليها جبلةً لكن نقول: لكن الله أقدر الإنسان، أعطاه من القدرة على التحكم بهذه الجبلة؛ بحيث يمتنع عن الاستجابة لها في موطنٍ، وينقاد إليها في موطنٍ آخر.

لَـــمْ أَرْضَ بِالْـــعَيْشِ وَالأَيَّـــامُ مُقْبِلَـــةٌ فَكَيْـفَ أَرْضَـى وَقَـدْ وَلَّـتْ عَلـى عَجَــلِ

يقول: أنا لم أركن إلى رغد العيش، لم أركن إليها، ولم أمِل إليها وأنا في شبابي وقوتي، وإقبال الأيام عليَّ. يعني في مرحلة التيسير، وكأنه يشير إلى أيام وزارته؛ لأنه كان وزيرًا في فترةٍ من الفترات ثم مع الحرب أُسِر وقُتِل بعد ذلك. فهو كأنه يشير إلى أنه ما ركن إلى الحياة الدنيا وهي مقبلةٌ عليه، لا في أيام شبابه وطفولته، ولا في أيام دولته وسلطانه وجاهه، فكيف يغترُّ بهذه الدنيا ويميل إليها والأيام مدبرةٌ عنه؟ وقد ذهب شبابه وأزِفَ رحيله إلى الله والدار الآخرة، وذهب سلطانه وجاهه ودولته؟!

هو يشير بهذا إلى أن الإنسان كلما كبرت سنه كان ينبغي أن يكون أقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وأكثر لجوءًا إلى الله سبحانه وتعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ ...﴾ [النصر: ١-٣] يعني أكثِر من التسبيح والاستغفار فقد حان الرحيل.

فهذا المعنى الذي يشير إليه **أن الإنسان ينبغي أن يكون أقربَ إلى الله إذا أدبرت عنه الأيام، أي في أيام فَقْرِه، وشيبته ومرضه.**

البيت الحادي والأربعون: غَـالَى بِـنَفْسِيَ عِـرْفَانِي بِقِيمَتِهَا ..فَصُنْتُهَا عَنْ رَخِيصِ...

يقول الشاعر الطُغرائي -رحمه الله-:

غَـــالَى بِـــنَفْسِيَ عِـــرْفَانِي بِقِيمَتِهَـــا   فَصُـــنْتُهَا عَـــنْ رَخِـــيصِ القَـــدْرِ مُبْتَـــذَلِ

الشرح:

أو "**مُبْتَذِلِ**"، بالكسرِ وبالفتح.

"**غَالَى بِنَفْسِيَ**" غالى بالشيء يعني: زاد في قيمتها، وهذا الوزن في لغة العرب في الغالب إنما يشير إلى الاشتراك في أصل الفعل مع جهة أخرى، ما يسمونها بالمفَاعَلة، يعني أن يكون هذا الفعل صادرًا من طرفين، كما تقال جاذبته الثوب، يعني هو يجذب وأنت تجذب من جهة أخرى، فأصل الفعل مشتركٌ بين الطرفين، فأصل هذه المادة تدل على هذا.

"**غَالَى بِنَفْسِي عِرْفَانِي بِقِيمَتِهَا**": يعني كأن الناس يريدون أن يُنزِلوا قيمة النفس، وهو لا؛ يريد أن يرفع قيمة نفسه، كأن هذه المنازعة موجودة بين الطرفين، البيئة تجعله يميل إلى الأرض وإلى شهواتها، وعِلمه وإدراكه ودينه يريد أن يغالي من قيمته ويرفع من نفسه.

"**غَالَى بِنَفْسِي عِرْفَانِي**": "**عِرْفَانِي**" يعني علمي، وإن كان بعض العلماء يُفرق بين العلم والمعرفة، أن **المعرفة يسبقها جهل، والعلم لا يلزم منه ذلك، قد يكون مسبوقًا بالجهل وقد لا يكون مسبوقًا، ولهذا يقال الله عالمٌ ولا يقال الله عارفٌ.**

"**غَالَى بِنَفْسِيَ عِرْفَانِي بِقِيمَتِهَا.. فَصُنْتُهَا**": يعني حفظتها.

"عَنْ رَخِيصِ القَدْرِ مُبْتَذَلِ": الرخيص القدر في المكانة، "مُبْتَذَلِ" أي: ممتهنٌ أو تافهٌ أو حقيرٌ، أو نحو ذلك.

- **ومعنى هذا البيت يقول:**

الذي يدفعني إلى معالي الأمور والتمسك بها، والمغالاة بقيمتها هو معرفتي بقيمتها ومكانتها، وما أكرمها الله سبحانه وتعالى من الفضل والشرف والمكانة، وهذا الإدراك -يقول- لقيمتي تجعلني أصون نفسي عما لا ينبغي من الأمور الممتَهنة، من المواقف المِشينة التي لا تليق بهذا الإنسان الكريم الذي أكرمه الله سبحانه وتعالى، وهذا ينطبق على كل إنسان؛ لأن الله قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...﴾ [الإسراء: ٧٠].

الإنسان نفسه، أنت مخلوقٌ مكرَّم، كرَّمك الله سبحانه وتعالى، وفضَّلك على كثيرٍ مما خلق تفضيلًا، وجعلك سيدًا لهذه المخلوقات في الأرض؛ تتصرف فيها، سخرها لك، تركبها، تستعملها في مصالحك، فكرمك الله وشرَّفك حتى في الهيئة، يعني جعلك منتصب القامة، بينما الحيوانات يعني منحطة القامة، فإذا أدركت قيمتك ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ فينبغي أن تصون نفسك عما لا يليق بهذه المكانة، كما سيذكر هو في آخر البيت:

قَـــدْ رَشَّـحُوكَ لِأَمْـرٍ لَـوْ فَطِنْـتَ لَـهُ ... فَـارْبَأْ بِنَفْسِـكَ أَنْ تَـرْعَى مَـعْ الهَـمَلِ

وهذا أسلوبٌ تربويٌّ جيدٌ ينبغي أن نلاحظه في تربيتنا لأولادنا ومن حولنا، التربية بإشعاره بالقيمة، بالشرف، بالمكانة، لا تُهن ابنك، بعض الناس يربي ولده على الإهانة دائمًا، الشتائم هذه التي لا تنقطع من لسانه، فينشأ وهو يحس أنه رجلٌ مُهان، ونفسيته هينة، مثل هذا أقرب إلى الزلل، وأقرب إلى الممارسات أو التصرفات المشينة، بينما لو ربيته على عزة النفس وشرفها، وأنت فلانٌ وابن فلان، وإن كان نسِيبًا ذكَّرته بنسبه، وإن لم يكن ذكَّرته بإنسانيته وشرفه وتكريم الله له، لما تربيه بهذه المعاني يستحي أن يقع بعد ذلك في تصرفات المشينة.

كما قال بعض مشايخنا كان عنده طالبٌ في الجامعة، من عائلةٍ علميةٍ معروفة، من آل الشيخ، لكن يقول: جاءني إلى المحاضرات وشعره طويلٌ إلى نصف ظهره كأنه امرأة! وكان الأساتذة ما عندهم إلا السبُّ والشتم، لكن يقول: مرةً من المرات دعوته بعد المحاضرة، قلت له: يا فلان مثلك من آل فلان، والله لا يليق به هذا.

يقول: ما زدتُ على هذه الكلمة، المحاضرة التالية لقيته حلقها بالموس! فأثَّرَت فيه هذه الكلمات أكثر من السبِّ والشتم والتهديدات التي قالها الأساتذة الآخرون، فالإنسان إذا ربَّيته على شرف النفس فإنه هو يستحي أن يقع في التصرفات المشينة، لكن إذا ربيته على الإهانة والذل، فهو أقرب إلى الزلل، وإذا وقع في تصرفٍ مَشين لا يؤنبه ضميره على هذا؛ لأنه نشأ على هذا.

البيت الثاني والأربعون: وَعَـادَةُ النَـصْلِ أَنْ يَزْهُو بِجَوْهَرِهِ ..وَلَـيسَ يَـعْمَلُ إِلَّا فِي...

يقول الشاعر الطُغرائي -رحمه الله-:

وَعَـــادَةُ النَـــصْلِ أَنْ يَزْهُـــو بِجَـــوْهَرِهِ وَلَـيـــسَ يَـــعْمَلُ إِلَّا فِي يَـــدَيْ بَطَـــلِ

الشرح:

"**عَادَةُ النَصْلِ**" النصل: الحديدة، حديدة السيفِ، والسهمِ، والرمحِ، لا يختص بالرمح، ولا يختصُّ بالسيف، هي الحديدة التي تكون في السيف والرمح والسهم وغيرها من آلات السلاح.

وقد يُطلق على حَدِّه، نصل السيف أي: حده، فهنا يقول: "**وَعَادَةُ النَصْلِ أَنْ يَزْهُو بِجَوْهَرِهِ**" يعني: أن يُفتخر بجوهره، جوهره يعني صفاته الجوهرية، ذاته الذي يسميه أهل اللغة بالفِرِند -غير الفرند الإنجليزي- فرند السيف، يعني جوهره، وبعض الفرند فعلًا فرند يعني ما شاء الله. فجوهرُ السيف يعني صفاته الجوهرية، ذاته، حقيقته، فِرنده كما يقول أهل اللغة.

"**وَلَيسَ يَعْمَلُ إِلَّا فِي يَدَيْ بَطَلِ**" البطل: هو الشجاع الذي يُبطِل دماء العدو.

- **فيقول في الشطر الأول:**

"**وَعَادَةُ النَصْلِ أَنْ يَزْهُو بِجَوْهَرِهِ**". يعني العادة عند الناس أنهم يفتخرون من السيف بجوهره، بصفاته الجوهرية، وليس بصفاته العَرَضية، يعني أنا لا أفتخر بغِمد السيف ولا بجَفنِه، الفخر إنما يكون بنصل السيف، يعني من صفاته الجوهرية أنه قاطع، وحاد، وعريض، وقوي، ونحو ذلك، لكن لا أفتخر بحمائل السيف وغمدها؛ لأن المقصود من السيف -وهو القطع والحرب والقتال- لا يحصل بالأجفان والأغماد، إنما يحصل بجوهر السيف، هو كأنه يقول لك: لا تنظر إلى الشكليات والمظاهر، واحرص على الجواهر، جوهر الشيء، لا تُقيّم الناس بأشكالهم، ولكن بمعادنهم الجوهرية، كما قال ابن الوردي: **"خذ بنصل السيف واترك غمده"**.

هذا من هذا الباب، يعني لا تجعل ميزانك في تقويم الناس والتعامل معهم هي الأشياء الشكلية العرضية: الغنى، الجمال، ولكن عليك بالصفات الجوهرية: معدنه، أخلاقه، دينه، سلوكه، هذا هو الأساس، هذا الذي يبقى، أما الأشياء الثانية عَرَضيةٌ تذهب، تنتهي.

"وَلَيسَ يَعْمَلُ إِلَّا فِي يَدَيْ بَطَلِ": يعني السيف الصارم القاطع لا يعمل عمله، والمقصودَ منه إلا في يديّ بطل شجاع، وإلا الجبان ما ينفعه أن تعطيه سيفًا صارمًا. يعني لو أخذنا الصَمصَامة –سَيف عمرو بن معدِ كرب، مشهورٌ في التاريخ– وأعطيناه ووضعناه في يد أبي حيَّة النُميريّ ينفع أو لا ينفع؟ تعرفون أبو حيّة؟

أبو حيَّة النُّميري هذا كان له سيفٌ قالوا: أشبه شيءٍ بالخشب، وكان من أجبَنِ الناس، ومع هذا سمَّى السيف أو لقَّبه بِ"**لُعَابِ المَنِيّة**"، وهو سيفُ خشبٍ أشبه شيءٍ بالخشب، ومع هذا يسميه لُعَابِ المنِيّة!

يقولون: دخل كلبٌ بيته ليلةً من الليالي، فظنه لِصًّا فأخرج لُعَابِ المنِيّة وأخذ يصيح ويقول: "**يا أيها المغترُّ بنا والمجترئ علينا بئس ما اخترت لنفسك، خيرٌ قليل** –يعني ما عندي شيءٌ في البيت– **وشرٌّ طويل، وسيفٌ صقيل، هذا لُعَابِ المَنِيّة ضربَته مشهورة، ونَبْوَته مأمونة، أُخرج إليَّ بالعفو عنك قبل أن أدخل عليك بالعقوبة**". فخرج الكلب، فلما رآه كلبًا قال: "**الحمد لله الذي مسخه كلبًا وكفانا حربًا**"! فالصمصامة إذا وضعتها في يد أبي حية النميري ما تنفع شيئًا، يعني لا تُجدِي شيئًا، وهل أغنت عنا يوم بدرٍ شيئًا؟

فصناعة الإنسان قبل صُنعِ السِّنان، يعني هذه الآلات لا تنفع إلا في يدي بطل، وهكذا أمور الدنيا كلها، إذا أردت أن تُصلح هذه الحياة الدنيا فابدأ بالإنسان أولًا، عندما تُصلح الإنسان، تجعله صاحب قيمٍ وأخلاق، وصاحب فضلٍ وإحسانٍ تستقيم وتصلُح أمور الحياة الدنيا، ولكن إذا كان سيئ الأخلاق، ضعيف الدين، لا توجد فائدة، مهما صنعت له قطارات، صنعت له ناطحاتِ سحابٍ، صنعت له سياراتٍ وطرقًا جيدةً سيفسدها؛ لأن البلاء فيه.

كما قال مالك بن نبي لما تحدّث عن بناء الحضارة –وهو من أشد المفكرين عنايةً بموضوع الحضارة– فقال: "**أول خطوةٍ في بناء الحضارة هو بناء الإنسان". وضرب مثلًا قال: لو أخذنا الآن شعب ألمانيا وأسكناه في أفريقيا، وأخذنا القبائل البدائية في أفريقيا وأسكنّاهم في برلين وميونخ**".

طبعًا ضرب المثل في ألمانيا لأنه في زمانه كانت ألمانيا هي أشهر دول أوروبا في الصناعة والحضارة، ولهذا ضرب بها المثل، فقال: ما هي النتيجة؟ النتيجة أن ألمانيا ستخرب، وأفريقيا ستُعمَّر! والسبب أن عندك هنا شعبٌ يختلف عن هذا الشعب.

فهكذا؛ هنا قال: "**وَلَيسَ يَعْمَلُ إِلَّا فِي يَدَيْ بَطَلِ**". هذه الآلات وهذه الأمور لا تنفعُ إذا كان الإنسان ناقصًا، فإذا أردتَ الكمال فابدأ أولا بتربية الإنسان، بتربية نفسك، بعد ذلك إن جاءت هذه الآلات وهذه الصنائع فهي خيرٌ على خير، ونورٌ على نور.

المحاضرة السابعة:

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. أما بعد:

يقول أبو إسماعيل الطغرائي -رحمه الله تعالى-:

ما كنتُ أُوثِرُ أن يمتدَّ بي زمني … حتى أرى دولةَ الأوغادِ والسّفَلِ

تقدَّمتني أناسٌ كان شَوطُهُمُ … وراءَ خطويَ إذ أمشي على مَهَلِ

هذا جَزاءُ امرئٍ أقرانُه درَجُوا … من قَبْلِهِ فتمنَّى فُسحةَ الأجلِ

وإنْ عَلانِيَ مَنْ دُونِي فلا عَجَبٌ … لي أُسوةٌ بانحطاطِ الشمس عن زُحَلِ

فاصبرْ لها غيرَ مُحتالٍ ولا ضَجِرٍ … في حادثِ الدهرِ ما يُغني عن الحِيَلِ

أعدى عدوِّكَ أدنى من وَثِقْتَ به … فحاذرِ الناسَ واصحبهمْ على دَخَلِ

فإنّما رجلُ الدُّنيا وواحِدُها … من لا يعوِّلُ في الدُّنيا على رَجُلِ

وحسنُ ظَنِّكَ بالأيام مَعْجَزَةٌ … فظُنَّ شَرّاً وكنْ منها على وَجَلِ

البيت الثالث والأربعون: ما كنتُ أُوثِرُ أن يمتدَّ بي زمني.. حتى أرى دولةَ الأوغادِ...

قول الشاعر -رحمه الله-:

ما كنتُ أُوثِرُ أن يمتدَّ بي زمني … تقدَّمتني أناسٌ كان شَوطُهُمُ

الشرح:

"**أُوثِرُ**" من الإيثار؛ والأصل في الإيثار هو تفضيل الآخرين على النفس، أن تُفضِّل الآخرين في الحظوظ الدنيوية على نفسك، وهذه من الصفات التي مدح الله بها الأنصار في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، فمدحهم بهذه الصفة. ولكن الإيثار هنا في هذا البيت ليس بهذا المعنى، وإنما هو بمعنى الظن والاختيار؛ "**ما كنت أُوثر**" أي ما كنت أظن، أو ما كنتُ أختار إذا خُيِّرت، فالأقرب فيه أن يكون بمعنى الظن، أو بمعنى الاختيار.

"**أن يمتدَّ**" يعني أن يطول.

"**بي زمني**"؛ أي عمري الذي كتبه الله عز وجل لي.

"**حتى أرى دولة الأوغاد**":

"**دولَةَ**": الدولة في أصل اللغة هي الغَلَبة، والدولة لفلان: يعني الغَلَبَة لفلان، والنَّوْبة والمَرَّة، وأصل صيغة (الفَعْلة) تدُل على المرة، فلها تأثير في هذه الكلمة؛ لأن الدولة والغلبة ليست دائمة إلا للغالب سبحانه وتعالى، أما من عاداه وما عداه كما قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]؛ فالدولة لا تدوم على أحد، والأيام دُوَل كما يقولون، فالدولة والغلبة والسلطة لا تدوم لأحد، وإنما الحياةُ قُلَّب مُتغيّرة، وهذه -كما أشار الله تعالى في الآية- سُنَّة من سنن الله في خلقه: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾؛ ولهذا عُبِّر عنها بهذه الكلمة التي تدل على النوبة، والمرَّة، وتغيُّر الحال. فحتى الاشتقاق اللغوي لهذه الكلمة يدل على أن هذه الكلمة يُعبَّر بها عن الشيء المتغيّر والمتقلِّب.

وأما (الدُّولة) بالضم، فهي الشيء المتداوَل، الذي يتداوله الناس، أو يتداوله الأطراف، يُقال له: دُولة كما قال الله تعالى في الفَيء: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]؛ يعني حتى لا يكون المال متداولًا بين الأغنياء فقط، ولا يتداوله الفقراء، فوزَّع الله سبحانه وتعالى الفَيء على هذه الطبقات لهذا المقصود؛ فمقصود الشرع من الفيء والزكاة وغيرها من الأحكام المالية، نشرُ هذا المال وتعميم نفعه بين الناس، وألَّا يكون المال محصورًا على فئة دون فئة أُخرى. فالدُّولة غير الدَّولة: فالدَّولة هي الغلبة، وهي النوبة والمرَّة، وهي -كما ذكرت- كلمة تُشير إلى تغيُّر الأحوال وتبدُّلها.

"**الأوغادِ**": جمع وغد؛ والوغد في لغة العرب هو الشيء الرذيل، ودنيء الأصل، والساقط والضعيف أيضًا يُقال له: وغدٌ؛ كما قيل لأم الهيثم: أيُقال للعبد وغد؟ فقالت: ومن أوغد منه؟!؛ يعني: من أضعف منه؟ يقال له: وغد بمعنى ضعيف، فيأتي بمعنى الضعيف أيضًا. والمراد هنا المعنى الأول، وهو بمعنى الشيء الرذيل، أو الشيء الرديء، أو الشيء الساقط فيقال له: وغد، وجمعه: أوغاد ووُغدان ووِغدان، بكسر الواو وضمها أيضًا.

"**والسِّفَلِ**" بكسر السين وفتح الفاء، كما ضبطه ابن قُتيبة -رحمه الله-، و(السَّفِلِ) أيضًا بفتح الأول وكسر الثاني، كلاهما جمع (سَفِلة). والسَّفَلة والسِّفَل: الحُثالة من الناس، أرَاذِل الناس وحثالتهم يُقال لهم: سَفِل، وسِفَل، وسَفَلة.

ويمكن (السَفَل) هنا على أنه مصدر، "دولة السَّفَل"، ويكون (السَّفَل) ليس جمعًا، وإنما هو مصدر سَفِلَ يَسفَلُ أو يَسفُلُ سَفَلًا، فيكون بمعنى المصدر هنا.

والمعنى الذي أراده الشاعر من هذا البيت أن يقول: ما كنت أظن أن الله تعالى يَمُدُّ في عمري حتى تنقرض دولة الكِرام الصالحين، وتأتي دولة الأوغاد واللئام من الناس، ما كنت أظن ذلك، أو ما كنت أختاره لو خُيِّرت فيه، فلكان الموت أطيب عندي من أن أدرك هذا الزمان.

وإذا تـمـلَّـكَـــتِ اللِّئَـــامُ ... فـــإِنَّ مَـــوْتَ الحُـــرِّ أَحْـــرَى

كما يقول الشاعر، أو كما قال أبو العلاء:

فـــيا مـــوتُ زُرْ إنَّ الـــحياة ذمـــيمة ... ويا نفـــسُ جِـــدِّي إن دهـــرَك هَـــازِلُ

ومن الأبيات اللطيفة التي قالها القاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي -رحمه الله- قال:

متَـــى يـــصِلُ العِطَـــاشُ إِلَـــى ارْتِـــوَاءٍ ... ومَـــنْ يُـــثْنِـــي الأَصَـــاغِرَ عَـــنْ مُـــرَادٍ

وإِنَّ تَـــرَفُّعَ الوُضَـــعَـــاءِ يَـــوْمًا ... إِذَا اسْـتَـــوَتِ الأَسَافِـــلُ والأَعَـــالِي

إِذَا اسْـتَـــقَتِ البِحَـــارُ مِـــنَ الرَّكَـــايَا ... إذا جَـــلَسَ الأَكَـــابِرُ فِـــي الـــزَّوَايَا

عَـــلَى الرُّفَعَـــاءِ مِـــنْ إحـــدى الـــبلايا ... فَـقَـــدْ طَـابَـــتْ مُـنَـــادَمَـــةُ الْمَنَـــايَا

وكثير من الصالحين كانوا يرون الموت أهون من أن يصلوا إلى زمن الفساد والفتن والشر؛ حتى يَسلَم لهم دينهم، وهذا أصله كما جاء في الحديث: "...وإذا أردتَ بعبادِك فتنةً، فاقبضْني إليك غيرَ مفتونٍ" [الترمذي: ٣٢٣٣\ صححه الألباني].

فهذا معنى قوله:

ما كنتُ أُوثِرُ أن يمتدَّ بي زمني   تقدَّمتني أناسٌ كان شَوطُهُمُ

البيت الرابع والأربعون: تقدَّمتني أناسٌ كان شَوطُهُمُ ...وراءَ خطويَ لو أمشي...

تقدَّمتني أناسٌ كان شَوطُهُمُ   وراءَ خطويَ إذ أمشي على مَهَلِ

الشرح:

"**كان شَوطُهُمُ**" الشوط هو الجري إلى الغاية، والمشي السريع إليها، يقال له: شوط، ومنه أشواط الطواف.

"**خطويَ**"، وأما الخطو فهو نقل القدمين حالة المشي، أو المسافة التي تكون بين القدمين حال المشي.

"**مَهَلِ**"، والمهل: هو التأني والتؤدة وعدم السرعة.

فهو يشير إلى شيء من آثار دولة الأوغاد والسِّفل؛ فقد ترتب على ذلك أن هؤلاء الأوغاد والأراذل من الناس، والحثالة من الناس، تقدموه وقُدِّموا عليه، مع فضله وديانته، مع أن هؤلاء يقول: شوطهم وجريهم لا يبلغ خطوي لو سرتُ على مهل؛ يعني لو سرت على مهل فإن جريهم وخطوهم الواسع لا يصل إلى خطوة من خطواتي وأنا أمشي؛ من باب:

من لي بِسَيرِكَ المدلَّل   تمشي رويدًا وتَجي في الأول

وهذا أثر من آثار دولة الأوغاد والسِّفل.

البيت الخامس والأربعون: هذا جَزاءُ امرئٍ أقرانُه درَجُوا ... من قَبْلِهِ فتمنَّ فُسحةَ...

هـــذا جَـزاءُ امـــرئٍ أقرانُــه درَجُــوا   مــن قَبْلِــهِ فتمــنَّ فُســحةَ الأجــلِ

الشرح:

"هذا جَزاءُ" يعني هذه عاقبته.

"أقرانُه": الأقران: جمع: قِرن، والقِرن وهو المكافئ لك والنظير لك، كما أخذنا في قصيدة كعب ابن زهير:

إِذا يُســـــاوِرُ قِـــــرْناً لا يَحِــــلُّ لَـــــهُ   أنْ يَــــتْرُكَ القِـــرْنَ إلاَّ وهَـــوَ مجــــدولُ

أو مفلول.

فالقِرن هو المكافئ النظير؛ ولهذا قال ثابت بن قيس في معركة من المعارك: "بئس ما عودتم أقرانكم" يعني ما أعجبه طريقة القتال التي كانوا يقاتلون فيها، فقال: "بئس ما عودتم به أقرانكم"، يعني نظراءكم من المحاربين.

ومنه (الأقران) عند المحدثين؛ (رواية الأقران بعضها عن بعض)، وهم المتساوون والمشترِكون في الطبقة والذين يروون عن طبقة معينة من الشيوخ؛ كتابعي يروي عن تابعي مثلًا، أو صحابي يروي عن صحابي، ويقال له: المُدبَّج –كما تعرفون في علوم الحديث–؛ ومنه قول الذهبي –رحمه الله–: **"كلام الأقران يُطوى ولا يُروى"**، فالأقران هم الأشخاص الذين اشتركوا في طبقة واحدة، وأخذوا عن شيوخ معينين، فهؤلاء يقال لهم :الأقران.

فهو يقول: **"هذا جزاء امرئ أقرانه درجوا"**

"درَجُوا"، (دَرَجَ) في الأصل يأتي بمعنى مشى، ولكن مِشية ثقيلة، ليست المِشية الخفيفة السهلة اللينة؛ ولهذا غالبًا ما تُستخدم في مِشية الصبي، أو في مِشية الشيخ الكبير، ولكن استُعمل بعد ذلك هذا اللفظ كناية عن الموت؛ قال: درج فلان، يعني مات، كما قالوا في قولهم: **"أحسنُ من دبَّ ودَرَجَ"**، **"أحسن من دب"** يعني مشى، **"ودرج"** يعني مات، يعني أحسن الأحياء والأموات، و**"درجوا"** أي هلكوا أو ماتوا، ومنه هذا البيت.

"أقرانُه درَجُوا" أي ماتوا من قبله **"فتمنَّ فُسحةَ الأجلِ"**: يعني هذه الحالة التي أشار إليها وهي حالة الغربة والكربة، وتقدُّم الأسافل والأراذل من الناس، وتأخُّر أهل الفضل والدين.

"**هذا جَزاءُ امرئٍ**" يعني عاقبة رجل "ذهب أقرانه" مات أقرانه وأصحابه وأهل طبقته، وبقي غريبًا في جيله، وتمنى بعدهم فسحة الأجل، يعني أن يطول عمره بعد أقرانه.

وهذا معنى يحس به من وصل هذه المرحلة؛ من كبر سنه ودرج أقرانه، يُحِسُّ بشيءِ من الغربة بين قومه وأهله، حتى في العقلية، حتى في الاهتمامات؛ لأن كل جيل يتغير عن الجيل الذي قبله؛ الجيل الجديد له فلسفة جديدة، وله اهتمامات أخرى، وله طريقة في التفكير تختلف عن طريقة الجيل الذي قبله؛ فهذا المُعمَّرُ بعد أقرانه يحس بشيء من هذه الغربة؛ كما قال لبيد قديمًا:

ذَهَبَ الَّذينَ يُعاشُ في أَكنافِهِم وبَقيتُ في خَلفٍ كَجِلدِ الأَجرَبِ

وكانت عائشة –رضي الله عنها– بعد زمن كانت تُنشِد هذا البيت، وتتمثّل به أيضًا.

فهذا نوع من الغربة يعيشها هذا الشخص المُعمَّر إذا ذهبت طبقته، وذهب أقرانه، وعاش في جيل جديد يختلف عن الجيل الأول.

البيت السادس والأربعون: وإنْ عَلاَنِيَ مَنْ دُوني فلا عَجَبٌ.. لي أُسوةٌ بانحطاطِ...

وإنْ عَلاَنِيَ مَنْ دُوني فلا عَجَبٌ لي أُسوةٌ بانحطاطِ الشمس عن زُحَلِ

الشرح:

"**أُسوةٌ**"، أُسوة وإِسوة، بضم الهمزة وكسرها، هي القدوة، كما قال الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ التقييد بحسنة يدل على أن الأسوة تكون في الخير وفي الشر، ويقال: فلان أسوة، إذا كان شريرًا وقائدًا للأشرار، وأسوة أيضًا إذا كان صالحًا، فالأسوة تُستعمل في الخير وفي الشر، ولهذا قُيّدت ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾.

"**زُحَلِ**"؛ معروف، هذا الكوكب أحد الكواكب السيارة في الفضاء، وهو أبعدها؛ **وسُمِّيت زحل من الزحول وهو: التأخر والبعد في لغة العرب. سُميت بذلك، لأنها أبعد هذه الكواكب السبعة السيارة؛ فهي في الفلك السابع على حسب اصطلاح أهل الهيئة قديمًا؛ والهيئة في مصطلح المتقدمين تعني أهل الفلك، وليس الهيئة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**. فعند أهل الهيئة، أهل الفلك، يقسِّمون الفلك إلى مراتب، وآخرها الفلك السابع، وفيها هذا الكوكب؛ وهو زحل.

فهو يسلّي نفسه، ويعزّيها فيقول: أنا وإن رماني الزمان بهذه الحالة، وتقدَّم عليَّ من دوني من الأراذل والسفهاء، والفُسّاق من الناس، فلي أسوة تعزيني وتُسلِيني وهي هذه الشمس؛ فالشمس في حسب اصطلاح أهل الفلك في الفلك الرابع، بينما زحل في الفلك السابع؛ فيقول: عُلُوُّ زحل لا يضر الشمس شيئًا، فإن الشمس هي أشرف هذه الكواكب السَّيّارة، وهي التي تَمُدُّ الكواكب الأخرى بالضوء والنور، فهي صاحبة الفضل عليها، وأشرف منها، ومع هذا هي أنزل مرتبة من زحل.

فهو يسلي نفسه ويُصبّرها بهذه الأمثلة؛ ولا شك أن التأسي بالأفعال المشابهة، والأوضاع المُشاركة يكسب النفس شيئًا من الراحة والتسلي؛ لأن التفرد بالمصيبة مصيبةٌ أخرى، ولكن إذا نظرت فوجدت أن مصيبتك موجودة عند غيرك من الناس، فيهون عليك هذا المصاب، كما قالت الخنساء:

وَلَولا كَثرَةُ الباكينَ حَولي وَما يَبكونَ مِثلَ أَخي وَلَكِن

عَلى إِخوانِهِم لَقَتَلتُ نَفسي أُعَزّي النَفسَ عَنهُ بِالتسلي

فالاشتراك في المصيبة يخفف المصاب، ولهذا قيل في أهل النار بأن اشتراكهم في العذاب لا يخفِّف عنهم: ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]؛ فاشتراكهم في العذاب يوم القيامة لا يخفِّف عنهم عذاب الآخرة، فعذاب الآخرة ليس كعذاب الدنيا؛ عذاب الدنيا ومصائبها إذا عَمَّت هانت وخفَّت، لكن في الآخرة الله عز وجل يقول عن أهل النار إن اشتراكهم في العذاب لا يخفف عنهم العذاب.

البيت السابع والأربعون: فاصبرْ لها غيرَ محتالٍ ولا ضَجِرٍ.. في حادثِ الدهرِ ما يُغني...

فاصبرْ لها غيرَ مُحتالٍ ولا ضَجِرٍ في حادثِ الدهرِ ما يُغني عن الحِيَلِ

الشرح:

"**فاصبرْ لها**"، من الصبر؛ والصبر هو حبس النفس عن الجزع عند حلول المكروه ونزول المصائب.

"**غيرَ محتالٍ**"؛ محتال من الاحتيال؛ والاحتيال هو التوصُّل إلى شيء بخفاء؛ احتال كذا بمعنى أنه حاول أن يتوصّل إلى مقصده بطريقة خفيَّة، إذا كانت الطريقة جليَّة لا يقال له: احتال على كذا؛ فلا يقال: احتال على كذا إلا إذا استعمل أسلوبًا خفيًّا، لا يدركه كثير من الناس؛ ومنه الحِيَل.

"**ولا ضَجِرٍ**"؛ الضَّجِر صفة مشبَّهة من الضَّجَر، والضجر هو التبرُّم وضيق الصدر، ضَجِر من كذا يعني ضاق صدره منه وتبرم منه.

"**في حادثِ الدهرِ**"؛ حوادث الدهر يعني ما يحدث فيها من الأفعال، ولكن الغالب أنها تستخدم في المصائب. كلمة (الحوادث) في الغالب، في الاستعمال اللغوي، تُستعمل في حوادث الشر، وليس في حوادث الخير.

"**في حادثِ الدهرِ ما يُغني عن الحِيَلِ**"، يعني إذا كانت الدنيا دُوَلًا، وهذه طبيعتها التي أشرتُ إليها قبل ذلك، وهي أنها قُلَّب وأنها متغيرة، ولا يدوم على حال لها أحد، وأنها مثل اللَّحان، يرفع المخفوض ويخفض المرفوع، أو مثل الميزان قد يعلو فيها الخفيف، وينزل فيها الثقيل، فإذا كانت هذه حال الدنيا، فهو يقول: "**فاصبر لها**"؛ يعني عليك بالصبر إذا حلَّت بك الحوادث والغِيَر، تغيرت عليك الأمور، فقابلها بالصبر الجميل، فاصبر صبرًا جميلًا، وهذا الصبر يُغنيك عن الضجر وعن الحيلة، يعني لا يضِق صدرك بما يحدث، ولست بحاجة إلى التحيُّل بالحيل لتغيير هذه الأمور؛ لأنها ستتغير.

بطبيعتها الحياة متغيرة، والدهر قُلّب، ولا يدوم على حال لها أحد، ودوام الحال من المحال، كما يقولون. فيقول: اصبر لا تجزع، احبس نفسك عن الجزع فإنها ستتغير، بل **بالعكس الصابر أحسن حالًا من المنعَّم المترف صاحب النعمة؛ لأن الصابر ينتظر الفرج، بينما صاحب النعمة ينتظر الحادثة وينتظر المصيبة والتغير**. فهذه ميزة للصبر، أنك تصبر، لأن هذه هي طبيعة الحياة الدنيا، وأنت سيؤول أمرك إلى السلامة والعافية والصلاح ما دمت صابرًا على هذا.

البيت الثامن والأربعون: أعدى عدوِّكَ أدنى من وَثِقْتَ به... فحاذرِ الناسَ واصحبهمْ...

أعـــدى عـــدوِّكَ أدنــى مـن وَثِقْـتَ بـه   فحـاذرِ النــاسَ واصــحبهمْ علــى دَخَـلِ

الشرح:

"**أعدى**" أفعل تفضيل؛ معناه: أكثر عداوة، وهذا يعتبر عند علماء النحو من الشاذ الذي لا يُقاس عليه؛ لأن أفعل التفضيل إنما يُصاغ من الثلاثي، وليس من الرباعي، وهنا أعدى من المُعاداة: عَاداهُ فالفعل ليس ثلاثيًّا، والأصل أنه لا يُصاغ منه، ولكن يؤتى بكلمة يُتوصَّل بها إلى معنى التفضيل، كما في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢] فتأتي بأشد أو أحسن أو أكبر أو نحو ذلك من

الكلمات الثلاثية الصالحة لصياغة أفعل التفضيل لكن هذا سُمِع؛ فلا يقاس عليه، **"أعدى من الجرب"** كما قالت العرب، لكن هذا يُسمع ولا يقاس عليه؛ لأن الأصل أن أفعل التفضيل إنما يُصاغ من الفعل الثلاثي.

"عدوِّكَ"؛ العدو هو ضد الصديق، وهو لفظ يُطلق بصفةٍ واحدة على تنوع الأحوال، قال: فلان عدو، والمثنى عدو، والجمع عدو بلفظ واحد، والذكر عدو، والمؤنث عدو، فهو لفظ ثابت؛ لأن العداوة هي عداوة ثابتة.

"أعدى عدوِّكَ "يعني أشد أعدائك عداوةً لك **"من وثِقت به"**.

"من وثقتَ به" يعني من أعطيته ثقتك، من آمَّنته.

"فحاذِر الناس"، يعني عامِلْهم بالحذر. فحاذر: تأتي بأخذ الحَيطة والحذر، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٦]، وهذه قراءة متواترة، وهناك قراءة متواترة أخرى: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ﴾، وبينهما فرق في الدلالة:

(حَذرون) هذه صفة مُشبَّهة تدل على الثبوت والاستمرار، كأن فرعون يقول لهم: نحن شعب متيقِّظ ودولة متيقِّظة، والحكومة متيقِّظة، ما عندنا غفلة ونوم، متيقظون ونعلم كل شيء، ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ﴾؛ فكأنه يقول: الحذر من طبعنا، لا تخافوا.

أما (حاذرون) فهذا يفيد الحدوث والتجدد. وأيضًا فيها نكتة بلاغية، على هذه القراءة، فكأنه يقول للشعب: نحن كنا نعيش في أمان ونفوسنا طيبة، وما كان عندنا نية سيئة، ولا معاداة لأحد، إلى أن جاءنا موسى –عليه السلام–؛ فأشاع فينا الفوضى وخرَّب البلد، فنحن سنأخذ الحذر، يعني الحذر ليس من عادتنا؛ فنحن لم نتعود، أمورنا طيبة مستقيمة، لكن لما جاء هذا الرجل بدعوته، فنحن سنأخذ حِذرنا، ستتغير الأحوال والأمور.

فهذا الفرق بين القراءتين.

"فحاذِر الناسَ "يعني عاملهم بالحذر.

"واصحبهمْ" يعني صاحبهم، والزمهم، وعاشرهم.

"على دَخَل"؛ الدَّخَل، في الأصل، يُطلق على الغش والمكر والخَديعة، ويُطلق على كل فساد بعد ذلك، كل شيء دخله فساد وعيب فيقال له: دَخَل؛ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤]، وكذلك: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍ﴾ [النحل: ٩٢] هذا

وصف للعرب؛ لأن القبائل العربية كانوا يتحالفون؛ تتحالف اليوم القبيلة الفلانية مع قبيلتك، لكن بمجرد أن تأتي قبيلة أقوى من هذه القبيلة، ينقضون الحِلف الأول ويغدرون به، وينتقلون ليتحالفوا مع الحليف الأقوى، كما تفعل الدول اليوم؛ فكانوا هكذا ينقضون أيمانهم كلما جاءتهم أمة ﴿هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍ﴾ يعني أقوى منها وأكثر عددًا. والله سبحانه وتعالى ذمَّهم على هذا وقال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾. فالدَّخَل هو هذا المكر والخديعة والغش والعيب، هذه معانيه.

وهو يقول في هذا البيت يقول: أكثر أعدائك عداوة هم الناس الذين وثقت بهم، أهل الثقة في نفسك، فعامل الناس بالحذر ولا سيما هؤلاء. وزاد الطين بِلَّة فقال: **"واصحبهم على دَخَل"**، يعني لا تعاشرهم إلا بالمكر والخديعة والغش والاحتيال.

وهذا أثر من آثار النكبة التي أصيب بها الطُّغرائي الطغرائي كان وزيرًا -كما عَرَفنا- وعاش فترة من الدولة والغَلَبة والجاه، ولكن عندما قامت المعارك بين أُمَراءُ السلاجقة، وانتصر الأخ على أخيه، محمود السلجوقي على مسعود السلجوقي، نزلت المصيبة على وزرائه، فنُكِب الوزراء، ومنهم الطغرائي نفسه، ونُكب من أقرب الناس إليه؛ وهؤلاء العسكر والجند الذين كانوا معهم قبل أيام أصبحوا ضدهم؛ **فهذه النكبة أثَّرت تأثيرًا شديدًا في نفسية الطغرائي، وأعطانا هذه النصيحة التي تحتاج إلى تقييد؛** فهو أطلق الحكم، وكان حقه أن يُقيَّد، وعمَّم الحكم، وكان حقُّه أن يُخصَّص. وهذا قد يحدث؛ فبعض الشعراء قد يصاب بمصيبة فيقول مثل هذا الكلام:

الـــدهر حـــرب وإن أبـــدى مُسالـــمَةً والبـيـض والسُّـمرُ مثـل البـيـض والسـمر

يعني من حيث اللون، يعني الناس كلهم، أبيضهم وأسودهم، **"مثل البِيض والسُّمْر"**، مثل البِيض: يعني السيوف البيض، والرِّماح السُّمر؛ فأعطى حكمًا عامًّا بناءً على مصيبة وقع فيها.

وهذا خلل يقع في حكم الإنسان وفي تفكيره، فمن خلال تجربة فاشلة أو تجربة مؤلمة يختل عنده ميزان الحكم على الأشياء؛ فيُعمِّم الأحكام، يعطي حكمًا عامًّا بعيدًا عن الإنصاف. **والإنصاف أن الناس فيهم الخير وفيهم الشر، وفيهم الصالح وفيهم الطالح، والدنيا أيضًا، يوم أبيض ويوم أسود، فتعميم الحكم غير صحيح.**

والحذر، في الأصل، مطلوب من المؤمن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١] كما قال الله تعالى، وقال ﷺ: "لا يُلْدَغُ المؤْمِنُ مِن جُحْرٍ واحِدٍ مَرَّتَيْنِ" [البخاري: ٦١٣٣].

لكن ليس معنى هذا أن تسيء الظن في كل الناس، وتعاشرهم بالمكر والاحتيال، **إنما الأصل أن الإنسان يعاشر الناس بالخلق الحسن، وبالإنصاف، وبالعدل. وإن ظَلمك، فظُلمه لا يبرر لك أن تظلمه أنت أيضًا، هو يعطيك الحق في أخذ الحق،** لكن ظُلمُه حرام، حتى ولو كنتَ مظلومًا. الإنسان يعاشر الناس بالخلق القويم، ويعاشرهم بالإنصاف والعدل، ويَحذر، ولكن لا يسيء الظن بالناس جميعًا، ولا يحكم على الناس جميعًا بحكم واحد ويعاملهم بالغش والخديعة؛ "ومَن غَشَّنا فليسَ مِنَّا" [مسلم: ١٠١].

"أعدى عدوك أدنى من وثقت به"، لكن هو ربما أراد معنى آخر، فقد تكون العداوة هنا بالمعنى العام، الذي جاء به القرآن الكريم: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، ليست عداوة حقد وإضرار، وإنما أحيانًا عداوة محبة؛ فالأولاد والأزواج عداوتهم عداوة فتنة ومحبة، وليست عداوة بغض وكراهية؛ يعني حُبُّك إياهم يحملك على فعل ما لا يحسُن شرعًا؛ أحيانًا حب الأطفال يجعل بعض الآباء يسرق من أجل أولاده، ليطعم أولاده، أو من أجل العيون السود لفلانة يأخذ قروضًا ربوية، ويدخل في أسواق الأسهم المحرمة؛ لأن فلانة طلبت منه بيتًا، أو طلبت منه طلبًا.

فإذا أراد بالمعنى هذا، نعم، حتى من وثقت به وأحببته قد يكون فتنة لك؛ ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾، بل حتى نفسك، كما قال العلماء: "أعدى أعدائك؛ نفسك التي بين جنبيك"؛ لأنها تزين لك المعصية، تزين لك الشهوات والميل إليها؛ فهي عدو لك بهذا الاعتبار: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. فالإنسان يحذر من هذه الأشياء، ولكن لا يعني هذا بغض هؤلاء، ولا يعني أيضًا أن يعاشرهم الإنسان بالمكر والخديعة.

البيت التاسع والأربعون: فإنّما رجُلُ الدُّنيا وواحِدُها.. مـن لا يعوّلُ في الدُّنيا على...

فإنّـــما رجـــلُ الـــدُّنـــيا وواحِــــدُها   مـــن لا يعـــوّلُ في الدُّنـيا علـى رَجُــلِ

الشرح:

"فإنما" هذه صيغة تفيد الحصر، ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [طه: ٩٨] تفيد الحصر، على خلاف بين العلماء، يفيد الحصر بالوضع اللُغوي، أم بالعرف والاستعمال، وفيه بحث درسناه في أصول الفقه.

"رجل الدنيا"، يعني الشخص الذي لا نظير له، اجتمعت الدنيا في شخصه، مِن كماله، وليس على الله بمستنكَر أن يجمع العالم في واحد، فيقول لك: **"فإنما رجلُ الدنيا وواحِدها..."**.

طبعًا (الرجل) أحيانًا يُطلق فيما يقابل (المرأة)؛ هذه امرأة وهذا رجل. لكن أحيانًا يُراد به المدح، يُراد به الرجولة الكاملة؛ فلان رجلٌ، اجتمعت فيه صفات الرجولة، فتمدحه بالكمال بهذه الصيغة؛ أنت لا تريد أن تخبر أنه ليس امرأة، كل الناس يعرف أنه رجل وليس امرأة، لكن أنت تريد أن تشير إلى أنه رجل اجتمعت فيه صفات الرجولة؛ لهذا بعض المفسرين يرى من هذا قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَـٰهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، لا يقصد الرجال، حتى النساء نفس الحكم لكن هو يقصد أن هؤلاء اجتمعت فيهم من صفات الرجولة والشجاعة والفضل ما ليس في غيرهم.

بل بعض العلماء يرى منه قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ﴾ [النور: ٣٦- ٣٧]، العلماء على خلاف: الرجال هنا من الرجولة التي تقابل الأنوثة؛ وبالتالي المرأة ليست مدعوة إلى تعمير المساجد، أم الرجال هنا بمعنى من اجتمعت فيه صفات الرجولة الكاملة فتكون المرأة كذلك ممن يُثنى عليه إذا عمَّرت بيت الله، مع أنه لا يجب عليها؟

"من لا يعوِّلُ"، يعني من لا يعتمد، ولا يتكل، ولا يستند.

"في الدُّنيا على رَجُلِ" من الرجال، النكرة هنا يُقصد بها التعميم، على أي رجل.

فيقصد أن الرجل كامل الرجولة الذي اجتمعت فيه صفات الكمال، ويصح أن نقول له: رجل الدنيا وواحدها، هو هذا الرجل الذي لا يعتمد على الناس، وإنما يعتمد على الله سبحانه وتعالى أولًا، ثم على نفسه؛ يعتمد على الله عز وجل، لأنه يُدبر الأشياء وكل شيء عنده بمقدار، ثم يعتمد على نفسه التي بين جنبيه، ولا يتكل على الناس.

وهذا ما ربَّى النبي ﷺ أصحابه عليه؛ كان يُربيهم على ألَّا يسألوا الناس شيئًا، وألا يطلبوا من الناس شيئًا، وأن يكفي كل إنسان حاجته بنفسه؛ يقولون: اخدم نفسك بنفسك. فكان الصحابي يسقط منه سواكه وهو على الدَّابة، لا يقول لأخيه: ناولني، ينزل و يأخذها بنفسه.

البيت الخمسون: وحسنُ ظَـنِّكَ بالأيام مَعْجَزَةٌ.. فظُنَّ شَرّاً وكنْ منها على وَجَلِ

وحـــــسنُ ظَـنِّـــكَ بالأيـــــام مَعْـــجَزَةٌ ... فــظُنَّ شَــرّاً وكـــنْ منهـــا علـــى وَجَــلِ

الشرح:

"مَعْجَزَةٌ" بفتح الميم، مثل مَجبنة، مَبخلة، هذه الصيغة بلغة العرب، **صيغة (مَفعَلة)، تدل على الشيء الذي يكثر ويدفعك إلى الوقوع في أصل المعنى**؛ فـ(مجبنة) يدفعك إلى الجُبن، (مَعجَزَة) يدفعك إلى العجز. والعجز هو الضعف وعدم القدرة؛ فلان عاجز عن كذا تَعني ضعيف، غير قادر عليه.

"على وَجَلِ"؛ الوجل هو الخوف، في لغة العرب، وفي لغة القرآن الكريم أيضًا؛ ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، يعني خائفة. ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]، لا توجل يعني لا تخف، ولهذا الآية الثانية فسَّرتها بهذا؛ ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ [الذاريات: ٢٨] فـ (لا توجل) هنا تُفسَّر بالآية الثانية؛ وخير ما يُفسَّر به القرآن هو القرآن. فالوجل هو الخوف.

فهنا يقول الطُغرائي: إن الإنسان إذا حَسَّن ظنه بالأيام، حسَّن ظنه بالدنيا وبالناس، فهذا من عجزه ومن ضعف علمه، وضعف خبرته؛ لأنه خَبَرَ الدنيا، ويدرك أن الدنيا فيها عجائب، وأن الناس -كما أشار في الأبيات السابقة- فيهم أراذل، وفيهم أوغاد، وفيهم أوباش؛ فالإنسان الذي يُحسِّن ظنه بالدنيا، ويظن أنها ستدوم على حال واحد، ويُحسِّن ظنه بجميع الناس، فهذا من عجزه، ومن ضعفه في العلم والتجربة والخبرة؛ ما خَبَرَ الناس.

وبناء عليه قال :"فظُنَّ شَرّاً وكنْ منها على وَجَلِ"؛ يعني كن من الأيام والدنيا والناس على وجل ويقصد به الحذر؛ كن منهم على حذر.

وهذا أيضًا كلام يحتاج إلى تقييد؛ ظن الشر بالناس لا يجوز دائمًا، وحسن الظن مطلوب، بل واجبٌ أحيانًا، وسوء الظن أيضًا جائز أحيانًا أخرى، بحسب حال الشخص؛ إن كان هذا الشخص من أهل الخير والصلاح، وظاهره الصلاح، فالأصل فيه حسن الظن، والواجب هو حسن الظن، كما قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، والنبي ﷺ كذلك قال: "إيَّاكُمْ والظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أكْذَبُ الحَديثِ..." [أخرجه البخاري: ٦٧٢٤]، والله تعالى قبل ذلك يقول: ﴿يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]؛ لأن بعض الظن إثم فاجتنبوا كثيراً من الظن.

وواجب في مشكلات الحكم تحسين الظن بأهل العلم، فإذا كان الرجل من أهل الدين وأهل الصلاح وأهل الإسلام وأهل الخير وأهل العلم، فالواجب إحسان الظن به، ومن أساء الظن بهم فقد ظلمهم.

وهي سُنة فرعونية؛ جاءه موسى –عليه السلام–، فقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَٰذِبا﴾ [غافر: ٣٧] و﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، و﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسحُورا﴾ [الإسراء: ١٠١]؛ بدأ يظن به هذه الظنون السيئة.

بل سمَّاها الله ظن الجاهلية: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيرَ ٱلحَقِّ ظَنَّ ٱلجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ **فالظن بالله بغير ما نعرفه عن الله من الخير، هذا من ظن الجاهلية**. كذلك من ظن الجاهلية أن يظنوا بالرجل الصالح شرًّا، وظاهره السلام والصلاح.

لكن أن تظن الشر بأهل الشر، هذا من العقل والحزم؛ رجل معروف بالشر والفساد فظننت به شرًّا لا بأس، هذا من كمال عقلك، وهذا من الحزم، كما جاء في الحديث: "احترِسوا مِنَ الناسِ بسوءِ الظنّ" [ضعيف الجامع للألباني: ١٨٢\ضعيف جدًّا]، وهو حديث ضعيف لا يثبت من ناحية الإسناد ولكن العلماء قالوا: معناه هو هذا، إن سلَّمنا صحته، كما ذهب إليه بعض العلماء؛ فالحافظ السخاوي له جزء في هذا الحديث وجمع طرقه، قال: طرقه ضعيفة، ولكن يتقوَّى بعضها ببعض؛ لكنه بيَّن أنه على فرض هذا التَّقوّي، فالمقصود به سوء الظن بأهل الشر وأهل التهمة، وليس بأهل الخير.

فالأصل في الإنسان أن يظُن الخير بأهل الخير، وأن يُحسِّن الظن بالمسلمين، هذا هو الأصل.

لكن إذا كان هذا الشخص من أهل الشر والفساد والعداوة وأهل التهمة، فسوء الظن به من العقل وتحسين الظن به من ضعف العقل؛ أن تأتي إلى أعداء الإسلام فتظن أنهم يمكن أن ينصروا الإسلام وأن ينشروه في العالمين! رجل تعرف أنه غارق في المعاصي ليلًا ونهارًا، وتظن أن هذا يمكن أن ينشر الخير أو يدعم هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر! فالطيور على أشكالها تقع.

فما دعا إليه الشاعر من سوء الظن بالناس ومخالطتهم على حذر، هذا كله في أهل الشر والفساد، أما أهل الخير والصلاح من الأنبياء والرسل والعلماء والصالحين والمسلمين الذين ظاهرهم العدالة، فالأصل في هذا هو تحسين الظن، الواجب هو حسن الظن؛ ولا يُساء الظن به إلا إذا خرج عن هذا الأصل إلى الشر والفساد فعند ذلك يكون ما دعا إليه الشاعر مطلوبًا.

وصلَّى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

المحاضرة الثامنة والأخيرة:

المقدمة:

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد يقول الشاعر الطغرائي، رحمه الله:

غـاضَ الوفـاءُ وفـاضَ الغـدرُ وانفرجـتْ   مسـافةُ الخُلْـفِ بـين القـولِ والعَمَـلِ

وشـانَ صـدقَك عنـد النـاس كِـذبُهُمُ   وهـل يُطـابَقُ معـوَجٌّ بمعتَـدِلِ

إن كـان ينـجع شـيء فـي ثبـاتهم   عـلى العهـود فسَبْقَ السـيف للعـذل

يـا واردًا سـؤر عـيشٍ كلـه كـدر   أنـفـقت صـفوك في أيامـك الأُول

فـيم اقتحامـك لُجَّ البحـرِ تركَبُـهُ   وأنـتَ تكفيـك منـه مصّـةُ الوَشَـلِ

مُـلْـك القـناعة لا يُـخْـشى عليـه   ولا يُحتـاج فيـه إلى الأنصـار والخَـوَلِ

اقـنع تـجِلَّ ولا تـطـمع تـذل ولا   تـعـجل تـزل ولا تـغتـر بالـمهل

ترجـو البَقـاءَ بـدارٍ لا ثَبـاتَ لهـا   فهـل سَمِعْـتَ بظـلٍّ غـيرِ منتقـلِ

وَيَـا خبيـرًا عـلـى الأسـرار مطلعًـا   اصمت ففي الصمت منجاةٌ من الزلـل

قـد رشَّـحوك لأمـرٍ إنْ فطِنـتَ لـهُ   فـاربأْ بنفسـكَ أن ترعـى مـع الهَمَـلِ

البيت الحادي والخمسون: غاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت.. مسافةُ الخُلْفِ...

يقول أبو إسماعيل، رحمه الله:

غـاضَ الوفـاءُ وفـاضَ الغـدرُ وانفرجـتْ   مسـافةُ الخُلْـفِ بـين القـولِ والعَمَـلِ

الشرح:

"غاض الوفاء وفاض الغدر": (غاض) و(فاض): لفظان متقابلان، فالغيض هو النقص، والفيض هو الزيادة؛ ولهذا يقولون في كلامهم: هذا غيضٌ من فيض، أو: أعطاه غيضًا من فيض، يعني: قليلًا من كثير.

و(غاض) كما تأتي بمعنى: النقص، تأتي أحيانًا بمعنى: ذهاب الشيء كلية، وهو أعلى درجات النقص: أن ينقص الشيء شيئًا فشيئًا حتى يزول بالكلية، فمن الأوّل قول الله، تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد: ٨]. ﴿تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾: (تغيض) من: الغيض، وهو بمعنى: النقص هنا بدليل المقابلة؛ لأنه قال: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾. فالمقابلة قرينة دالة على أن الغيض هنا بمعنى: النقص.

فالله –سبحانه وتعالى– يعلم كل ما في الأرحام من النقص والزيادة، سواءٌ كان في العدد، أم في العدة، أم في الصفات والأحوال، فهو يعلم ما في الأرحام من وجود الحمل أو عدم وجوده، ومن تعدد الحمل أو عدم تعدده، ومن صفاته أيضًا: كالذكورية والسلامة، وكمال الأعضاء، وحتى الشقاوة والسعادة... فعِلْمُه –سبحانه وتعالى– بِمَا في الأرحام علمٌ شامل كل ما يتعلق بالحمل من الزيادة ومن النقصان أيضًا، فالغيض هنا إذن هو بمعنى: النقص.

ويأتي أيضًا بمعنى الذهاب الكلّي للشيء، كما في قوله، تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [هود: ٤٤]. وغيض الماء: أي ذهب في أعماق الأرض، ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ [هود: ٤٤] بسبب ذهاب الماء، فإذن الغيض يأتي بمعنى: النقص، ويأتي بمعنى: الذهاب بالكلية. والفيض عكسه فهو بمعنى: الزيادة. يُقال: غاض الماء وفاض، يعني: زاد.

وكِلا المعنَيَيْن وارد هنا، فكلامه يحتمل أنّ الوفاء غاض من الناس، يعني: ذهب بالكلية. ويقصد بذلك المبالغة، ويحتمل أن يقصد بذلك: النقص، يعني: أنّ الوفاء قد نقص في الناس. والوفاء: هو الحفاظ على العهد والحفاظ على الوُد، وضده: الغدر؛ ولهذا قوبل؛ فقال: غاض الوفاء وفاض الغدر.

"وانفرجت مسافة الخُلف": انفرجت أي: اتسعت. والانفراج هو: الاتساع والتباعد بين الشيئين.

"وانفرجت مسافة الخلف بين القول والعمل": فهو يشكو في هذا البيت من أهل زمانه، وهو: أنه دخل عليهم من صفات النقص: صفة الغدر، وقلَّ فيهم مِن صفات الكمال: صفة الوفاء، وانفصل أو تباعد القول عن العمل، فهم يقولون أقوالًا حسنة ولكنهم يعملون بخلافها، يستحسنون الوفاء ولكنهم يغدرون، ويستحسنون الصدق ولكنهم يكذبون، فهذا المقصود باتساع المسافة بين القول والعمل، فالقول والعمل عندهم أمران

متضادان. فهو شكوى من أهل زمانه بانتشار مثل هذه الصفات: صفات النقص فيهم، ولم يزل الناس يشكون من هذا من قديم الدهر وحديثه، ولكن الطغرائي أشدهم معاناةً لهذا؛ لأنه مر بتجربة مريرة، حتى قُتل؛ بسبب الأحداث وبسبب مكانته الأولى؛ فلهذا أنحى باللائمة على أهل زمانه بهذا الحكم: وهو قلة الوفاء أو ذهاب الوفاء منهم.

وهذا كما ذكرتُ في كل زمان، والناس يشكون من قلة الوفاء، كما قال الشاعر قديمًا:

وَجَـرَّبـنـا وَجَـرَّبَ أَوَّلـونا فَـمـا شَـيءٌ أَعَـزَّ مِـنَ الـوَفـاءِ

(أعزّ) أي: أقل من الوفاء؛ ولهذا يشبِّهونه بالكبريت الأحمر، ويقصدون بذلك: الندرة، وأنه نادر كندرة هذا المعدن، بل بعض الشعراء مثل: صفي الدين الحِلي بالَغ، وجعله أمرًا معدومًا ومستحيلًا جعله أحد المستحيلات، قال:

لـما رأيـتُ بنـي الـزمانِ وما بـهـم أيـقـنـتُ أنَّ الـمستحيلَ ثـلاثةٌ
خِـلٌّ وفـيٌّ لـلشدائد أصطـفـي الـغولُ والـعنقاءُ والـخلُّ الوفـي

فجعل وجود هذا الصديق الوفي من المستحيلات، وهذا أيضًا من المبالغات التي تُستحسن في الشعر ولكنها لا تطابق الواقع. إن نظرنا إلى الواقع في كل زمان، فهناك أهل الوفاء وهناك أهل الغدر أيضًا.

فمن الناس من طُبِعَ على الغدر كما قالوا: **"حتى لو ألقمته عسلًا لعضّ إصبعك"**، **"ولو شرب من بئر لرماها بالحجر"**.

ولكن في المقابل، هناك في كل زمان أهل وفاء لا ينسون ساعة الوُد، كما قال الشافعي، رحمه الله: **"الحرُّ لا ينسى وداد لحظة، وتعليم لفظة"**، بمعنى: الإنسان الحر لا ينسى وداد لحظة، فلو جلست معه لحظةً بصفاء وود، يحفظ لك هذا المجلس، ولو علمته كلمةً، لحفظ لك هذا التعليم، ففي كل زمان هناك خير لا ينقطع إلى يوم القيامة.

البيت الثاني والخمسون: وشان صدقك عند الناس كذبهم.. وهل يُطابَق معْوجٌ...

وشـانَ صــدقَك عنــد النــاس كِــذبُهُمُ وهـــل يُطــابَقُ معــوَجٌّ بمعتَـــدِلِ

الشرح:

"وشان صدقك عند الناس كذبهم": **(شان)**، أي: قَبَّحَ، من الشين، وهو: الشيء القبيح، وضده الزين. والصدق هو: مطابقة الكلام للواقع. الخبر المطابق للواقع يقال له: صدق، وضده الكذب وهو: الخبر غير المطابق للواقع.

"وهل يطابق معوجٌ بمعتدل": **"وهل يطابَقُ"** بالبناء للمجهول، أو "يطابِق" بالبناء للفاعل؛ فتكون الباء زائدة على أنها مبنية للمفعول.

المُعْوج: اسم فاعل من الاعوجاج، وهو: الميل والانحناء، طريق معوج يعني: مائل. ويطلق المعتدل بمعنى: المستقيم، وهذا إذا قوبل بالمعوج كما هنا في هذا البيت.

إذا قوبل المعتدل بالمعوج، فالمراد به: المستقيم، يعني الشيء المستقيم، لكن يطلق المعتدل أحيانًا بمعنى المتوسط بين طرفين، المعتدل: يعني الشخص الذي يسير بين الإفراط والتفريط، بين الغلو والتقصير.

فهو يقول بأن ما شاع عند الناس من الكذب **"شان صدقَك"**، يعني: قبَّح صدقَك؛ لأنه صار شيئًا غير مألوف؛ من كثرة الكذب عند الناس، إذْ **يصير الخُلُق الفاضل غريبا، وقبيحًا، وغير مقبول عند الناس؛ بسبب غربته وقِلَّته وندرته.**

فهو يقول: انتشر فيهم الغدر، وانتشر فيهم الكذب أيضًا ما جعل صدقَك أمرًا قبيحًا في عيونهم، كما صار حتى الوفاء قبيحًا. وهكذا عندما تنتشر الأخلاق الرذيلة تصبح الفضيلة أمرًا مُنكَرًا عند الناس: عندما تنتشر الخيانة، يصير الأمين مستقبَحًا. وعندما يسود النفاق بين الناس، يصبح الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر والصادق مستقبحًا وثقيلًا على النفوس. فهذا معنى قوله:

وشـانَ صــدقَك عنــد النــاس كِــذبُهُمُ وهـــل يُطــابَقُ معــوَجٌّ بمعتَـــدِلِ

وهذا الاستفهام للنفي، كأنه قال: ليس يُطابق المعوج بالمعتدل. فالاستفهام أحيانًا يأتي بمعنى: النفي كما في قوله، تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، يعني: وليس جزاء الإحسان إلا الإحسان. وكما قول الشاعر:

وإن شفائي عبرةٌ مهراقةٌ ... فهل عند رسمٍ دارسٍ من مُعوَّل؟

فالاستفهام هنا بمعنى: النفي، يعني: فلَيْس عند رسمٍ دارسٍ من مُعوَّل. فكذلك هنا، هذا الاستفهام يُرادُ به النفي، **يعني لا يطابق المعوج بالمعتدل**.

البيت الثالث والخمسون: إن كان ينجع شيء في ثباتهم...على العهود فسَبْق...

إن كان ينجع شيء في ثباتهم ... على العهود فسَبْق السيف للعذل

الشرح:

"**إن كان ينجعُ شيءٌ في ثباتهم**": (ينجع) يعني: ينفع، و(نجع الدواء المريض) بمعنى: نفعه، ومنه قيل (النُّجعة) في المثل: "**أبعد النُّجعة**"، فالنُّجعة هي: طلب الكلأ وطلب المرعى للدواب، فمن هذا الباب لا يخرج عن هذه المادة؛ لأن الراعي إنما يطلب مِن المرعى ومن الكلأ ما ينفع دوابه؛ فلهذا قيل له: النُّجعة.

ومنه المثل: "**من أجدب انتجع**" يعني: أصابه الجدب، و(انتجع) أي: خرج من مكانه وانتقل إلى مكان آخر؛ لطلب النُّجعة، أي: لطلب المرعى الذي ينفع الدواب.

كما قال رجل، لما جلس في مائدة معاوية، رضي الله عنه، فصارت يده تتنقل -يعني أمام الآخرين- في نواحي الإناء، فعاتبوه في ذلك، فقال: "**من أجدب انتجع**"؛ لأنه انتهى من أكل الطعام الذي أمامه، فصارت يده تتنقل إلى أواني الآخرين، فقال له معاوية، رضي الله عنه: "**لقد أبعدت النُّجعة**" فرد عليه بالمثل الآخر. "**من أجدب انتجع**" يعني: فيما حوله، أما من انتقل في موائد الآخرين، فهذا قد أبعد النُّجعة.

إن كان ينجع شيء في ثباتهم ... على العهود فسَبْق السيف للعذل

العَذَل: اسم مصدر مأخوذ من العَذْل. والعَذْل هو: العتاب واللوم. عذله على كذا، بمعنى: عاتبه عليه.

وقد ضمّن الشاعر هنا في هذا البيت مثلًا مشهورًا عند العرب وهو: "**سبق السيف العذَل**" أو "**العذْل**".

وأصل هذا المثل يُقال إنّه لرجل اسمه: ضَبَّة بن أُد، كان له ولدان سعدٌ وسعيد أو سُعيد على الخلاف عند أهل العربية، فخرجا يطلبان الإبل التي نفرت، وأطالا الغيبة، فصار أبوهما من شدة القلق يخرج، وكلما رأى سوادًا، قال: أَسَعد؟ أم سعيد؟ إلى أن رجع سعد وما رجع سعيد، وبعد فترة من الزمن، لقي رجلًا في البادية، وجلس معه، يقال له: الحارث بن كعب، وبدؤوا يتحدثون في أمورهم، حتى قال هذا الرجل الحارث بن كعب: لقد قتلتُ شابًّا هيئته كذا وكذا، وصفته كذا وكذا وهذا سيفه. فنظر إلى السيف فإذا هو سيف سعيد، فقبل أن يضربه بالسيف، قال مثلًا، قال: "**الحديث ذو شجون**"، ثم قام فضربه بالسيف، وأخذ ثأره، فعاتبه الناس؛ لأنه قتله في الأشهر الحرم فقال: "**سَبَقَ السيفُ العَذَل**" أو "**العذْل**". فجرى هذا مثلًا، فأخذه الشاعر في هذا البيت، فقال:

إن كـــان ينـــجع شـــيء فـــي ثبــاتهم عـــلى العهــود فسَــبْق الســيف للعــذل

يعني: **أنّ الناس هؤلاء لا يفيدهم العتاب والعذل والملامة في الحفاظ على الوفاء والبعد عن الغدر، لا ينفعهم في الثبات على عهودهم إلا السيف والقوة، يعني**: "بالعين الحمراء" يلتزمون بهذه الأخلاق: الوفاء بعهودهم، ولكن العذل والعتاب لا ينفع فيهم، كما أن العذَل لا يرد حياة القتيل الذي ضُرب بالسيف: "سبق السيف العذل"، وهذا مِثل المَثل الآخر الذي قالوا فيه:

فَــلاَ تُكْثِـرُوا فِــيهَا الضــجَاجَ فَـــإِنَّهُ مَحَـا الــسَّيْفُ مَـا قَـالَ ابْـنُ دَارَةَ أَجْمَعَـا

ابن دارة هذا شاعر: سالم بن دارة، وهجا فزاريًا بالقصيدة المشهورة:

لاَ تَـأمَنَــنَّ فَــزَارِيًّـــا خَــلَــوْتَ بِـــهِ عَـلَـى قَـلُوصِــكَ وَاكْـتُبْهَــا بَأَسْـــيَارِ

أقذع في الهجاء، فجاءه فزاري وقتله، فقالوا: "**مَحَا السَّيْفُ مَا قَالَ ابْنُ دَارَةَ أَجْمَعا**"، يعني: انتهت القضية بضربة سيف!

فالخلاصة: أن العذل لا ينفع هؤلاء في تمسكهم بعهودهم وبالوفاء بها، وإنما قالَ: ينفعهم السيف في هذا، فالملام لا ينفعهم، كما أن العذل لا يرد القتيل الذي قتل بالسيف.

البيت الرابع والخمسون: يـا واردًا سؤر عيشٍ كله كدر...أنـفـقت صفوك في...

يـــا واردًا ســـؤر عيـــشٍ كلـــه كـــدر أنـفـــقت صـــفوك في أيامـــك الأُول

الشرح:

"**يا واردًا**" بالنصب هكذا؛ لأنه نكرة غير مقصودة، والنكرة غير المقصودة كما يقول النحاة تُنصب بعد النداء، كما قال ابن مالك:

والـــمفردَ الـــمنـــكور والـمُـضـافـــا وشبـهـــهُ انـصـــب عــادمًـــا خلافـــا

فهي نكرة غير مقصودة؛ فلا تدل على معيَّنٍ.

"**يا واردًا**": خطاب مفتوح، كما يقال، وليس موجَّهًا لشخصٍ معين، ولهذا قال الفقهاء: لو قال الرجل لامرأته: يا طالقًا وظلام الليل يرقبني، فإنها لا تطلق بهذا؛ لأنها نكرة غير مقصودة؛ فلا تدل على معين، بعكس لو قال: يا طالقُ. وبنى على الضّمّ فالنكرة هنا نكرة مقصودة، تدلُ على مُعيَّن.

فهنا يقول: "**يا واردًا**"، نصبه من باب النكرة غير المقصودة، فهو خطابٌ لكل أحد. والوارد هو: اسم فاعل من الورود، وهو الإتيان إلى الشيء، كما يُقال: ورد الماء، يعني: أتاه، وأشرف عليه، ولكن لا يلزم منه الدخول.

الورود في لغة العرب يأتي بمعنى: الإتيان على الشيء مجرَّدًا، كما قد يكون أيضًا بمعنى: الإتيان إلى الشيء والدخول فيه أيضًا، لكنه ليس بلازم؛ بمعنى: أن الدخول في الشيء ليس من لوازم الورود، ويقال: ورد بمعنى: أنه أتى إلى الشيء، كما يقال: وردت الإبل، أي: أتت إلى الماء لتستقي.

ويُقال: ورد الرجل إلى كذا، بمعنى: أنه جاء إليه؛ ليشرب، لكن لا يلزم منه التلبس بهذا الفعل والدخول فيه، فقد يكونُ وقد لا يكون.

ولهذا اختلف العلماء في المسألة المشهورة في علم العقيدة، وهي: مسألة الورود على النار، في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ﴾ يعني: من أحدٍ، صيغة عامة، ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ يعني: يَرِدُ نار جهنم، ففسّر بعض العلماء -ومنهم عبد الله بن عباس- هذا بمعنى الدخول، وجعل الدخول عامًّا في كل أحد من المؤمنين والكافرين، إلا أنّ الله يُذْهِبُ شر النار عن المؤمنين، ويجعلها بردًا وسلامًا عليهم، كما جعلها بردًا وسلامًا على إبراهيم عليه السلام، ففسَّرها بالدخول.

وذهب بعض أهل العلم -ومنهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه- إلى أن الورود هنا لا يلزم منه الدخول، وليس بمعنى الدخول، وإنما هو الإتيان إلى الشيء والإشراف عليه دون التَّلبُس به والدخول فيه، وأورد فيه حديث الصراط، وأنه جسر منصوب على جهنم، وأن الخلائق تمرُّ عليه، فحمل الورود هنا بمعنى الإتيان إلى الشيء دون الدخول فيه.

والواقع أن سبب الخلاف أن هذه الكلمة من حيث اللغة تحتمل هذا وتحتمل هذا، فتأتي أحيانًا بمعنى: الدخول في الشيء، وأحيانًا بمعنى: الإتيان إليه دون الدخول فيه.

وهذا يدلك على أهمية اللغة العربية في تفسير النص الشرعي، وأن التفسير يختلف أحيانًا بحسب الدلالة اللغوية؛ بسبب أن اللغة العربية محتمِلة لكل من التفسيرين، فابن عباس رأى أنها بمعنى: الدخول؛ لأنها جاءت بهذا المعنى في قوله -تعالى- مثلًا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] بمعنى: داخلون، وكذلك في قوله، تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٩]، ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، يعني: أدخلهم فيها. فحمل هذه الآية على هذا المعنى وجعل الحُكمَ عامًّا. وعبد الله بن مسعود نظر إلى الدلالة اللغوية أيضًا، كما قال الشاعر:

فَلَمّا وَرَدنَ الماءَ زُرقًا جِمامَهُ وَضَعنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ

"وَرَدنَ الماءَ": لا يلزم منه أنه نزل في الماء وشرب منه، وفي قوله، تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ [يوسف: ١٩]، فلا يلزم من الورود: الولوج في الشيء والتلبس به؛ ولهذا حمله على المعنى الثاني: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] يعني: مارٌّ عليها، لكن لا يدخلُ فيها، وأورد فيه حديث الصراط.

والآيات تحتمل هذا وتحتمل هذا ويؤيد القول الثاني قوله، تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢]، فظاهر هذه الآية الكريمة: أنهم لا يدخلون فيها، وأنهم مبعدون عنها لدرجة أنهم لا يسمعون حسيسها، أي: صوتها الخفي؛ فلهذا اختلف أهل العلم في هذه الآية، وهذه من مسائل العقيدة التي وقع فيها الخلاف حتى بين السلف الصالح، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ويمكن الجمع بين هذه الآيات بأن الورود بمعنى الدخول يكون في حق بعض الأمة: كعُصاة الموحدين مثلًا، ويكونُ بمعنى: الإتيان إلى الشيء دون الوقوع فيه في حق بعض الأمة: كالأنبياء، والصالحين ومن سبقت له الحسنى من الله، سبحانه وتعالى. وبهذا يحصل اجتماع الأدلة المذكورة.

فقوله: "**يا واردًا**" يعني: يا من يرد على الماء بقصد الانتفاع به.

"**يا واردًا سُؤْر عيشٍ كُلُهُ كدرٌ**": **السُؤْر** بمعنى: **البقية**، بقية الشيء والفَضْلَة الزائدة، ومنه مسألةُ: سُؤْر الهرة، هل هو نجس أو طاهر؟ وأورد فيه أبو قتادة حديث: "إنَّها ليسَت بنجَسٍ؛ إنَّها منَ الطَّوَّافينَ عليْكم والطَّوَّافاتِ" [صحيح أبي داوود: ٧٥، حسن صحيح]. **فسؤر العيش**: يعني **بقيته**، وبقيته إنَّما يقصد به: المشيب، وما تبقى من عُمُرِ الإنسان.

"**أنفقت صفوك في أيامك الأُوَلِ**": "**الأُوَلِ**": جمعُ أولى، والأصل أن يقال الأوائل؛ لأن المفرد إذا كان مذكَّرًا فصفته ينبغي أن تؤنث، لكن لما كان هذا من باب تأنيث غير العاقل –وهو ما يسمى بـ: التأنيث المجازي– ساغ الأمر في هذا واتسع، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فالأصل أن يقال: جاءته. لكن لما كان مؤنثًا تأنيثًا مجازيًا، جاز فيه هذا.

فـــلا مُـــزْنَـــةٌ وَدَقَـــتْ وَدْقَـــها ولا أَرْضَ أَبْـــقَـــلَ إِبْـــقـالَـهـــا

وهي في الأصل: أبقلت إبقالها. فلمّا كان هذا من باب التأنيث المجازي جاز هذا في كلام العرب.

فهو يقول: يا أيها الشخص الذي ورد على بقية العيش ما تبقى من الحياة، ويقصد بذلك أيام الشيخوخة وأيام الشيب، "**أنفقت صفوك في أيامك الأُول**" يعني: ذهب صفو الحياة في أيامك الأول، يعني: في أيام الشباب.

فهو يندب أيام الشباب التي ذهبت، وهي أيام قوة وصفاء، ويرثي على أيام المشيب التي ستأتي إليه وطبعُها أو وَصِفَتُها الكدر؛ لأن الله –تعالى– وصفها بأنها مرحلة ضعف: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤]. وهذا كما قال الشاعر:

والـعـمـــرُ مـــثـــلُ الـــمـــاءِ فـــي آخـــرهِ يـــأتـــي الـــكـــدر

أو: "يبقى الكدر"، يعني: مثل الكأس، فالكدر يبقى في آخر الكأس، وكذلك عمر الإنسان: أيامُ عافيتهِ، وقوتهِ، وصفائهِ تكون في الأول فإذا اكتمل الشباب بعد ذلك ينتقل إلى مرحلة الضعْف، ولهذا يقولون:

إِذَا مَـــا زَادَ عُـــمْـــرُكَ زَادَ نَـــقْـــصًا وَنُـــقْصَانُ الْـحَـيَـــاةِ مَـــعَ الـتَّـمَامِ

لأنه ليس بعد الكمال إلا النقصان، فإذا بلغت أوْج شبابك فما بعد ذلك إلا الضعفُ والنقصان.

ولهذا بكى بعض الصحابة لما نزلت الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]؛ فبكى، مع أن الناس فرحوا بإكمال الدين؛ قال: **لأنه ليس بعد الكمال إلا النقصان.**

فكذلك الإنسان إذا بلغ أوج الشباب وأوج القوة فليس بعد ذلك إلا الضَّعف، كما قال الشاعر:

من عاش أبْلى الدهر بجدته ... وخانه الثِّقتانِ السمعُ والبَصرُ

إن الثمانين وبُلِّغْتها ... قد أحوجت سمعي إلى تَرْجُمان

فما بعد هذه المرحلة إلا مرحلة الضعف؛ فلهذا يُعزي نفسه بذهاب الشباب ومجيئ المشيب.

البيت الخامس والخمسون: فيم اقتحامك لُجَّ البحرِ تركَبُهُ ..وأنتَ تكفيك منه...

فيم اقتحامك لُجَّ البحرِ تركَبُهُ ... وأنتَ تكفيك منه مصّةُ الوَشَلِ

الشرح:

الاقتحام هو: أنْ تدخُلَ الشيء فجأةً ودون رَوِيَّة. اقتحم الشيء، بمعنى: دخل فيه فجأة وبدون أن يفكر في عواقب هذا الفعل. ومنه الحديث الذي جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: "إنَّما مَثَلِي ومَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نارًا، فَلَمَّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ جَعَلَ الفَراشُ وهذِه الدَّوابُّ الَّتي تَقَعُ في النَّارِ يَقَعْنَ فيها، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ ويَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فيها" [صحيح البخاري: ٦٤٨٣]، فهو الدخول بدون رَوِيّة، هو أن تدخل بعجلةٍ وفُجاءةٍ، وبدون رَوِيّة، يعني بدون أن تفكر في عواقب هذا الدخول ولا تبالي به.

"لج البحر": يعني معظمه. واللَّجُ واللُّجة هو: الماءُ الكثير. ﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ [النور: ٤٠]: كثير الماء أو عظيم الماء.

"تركبه وأنت تكفيك منه مصة الوشل"، المص والمصة هو: الشرب بطرفِ الفم، وبرفقٍ وتدرج، يقال له: مصٌّ.

ومنه الحديث: "لا تُحَرِّمُ المصَّةُ ولا المصَّتانِ" [صحيح أبي داوود: ٢٠٦٣]، فالمص هو: أن تشرب بطرف فمك، بشفتيك، وضده: العَبُّ. في لغة العرب، العبُّ: هو أن تشرب بكميةٍ كبيرة بدون تدرج، ولهذا نهى النبي ﷺ عن العبِّ. يعني: إذا شرب الإنسان لا يشربُ بهذه الطريقة، ولكن يشربُ مصًا.

"**والوشل**" هو: الماء القليل الذي يتحدرُ من الأعلى، يقال للماء الذي يتحدر من الجبل: الوشل. ولكن أحيانًا العرب تطلقه على الماء الكثير؛ ولهذا جعلوا هذه الكلمة من الأضداد. الأضداد هي: الكلمة الواحدة التي تستعمل في المعنى وضده. فـ(الوشل) يُستَعْمَل في الماء القليل، وهذا هو الأكثر في الاستعمال، لكن أحيانًا يستعمل في الماء الكثير، والمراد هنا الأول.

- **ومعنى هذا البيت:**

يعني يا أيها الوارد، والآتي إلى هذه المرحلة من العُمُر، وقد ذهب شبابك وأقبل مشيبك، ما حاجتك إلى أن تقتحم لُج البحر، وتعرِّضَ نفسك لهذه المخاطر من أجل شيء يكفيك منه القليل!

يعني: يكفي الإنسانَ من هذه الدنيا أقل القليل، ولا يحتاج إلى الكثير. وكم من إنسان يجمع الشيء الكثير ثم لا يتمتعُ به، وإنما يتحولُ إرثًا إلى ذريته يستمتعون به! والمعدة في النهاية لا تأكلُ إلا حجمًا معينًا.

يكرر الشيخ الأمين -رحمه الله- دائمًا قول الشاعر:

الـــجوعُ يُـــطْرِدُ بـــــالرغيف اليـــابس فـــعلام تـــكـثـــر حســـرتي ووساوســـي

فالمعدة في النهاية تشبع، فلا فرق بين طعام الفقير والغني بعد أن تتجاوز هذه المنطقة. إذا تجاوزت الحلق ومحل الذوق، لا فرق بين طعام الفقير وطعام الغني؛ فالبطن تشبع بهذا وبهذا.

فهو يقول: لا حاجة لك إلى أن تقتحم لُجة البحر وتعرِّضَ نفسك للأخطار؛ من أجل الدنيا والأموال، وأنت يكفيك منه الشيء اليسير والقليل: يكفيك منه الوشل.

ولهذا دعا النبي ﷺ لنفسه ولآل بيته بهذا المعنى، فقال عليه الصلاة والسلام: "اللَّهُمَّ ارْزُقْ آلَ مُحَمَّدٍ قُوتًا" [صحيح البخاري: ٦٤٦٠]، قوتًا يعني: أقتات به ولا أحتاج إلى الزيادة، يعني: بمقدار ما يحتاج إليه الإنسان؛ ولهذا عاش ﷺ زاهدًا في هذه الدنيا، ومتقلِّلًا منها، مع أنه خُيِّر بين أن يكون ملِكًا رسولًا وبين أن يكون عبدًا رسولًا، كان يمكن أن يكون مثل سليمان وداود -عليهما السلام- كان لهما الدنيا والآخرة، ولكن لحقارة الدنيا عنده؛ اختار ﷺ أن يكون عبدًا رسولًا، يشبعُ يومًا ويجوع يومًا.

كما قالت عائشة، رضي الله عنها: "ابْنَ أُخْتِي، إنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إلى الهِلَالِ، ثُمَّ الهِلَالِ، ثَلَاثَةَ أهِلَّةٍ في شَهْرَيْنِ؛ وما أُوقِدَتْ في أبْيَاتِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ، فَقُلتُ: يا خَالَةُ، ما كانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الأسْوَدَانِ: التَّمْرُ والمَاءُ" [صحيح البخاري: ٢٥٦٧].

وشـــدَّ مِـنْ سَـــغَبٍ أحشـاءهُ وَطَـوَى   وراودتـــهُ الـــجبالُ الشُّـمُّ مـن ذهـبٍ

تحـتَ الحجـارةِ كشـحًا مـترفَ الأدمِعـن   نفــــسهِ فــــأراها أيــــما شـمـــمِ

عليه الصلاة والسلام.

البيت السادس والخمسون: مُلْك القناعة لا يُـخْشى عليه.. ولا يُحتاج فيه إلى...

مُلْـــك القـــناعة لا يُـخْـــشى عليـــه   ولا يُحتـــاج فيـــه إلى الأنصـــار والخَـــوَل

الشرح:

القناعة تأتي بمعنيين:

١) تأتي بمعنى: **الرضا بالشيء اليسير**، ويقال: قنِع فلانٌ بكذا يعني: رضِيَ به.

٢) وتأتي بمعنى: **السؤال والطلب**، ومنه: القُنُوعُ والقانعُ، كما في قوله، تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦]، قال كثيرٌ من السلف: القانع يعني: السائل.

وبناءً على هذين المعنيين جعل بعض العلماء كابن جنّي هذه الكلمةَ مِنَ الأضداد أيضًا؛ لأن السؤال ينافي الرضا باليسير؛ فلهذا جعلهُ ضِدًّا. لكن عارض بعض العلماء هذا القول وقالوا: بل إنّ السؤال يرجع إلى المعنى الأول أيضًا؛ لأن هذا السائل من شأنه أن يرضى باليسير، فإذا أعطيته ريالًا أو نصف ريال يرضى به، ولا يجلس عندك حتى تعطيه ألف ريال.

فقالوا: السائل لما كان في العادة يرضى بالشيء اليسير، رجع هذا المعنى إلى المعنى الأول، وما صار من الأضداد. فصارت القناعة إذن بمعنى: الرضا بالشيء اليسير.

"مُلْكُ القناعةِ لا يُخْشى عليه": يعني لا يُخاف عليه، **"ولا يُحْتاجُ فيه إلى الأنصار والخول"**

الأنصار: جمع (ناصر)، أو اسم جمع لـ(ناصر). والناصر هو: المساعد، والمعين، والنصير لك، ومنه سُميَ الأوسُ والخزرجُ بـ: الأنصار، سماهم الله -تعالى- بالأنصار، فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧]، **فسمّاهم بالأنصار لنصرتهم لرسول الله ﷺ؛ لأنهم ساعدوه، وعاونوه، وقاتلوا معه، وضحوا بأنفسهم وأموالهم من أجله، عليه الصلاة والسلام.**

"إلى الأنصار والخول"، الخَوَل هم: الخدم، والحشم، والعمال، وأصله من التخويل بمعنى: التمليك والإعطاء، كما قال الله -تعالى- في كتابه: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] ﴿مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾: أي ما مَلَّكناكم وأعطيناكم وراء ظهوركم. ﴿خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ [الزمر: ٨] و﴿خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا﴾ [الزمر: ٤٩] يعني: أعطيناه وملَّكناه. فالخَوَل مأخوذ من التخويل، وهو: التمليك والإعطاء، ويطلق على: الخدم، والحشم، والمال الذي يملكه الإنسان.

فالشاعر في هذا البيت يريد أن يقول لنا: القناعةُ مُلْكٌ. القناعة أي: الرضا بالشيء اليسير، هذا مُلْكٌ، مُلك حقيقي، لكنه يختلف عن مُلْك الملوك بأنه مُلْكٌ لا يحتاج إلى: عسكر، وأنصار، ورجال يدافعون عنه ويقاتلون دونه، ولا يحتاج إلى خدم وحشم. فالمِلِك الذي له الملك يحتاج إلى العساكر والأنصار، وإذا انقلب عليه الجيش، ذهب مُلْكُه؛ فهو يحتاج إلى قوّة، فلا يبقى ملكه إلا بهذه القوة يحرسه بالقوة، وهو نفسه يحتاج إلى: الخدم والحشم، وإلى طباخ يطبخ له، وخياط يخيط له... فحتى وهو في مُلكه، فهو محتاج إلى الضعفاء من الناس، لكنّ مُلك القناعة أعلى من هذا، فهو لا يحتاج مُلْكُ القناعة لا يحتاج إلى: جيش، ولا أنصار، ولا عساكر، تزهد في الشي وانتهى، وتصير ملكًا ولهذا قال عبد الله ابن مسعودٍ، رضي الله عنه: **"اقنع بِمَا قسم الله لك تكن أغنى الناس"**، اقنع بما قسم الله لك -أي: بِمَا أعطاك الله- تكن أغنى الناس.

يرسل الخليفة إلى الخليل بن أحمد الوسائط؛ ليحضر مجلسه، وجده يبُلُّ الخبز اليابس بالماء، وقال: ما دمتُ أجدُ هذين فلا حاجة لي فيه. مَلِك! هذا هو المُلك الحقيقي!

البيت السابع والخمسون: اقنع تـجِلَّ ولا تطمع تذل ولا.. تعجل تـزل ولا تغتـر...

اقـــنع تـــجِلَّ ولا تـطـــمع تـــذل ولا ... تـعـــجل تـــزل ولا تـغتـــر بالـــمهل

الشرح:

هذا البيت زيادة في بعض النُسخ، ولا أحفظه، وهو تأكيد للمعنى السابق، يقول: **"اقنع تجل ولا تطمع تذل"**.

ولهذا قالوا في المثل: **"من قنِع عَزَّ، ومن احتاج ذَلَّ"**، فالقناعة عِزٌّ، بل هو كنزٌ لا نفاد له؛ يعني لا ينفد ولا ينتهي، بينما الطمعُ ذُلٌّ، فمن طمع، وسأل الناس، وتعلقت نفسه بالناس ذَلَّ فهو يُضطرُّ أن يريق ماءَ وجهه أحيانًا من أجل حاجته، كما قال الشاعر:

تـــعالى الله يـــا ســلـــمَ بـــنَ عمـرٍو ... أذلَّ الـــحرصُ أعـنـــاق الـرجـــالِ

حِرص الإنسان وطمعه يورده مواقف الذُّل؛ ولهذا إذا أردت العِزةَ، استغنِ عن الناس، وعلِّم نفسك القناعة بما أعطاك الله -سبحانه وتعالى- تكن أغنى الناس.

"ولا تعجل تزِلَ"، العجلة دائمًا -والإنسان خُلِق عجولًا- توقع الإنسان في الزلَل، يعني: في الخطأ فلا تتعجل في مباشرتك للأعمال، ولا في حكمك على الناس.

قد يقول الإنسان أحيانًا بالعجلة قولًا، ثم بعد التحقق منه يُدرك أنه أخطأ فيه، والكلمة أنت تملكها إلى أن تخرج من لسانك، فإذا خرجت من لسانك، صرت مِلكًا لها وأسيرًا لها.

"ولا تغترَ بالمَهَلِ"، لا تغتر بإمهال الله -سبحانه وتعالى- لك، لا تغتر بطول العُمُر، فإن الموت يأتي فجأةً، والقبر صُندوقُ العمل، وقد يخرج الإنسان في لحظةٍ من هذه الدنيا، ما بينه وبين الموت إلا روح تخرج من الإنسان، وهذه ما أسهلها! وكلُّ شيءٍ قاتلٌ إذا لقيت أجلك، حتى لو صخرة أو حجر صغير تتعثّر به، أو لُقمة تغص بها، فإذا جاء الأجل كانت أقلّ الأسباب مميتةً.

البيت الثامن والخمسون: ترجو البقاء بدار لا ثبات لها.. فهل سمعت بظل غير...

ترجــو البَقــاءَ بـــدارٍ لا ثَبــاتَ لهــا فهــل سَمِعْــتَ بظــلٍّ غــيرِ منتقــلِ

الشرح:

في نسخةٍ: **"ترجو الخلود بدارٍ لا ثبات لها"**، وفي نسخة الأخرى: **"بدارٍ لا بقاء لها"**. والبقاء والخلود بمعنًى واحدٍ، ويقابله: الفناء.

"ترجو البقاء" يعني: تأمل البقاء والخلود في هذه الدنيا ومن طبعِ هذه الدنيا أنها لا ثبات لها، معناه: أن الدنيا متغيرة، ما فيها شيءٌ ثابت، حتى أنت لست ثابتًا فيها، يدركك هذا التغيرُ فيها في أقل لحظةٍ يريدها الله، سبحانه وتعالى.

"فهل سمعت بظلٍ غيرِ مُنْتقِل": **الظلُّ: السواد الذي يوجد بسبب حجب ضوء الشمس عن الشيء**، فإذا حجبتَ ضوء الشمس بشيء كثيفٍ، فإنه ينشأ عنه هذا الظل؛ لهذا ربط اللّه بين حركة الظل وحركة الشمس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥]، هذه من الآيات اللطيفة فالله -سبحانه وتعالى- يبيّن لنا آيةً من آياته ونعمةً من نعمه، فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] يعني جعلهُ ممتدًّا، يمتد بحركةِ

الشمس، ثمّ يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ [الفرقان: ٤٥]، أي: لو شاء –سبحانه– لجعل الظل ساكنًا، لا يتحرك بحركة الشمس، فلا تجد ظلًّا إلا تحت أصل الشيء فقط، كما يكون الحال عند الزوال.

ثمّ قال، سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥-٤٦]، فربط بين حركة الظل وحركة الشمس؛ لأن حركة الظل ناشئة عن حركة الشمس.

إذا كانت الشمس متحركةً، ولا يمكن لأحد مهما أوتي من قوةٍ أن يوقفها، فهل نتوقع أن يكون هناك ظلٌّ ثابت غيرُ منتقل؟ الجواب: مستحيل!

فهو يشير إلى حكمةٍ، وهي: أن هذه الدنيا كالظل الزائل، فهذه الدنيا التي نعيش فيها والدار التي لا بقاء لها هي كالظل، ولا يوجد ظل ثابت فالظل زائل ومتحرك ولا يبقى، فشبّه هذه الدنيا بالظل الزائل؛ حتى لا تغتر بها، ألم يقل: لا تغتر بالَمَهل؟ لا تغتر بالعُمُر، لا تغتر بالإمهال، لا تغتر بهذه الحياة؛ فإنه لا بقاء لها!

ولهذا يحثنا الله –سبحانه وتعالى– دائمًا في كتابه على مسألة التزود للآخرة: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، أي: انظر إلى المستقبل، ما بعد هذه الحياة. يشعرك بأن هناك سفرًا قادمًا، وهو السفر إلى الآخرة؛ لهذا يأمرك بالزاد؛ فيقول: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، وراءك سفر طويل، كما تتزود لسفرك في الدنيا فتزود لسفرك في الآخرة، وزاد الآخرة: هو تقوى الله، سبحانه وتعالى.

والله –عز وجل– دائمًا يذكر الإنسان بهذا، ويذكرنا دائمًا بأن الحياة الدنيا متاعُ الغُرور، يعني: لا تغتروا بها، هي متعة، ولكنها كما قال التُّهامي:

العيشُ نومٌ والمنِيةُ يقظة   والمرءُ بينهما خيالٌ ساري

هي مثل الخيال، سواد تراه ولا تتحققه، هكذا حياةُ الإنسان، هي مِثلُ الخيال، يمرُّ سريعًا.

ولهذا اسأل أي شائب في الثمانين من عمره، أو في المئة، سيقول لك: العمر كأنه أيام. فهو يرى الدنيا قصيرةً جدًا؛ لأنه وصل إلى الآخِر، وأدرك الحقيقة، ولكن الإنسان الذي لا زال في البداية، ما زال في أوَّلِ البحر، لا يدري؛ فيظن أن هذا البحر طويل، وأن المشوار أمامه لا يزال فيه سَعة. فهذه حال الدنيا ولهذا قال التُّهامي في هذه القصيدة وهي قصيدة جميلة:

حُـــكمُ الـــمَنِيَّةِ فـــي الـــبَرِيَّةِ جــاري بــيــنــا يُـرى الإنسـان فيهـا مُــخْبِرًا

مـــا هَـــــذِهِ الـــدُنيا بِـــــدار قَــــرار حــتــى يُــرى خـــبرًا مـــــن الأخــــبار

أنت في الدنيا مخبِر تقول: فلان فعل كذا، فلان فعل كذا، وفلانٌ مات، وفلانٌ عاش... وبعد أيام ستكون أنت خبرًا، كُنت مخبِرًا، فصرت خبرًا، خبرًا يتناقلك الناس: مات فلان رحمه الله! **"حتى يُرى خبرًا من الأخبار"**.

كما قال الخشَّاب -رحمه اللَّه- في الحافظ ابن يونس المصري، وهو من أشهر المؤرخين في تاريخ الإسلام، وكتب في تاريخ مصر كتابين مشهورين، ثمّ توفي بعد زمن، قال الخشاب قصيدةً في رثائه، ومنها قوله:

مـا زلــتَ تلهــجُ بالتــاريخ تكتبــه حــتى رأيــنـــاك فـــي التـــاريخِ مكــتــوبــا

يعني: كنت تكتب وَفَيات الناس، حتى رأيناك في التاريخ مكتوبًا. وقيل: كان هناك رجل دائمًا ما يصحب الجنائز، ويصيح فيها: "الرحيل، الرحيل"، يذكِّر الناس، وفي يوم ساروا في جنازة فلم يسمعوا هذا النداء الذي ألِفوا أن يسمعوه: "الرحيل، الرحيل"، فسألوا: أين فلان؟ قالوا: هذا هو الميت الذي تحملونه، فقال الشاعر:

فـــما زال يـــــلهج بالـــرحيل مـــناديًا حـــتـــى أنـــاخ بــبــيــتــه الجَـمَّــالُ

يعني كان يصيح دائمًا: "الرحيل، الرحيل"، حتى جاء الجمال فأناخ ببيت هذا الشخص.

أو كما قالوا في القصة التي حكاها الأصمعي عن أبيه أنه قال: لما نزل الطاعون رأيتُ رجلا يُحْصي الموتى بالكوس. عنده كوس وحصى، فكان يحصي الموتى، كلما أتوا بواحد رمى حصى في الكوس حتى يعدهم. ففي اليوم الأول أحصى ثمانين ألفًا، وفي اليوم الثاني مئة ألف؛ لأنه طاعون أصاب الناس فلما جاءوا في اليوم الثالث وجدُوا رجلًا آخر، فقالوا له: أين فلان؟ فقال: وقع في الكوس! أي جاء دوره.

فهذه الدنيا ليست دار قرار، ولا يوجد لأي إنسان ضمانٌ بأنه يعيش إلى وقت كذا، وإلى مكان كذا. وإذا استحق أحد البقاء فيها، فسيد الخلق هو أولى الناس بالبقاء فيها، ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

فهذه موعظةٌ، يذكرها الناظم رحمه الله؛ من أجل ألّا يغتر الإنسان بهذه الحياة.

البيت التاسع والخمسون: وَيَا خبيرًا على الأسرار مطلعًا.. اصمت ففي الصمت...

وَيَـــا خبيــرًا علــى الأســـرار مطلعًـا اصمت ففي الصمت منجاةُ من الزلـل

الشرح:

الخبير: هو العليم بالشيء، الذي يعرف الشيء بناءً على اختبار وتجربة، ﴿فَسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، وكما قالوا في المثل: **"على الخبير سقط"**، يقصدون بالخبير: الشخص العارف بالشيء بناءً على اختبار وتجربة، كما يقال الآن: فلان خبير في كذا، بمعنى أنه رجل مضى له زمن وجرب هذه الأمور وعاشها، وعنده معرفة عملية بهذه الأشياء.

فيقول: **"ويا خبيرًا على الأسرار"**، الأسرار: هي الأمور التي يُسِرُّها الإنسان، ومن حقها أن تُكتَم عن غيره لما فيها من مصلحة أو مفسدة.

"اصمت ففي الصمت منجاة من الزلل"، منجاة: إما مصدر ميمي أو اسم مكان. منجاة من الزلل، أي: فيها نجاة من الزلل، أي: من الخطأ. فهو يحثك أو ينصحك من خلال تجربته في الحياة بالصمت والإقلال من الكلام، فإن كثرة الكلام مظنّةٌ للزلل والخطأ، والنبي ﷺ قال قولًا أبلغ من هذا: "وَمَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أوْ لِيَصْمُتْ" [صحيح البخاري: ٦٠١٨]، فإن كان ما تقوله خيرًا، فقل به واحتسب أجرك عند الله، سبحانه وتعالى، وإلا فالصمتُ منجاةٌ، كما قال.

البيت الستون: قد رشحوك لأمرٍ إن فطنت له.. فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

قَـــد رشَّـــحوك لأمــرٍ إنْ فطِنـــتَ لـــهُ فـــاربأْ بنفســكَ أن ترعــى مــع الهَمَــلِ

في بعض النسخ: **"لو فطنت له"**.

الشرح

(رشحوك) أي: أعدُّوك وهيؤوك، من الترشيح وهو: الإعداد والتهيئة للشيء.

وأصل هذا في لغة العرب أنّ: الناقة أو الظبية تأتي خَلْف وليدها، فتدفعه إلى الأمام؛ ليتقدم ويمشي، وهذا هو أصل الترشيح، ومنه أُطلق: الإعداد والتهيئة، لأنّ المرشَّحَ كأنه يُدفعُ من خلفه؛ ليبرز؛ لينتقل من دائرة الخفاء

والباطن إلى دائرة الظاهر، مثل الرَّشْح وهو: العرق، هي سوائل داخل الجسم، تظهر بعد ذلك على ظاهر الجِلد. **فالترشيح هو من هذا الباب، أصله: الإعداد أو التهيئة للأمر.**

"إن فطِنت له"، الفطنة هي: الذكاء، وجودة الذهن، ولهذا يمدحون الرجل يقولون: فلانٌ فطِنٌ، أو فطينٌ، كما في الشاهد المشهور:

قـــالت وكـــــنتُ رجـــلًا فـــطـــينًـــا   هـــــــذا لـــعَمْـــــرُ اللهِ إســـرائـــيـــنـــا

فالرجل الفطين هو: الرجل الذكيّ، صاحب العقل الجيد، الذي يدرك الأشياء ويفهمها بسرعة.

"فاربأ بنفسك"، اربأ بنفسك: أي ارتفع بنفسك، ومنه الربوة وهي المكان العالي. فـ**"اربأ بنفسك"** يعني: لا تنزل نفسك، وإنما ارتفع بها، واحفظها من الزلل.

"أن ترعى مع الهمل"، الهمل: هي الإبل المهملة، التي لا راعي لها، مثل: النَّفش في الغنم، وهي الغنم المرسلة التي لا راعي لها، قال تعالى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، النَّفَش يستخدم في الغنم خاصةً، وبالليل خاصةً.

فهو في هذا البيت الأخير يقول لك: بأنهم هيؤوك وأعدوك لأمر جليلٍ وأمر رفيعٍ عالٍ؛ فارتفع بنفسك، لا تُذل نفسَك؛ فترعى مع الهَمَل، مع عامة الناس، وأراذل الناس. ولكن جاهد نفسك أن تكون من خاصة الناس، من أصحاب الفضل، والدين، والإيمان، والخلق... لا ترضَ أن تكون من عامة الناس، هكذا من الهمل!

وبعض العلماء يقول بأن المعنى من هذا البيت هو: التحذير من مكائد الأعداء، فـ **(قد رشحوك)** قالوا: هذا الضمير يعود إلى الأعداء، واكتفى بالضمير دون أن يصرح باسمهم من باب التحقير لهم يعني: هم أحقر من أن أسميهم، فهؤلاء قد أعدُّوك لشرٍّ خبؤوه لك؛ **"فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل"** يعني: ابتعد عنهم، وحافظ على نفسك، واهرب منهم، وابتعد عن الشر الذي أرادوه. فهذا المعنى الثاني الذي أشاروا إليه، لكن المعنى الأول يبدو أنه هو الأقرب إلى مرادِ الشاعر.

بهذا انتهت هذه القصيدة بما فيها من هذه التوجيهات والحِكَم، وأسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يرزقنا علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا متقبلًا، وأن يرزقنا، ويهدينا إلى أحسن الأخلاق وأتمِّها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأجمعين.